أوراق الورد

رسائلها ورسائله

تأليف
مصطفى صادق الرافعي

قدم له
محمد سعيد العريان

عرض ودراسة
عادل عبد المنعم أبو العباس

مكتبة ابن سينا

مكتبة ابن سينا
للنشر والتوزيع والتصدير
نافذتك على الفكر العربي والعالمي من خلال ما تقدمه لك من روائع الفكر العالمي والكتب العلمية والأدبية والطبية ونوادر التراث واللغات الحية. شعارنا: قدم الجديد..
وبسعر رخيص
يشرف عليها ويديرها
مهندس
مصطفى عاشور
٧٦ شارع محمد فريد - الزهة - مصر الجديدة - القاهرة
تليفون: ٢٦٣٧٩٨٦٢ - ٢٦٣٥٣٢٨٢ فاكس: ٢٦٣٨٠٤٨٣
Web site: www.ibnsina-eg.com
E-mail : info@ibnsina-eg.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز طبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل أو اقتباس أي جزء من الكتاب أو تخزينه بأية وسيلة ميكانيكية أو إليكترونية بدون إذن كتابي سابق من الناشر.

مصطفى صادق الرافعي، مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد ابن أحمد، ١٨٨١- ١٩٣٧
أوراق الورد: رسائلها ورسائله/ تأليف: مصطفى صادق الرافعي، قدم له: محمد سعيد العريان؛ عرض ودراسة: عادل عبد المنعم أبو العباس.
ط١- القاهرة: مكتبة ابن سينا، ٢٠١٦
٢٤٠ ص؛ ٢٠ سم
تدمك ٩ ١٦٢ ٤٤٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١- الرسائل العربية العاطفية.
أ- سعيد العريان، محمد سعيد العريان، ١٩٠٥- ١٩٦٤ (مقدم)
ب- ابو العباس، عادل عبد المنعم (دارس)
ج- العنوان. ٨١٦.٠٥
رقم الإيداع: ٢٠١٦/١٤١٧٥
الترقيم الدولي: 978-977-447-162-9
تصميم الغلاف: إبراهيم محمد إبراهيم
الإخراج الفني: وليد مهني علي

تطلب جميع مطبوعاتنا بالمملكة العربية السعودية من
مكتبة الساعي للنشر والتوزيع
ص.ب ٥٠٦٤٩ الرياض ١١٥٣٣ - هاتف: ٤٣٥٣٧٦٨ - ٤٣٥١٩٦٦ - ٤٣٥٩٠٦٦
فاكس: ٤٣٥٥٩٤٥ جوال: ٠٥٥٠٦٧١٩٦٧
E-mail: alsnay99@hotmail.com

مطابع العبور الحديثة - القاهرة
تليفون: ٤٤٨٩٠١٣ فاكس: ٤٤٨٩٠٥٩٩

obeikandl.com

تقديم

نحمدُ اللّهَ على نعمةِ التوفيق، ونُصَلِّى ونُسَلِّمُ على أشرفِ مُرْسلٍ لهدايةِ الناسِ إلى أقْوَم طريق، وعلى آلهِ وصَحْبهِ أجمعين.

وبعد،،

فَمَعْرُوفَةٌ هى قِصَّةُ الحُبِّ العميقِ الذى حَملَهُ قلبُ الرافعىّ الأديب للصحفيَّةِ الأدِيبَةِ "مَىْ زيادة"، والنهايةُ التى آلتْ إليْها هذه المحَّبة من اعتذار "مَىْ" عن الارتباط بـ "مصطفى الرافعى"، رغمَ الرسائلِ المتبادلة بينَهُمَا.

ويعرفُ الأدبَاءُ كذلك موقفَ الأديب الكبير" عباس محمود العقاد" من صرف "مى" عن "الرافعى"، بل وتغيير مواعيد صالونها الأدبى حتى لا يتمكن الرافعى من الحضور، وما دار فى هذا الموضوع من معارك فكرية دامت واستمرت بين الأدبيين العملاقين حتى بعدَ رحيل"الرافعى" عن دنيا الناس!!.

وكتابُ "أوراقِ الورد" مجموعة من الرسائل المتبادلة، وهو طائفة من الخواطرِ فى فلسفَةِ الحبِّ والجمال، أنشأها "الرافعىّ" ليصفَ بعضَ أحوالهِ فى بعضِ سِنى عُمْرِهِ، وهى تضم- ما يزعمه المؤلفُ- رسائِلَهَا ورسائِلَهُ.

وتقديمُ كلمة "رَسَائلها" توحى بأنَّهَا هىَ البادِئَةُ بالكتابةِ، وأنهُ المجيبُ، لكنكَ حينما تتصَفَّحُ الكتاب لا تَعْثُرُ إلا علىَ رسالتيْنِ مَنْسُوبتيْنِ إليْهَا، وضع للأولى عنوان:" البلاغَةُ تتنهَّدْ"، وللثانية:" الحبيبَاتُ والمصائبُ"، زد على ذلِكَ فصولاً متنوعةً من بعضِ رسائِلها، كتبها بأسلُوبهِ، فجاءتْ مُبهمةً، وكأنَّهاَ لم تُنْشَرْ!.

فهى إذن- كما يرى بعضُ الباحثين- مراسله وهمية، وإن قالَ المؤلف إنه تلقى مِنْهَا رسائلَ كثيرة لم تأذنْ بنشرها، فاحتالَ هو لذلِكَ ونقلها إلى لغتهِ.

لكن فاتحةَ الكتاب تكشفُ أن الأمْرَ لا يعدُو التوهم فى أكثرهِ، وأن الهجرَ قَدْ بَدَّلَ مِن حبيبتهِ مظهَرَ الجلالِ والوقَارِ، وأخضَعَها لخيالهِ خضوعًا لا يضرُّهَا، وإذا بينهُما حُبٌّ "باعتبارٍ عَقْلِّى" وِفقَ تعبير ابن سينَا.

سَبَبُ التسمية

ومقدمة الأوراق تشرح سبب تسمية الكتاب وهو أن ملهمته كانت تحمل وردة ظلت تشمها وتداعبها إلى أن قالت له: "ما أرى الحب إلاّ كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله، ولا أوراق الوردة إلاّ مثله في انتشارها على أصابع من يمسها إذا جاوز في مسها حداً بعينه من الرفق". ثم أنها دنت منه وعلقت الوردة على عروته فقال لها : "وضعتها (...) لكن على معانٍ في القلب كأشواكها" فاستضحكت وقالت:" فإذا كتبت يومًا معاني الأشواك فسمها "أوراق الورد"، وكذلك سماها".

فقد أراد الكاتب، إذن أن يتكلم على الأشواك بما توحيه من ألم وحزن، فاستعمل عبارة أوراق الورد وهي توحي غير ذلك تمامًا، ربما من باب العلاقة الضدية في الكناية، أو الاستعارة التهكمية وفاق مصطلح الخطيب القزويني.

أما المقدمة الثانية التي سماها الرافعي "صدر من التاريخ" وأشرنا إليها في ما مضى، فبحث جيد في تاريخ رسائل الحب عند العرب حاول الرافعي أن يبرهن فيه على خلو الأدب العربي من مثل هذا الفن، وعلى أن رسائله هي الأولى في هذا الميدان، لكن في ذلك نظرًا.

بعد المقدمتين تأتي الرسائل، ولا تصح هذه التسمية على كل فصول الكتاب كما سوف نرى، فبعض فصوله تأملات، وبعضها حوار، وبعضها مناجاة. وهي واحد وخمسون فصلاً: تسعة من الشعر الموزون، وثلاث مقدمات لبعض الفصول من الشعر الموزون أيضًا، وما تبقى من الكتاب فمن النثر والشعر المنثور.

القصيدة الموزونة الأولى (ما نفع رقة روحي) رسالة شعرية منه إليها، وأما القصيدة الثانية (قال القمر) فهي مناجاة للقمر لا رسالة، والقصيدة الثالثة (مني السلام) رسالة شعرية منه إليها، والقصيدة الرابعة (كتاب الرضا) وصف لرسالتها ومناجاة هذه الرسالة، والقصيدة الخامسة (كذب مصور) رسالة شعرية قصيرة، والقصيدة السادسة (متى يا حبيب القلب) مناجاة لنسيم الفجر لا رسالة، والقصيدة السابعة (في الأحلام) وصف لحلم، والقصيدة الثامنة (يا قلبي) وصف لقلب العاشق، والقصيدة التاسعة

والأخيرة «يوم النوى» وصف للعاشق والعشق. فليس في هذه القصائد التسع ما يصح اعتباره رسائل إلا ثلاثًا. وتبدو جميعًا وكأنها أقحمت في الكتاب للتذكير بأن الرافعي يستطيع أن يكتب الموزون والمنثور، وبأنه لا يريد أن يصدر ديوانًا مستقلاً للنوع الأول.

أما القطع المنثورة فبعضها يبدأ بأبيات من الموزون ثم يستكمل بالمنثور، وبعضها الآخر منثور على الإطلاق؛ وليست كلها رسائل، بل إن منها تسعًا يمكن أن نعتبرها مقالات هي التي تحمل عنوانات: ألم الحب، هدية شتم، صلاة في المحراب الأخضر، شجرات الشتاء، رسالة الطيف، فلسفة المرض، الهجر، وهم الجمال، والسلام عليها، وثلاثًا هي أشبه بالمذكرات والخطرات وتحمل عنوانات: قالت وقلت، النجوى، قلت وقالت، وواحدة قصيدة مترجمة كما يدعى المؤلف.

وقد ذهبَ الأستاذ الكبير "محمد عبد الغنى حسن" إلى أن الرسائلَ فى "أوراق الورد" حقيقية، ويرد على الذين يزعمون أنها وهمية، وذلك فى كتابه عن "مى" بعد ذكره لبعض الرسائل قائلا: " لعَلَّ فى هذهِ الرسالةِ أبْلَغَ ردٍّ على مَنْ ينكرونَ تبادُلَ الحُبّ بين "مى" و"الرافعى".

ماذا يمكِنُ أن تقُول امرأة فى التصريح بالحُبِّ أكثرَ مِن هذا ؟.

قد يكونُ ذلك، وقد تكُونُ مهارَةُ الرافعى فى التعبير عنها هى التى جعلت البعض يرىَ هذا الرأى الذى دفَعُه بأن يقول بوهمية الرسائل.

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل، فإنها قد أثرت فى الأدَبِ العربى الحديث، ودفعت عددًا من الأدباء على تقليد "الرافعى"وتأليف كتب

فى هذا الموضوع، ومن أولئِكَ" محمد صادق عنبر" الذى كتب رسائل على لسانِ "المجنون" ، "وليلى"، وكذلك الدكتور "زكى مبارك" الذى كتب "رسائل مجنون سُعَاد"، " وخليل الحشالى" الذى أخرجَ "رسائل قلب".

ولن أطيلَ أكثر من ذلك، وسأدعُ الحديث لتلميذ الرافعى الأديب العالم " محمد سعيد العريان" الذى عرَف نفسية صديقه وأستاذه فَعبَّرَ عن المراد، وقدْ خلا تصديرهُ هذا من الطبعات التى صدرت، فأثبتناها للأمانةِ العلمية أولاً، وليكون لطبعتنا ثِقَلَهَا ومكانَتُها.

سائلا الله التوفيق لنشر الأدب الراقى لكبار أدباء أمتنا لنواجه به الأدب الرخيص أو كما يسميه الدكتور " محمد ذهنى " رحمه الله: "اللاأدب".

والله من وراء القصد، وهو نعم المولى ونعم النصير

عادل عبد المنعم أبو العباس

obeikandl.com

تصدير

بقلم تلميذ الرافعى وكاتب سيرته..

محمد سعيد العريان

كانت قصة حب..

ثم انتهت كما ينتهى كل حب بين اثنين تكون الفلسفة والكبرياء بعض عناصر وجوده، وافتراق الحبيبان على غير ميعاد، وفى نفس كل منهما حديث يهم أن يفيض به..[1].

وفعل الفراق بالرافعى ما فعل، فأنشأ كتابيه "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" يصف فيهما من حاله ومن خبره وما كان بينه وبين صاحبته، فلما استفرغ ما كان فى نفسه من خواطر الحب المتكبر، ونفس عن غيظه بما ذكر من معانى البغض والهجر والقطيعة ليخدع بذلك نفسه عما تجد من آلام الفراق ويثأر لكبريائه- هدأت ثائرته بعد عنفوان، وفاءت إليه نفسه، واعتدلت مقادير الأشياء فى عينيه، فعاد إلى حالة بين الغضب والرضا، وبين الحب والسلوان، فاستراح إلى اليأس لولا أثارة من الحنين تنزع به إلى الماضى. وبقية من الشوق واللهفة على ما كان، وفرغت أيامه من الحادثة لتمتلىء من بعد بالشعر والحكمة والبيان.

ومضت سبع سنين والحياة تذهب به مذاهبها، والذكرى تغشاه فى

---

(1) انظر قصة الرافعى العاشق من كتابنا «حياة الرافعى».

خلوته وتداعبه فى أحلامه، والأمانى التى بعثرتها الكبرياء بددًا فى أودية النسيان تتخايل له فى شكول وألوان، وخواطره من وراء ذلك تعمل، ونفسه الشاعرة تحس وتشعر وتنفعل بما يتعاقب عليها من الرؤى والأحلام، حتى اجتمع له ما اجتمع من الخواطر فى "أوراق الورد".

"أوراق الورد" هو طائفة من الخواطر المنثورة فى فلسفة الجمال والحب أنشأه الرافعى ليصف حالة من حالاته ويثبت تاريخًا من تاريخه فى فترة من العمر لم يكن يرى لنفسه من قبلها تاريخًا ولا من بعد.

ويقول الرافعى إنه جمع فى أوراق الورد رسائلها ورسائله أما رسائله فنعم، ولكن على باب المجاز. وأما رسائلها فما أدرى أين موضعها من الكتاب؟

إلا رسالة واحدة وجزازات من كتب ونتفًا من حديثها وحديثه.

بلى، إن فى أوراق الورد طائفة من رسائله إليها، ولكنها رسائل لم تذهب إليها مع البريد[1] بل هى من الرسائل التى كان يناجيها بها فى خلوته ويتحدث بها إلى نفسه، أو يبعث بها إلى خيالها فى غفوة المنى، ويترسل بها إلى طيفها جلوة الأحلام، إلا رسالتين أو ثلاثًا مما فى أوراق الورد... فلما أتم تأليفها وعقد عقدتها، بعث بها إليها فى كتاب مطبوع بعد سبع سنين من تاريخ الفراق!

ولكن أوراق الورد ليس كله من وحى حبيبته «فلانة». وليست كل رسائله فى الكتاب إليها، فهناك «فلانة» أخرى: هنالك صاحبة "حديث القمر" تلك التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ تسع عشرة سنة، وهنا هذه... هما اثنتان لا واحدة: تلك يستمد من لينها وسماحتها وذكرياتها

(١) اقرأ ص ١٠٤ من كتابنا "حياة الرافعي": وسائلهما فى المراسلة.

السعيدة. معانى الحب التى تملأ النفس بأفراح الحياة، وهذه يستوحيها معانى الكبرياء والصد والقطيعة وذكريات الحب التى أشرق فى خواطره بالشعر وأفعم قلبه بالألم!

لقد مضت سبع سنين منذ فارق صاحبته فلانة، كان قلبه فى أثنائها خالصًا لها، ولكن فكره كان يدور على معانى الشعر يلتمسه من هنا ومن هناك، فلما اجتمع له ما أراد، ضم أوراق الورد إلى أشواكه وأخرجها كتابًا للفن أولا ثم لها من بعد.

هو كتاب ليس كله من نبضات قلبه الذى كان يعشقها، ولكن فيه إلى جانب ذلك فكر المفكر وعقل الأديب وحيلة الفنان.

بلى، إنه كان يحبها حبًا لا يتسع القلب لأن يشرك فيه غيرها، فكان (قلبه) لها من دون النساء جميعًا، ولكن الذكريات كانت تتوزع (فكره) فتوحى إليه من هنا ومن هنالك ومما يستجد على خواطره من بعد معانى الحب والبغض والود والقطيعة.

هو كتاب يصور نفسه وخواطره فى الحب، ثم يصور فنه وبيانه فى لغة الحب، ثم لا يصور شيئًا من بعد مما كان بينه وبين صاحبته على وجهه وحقيقته إلا أن يتدبر قارئه ويستأنى ليستخلص معنى من معنى على صبر ومعاناة فى البحث والاستقراء.

فأيما رسالة فيها اللهفة والحنين، وفيها التذلل والاستعطاف وفيها تصنع الغضب ودعوى الكبرياء، وفيها المنى الحالمة تتواثب بين السطور فى خفة الفراشة الطائرة وفيها ما فيها من معنى تحاول أن تمسكه فيفلت- فهى فصل يؤدى أداءه فى قصة هذا الحب العجيب.

وأيما رسالة تصف ما كان فى خلوة نفس إلى نفس، وتقص فى لغة الماضى حديث قلب إلى قلب، وتكشف عن سر الابتسامة ومعنى النظرة، وتتحدث عن جمال الطبيعة وفلسفة الكون، فهى ذكرى من الماضى البعيد كان حبا فى الدم فصار حديثا فى الفكر، ثم استتبع شىء شيئًا.

وما قرأت من قول مزوق، وبيان منمق، ومعنى يلد معنى، وفكرة تستجر فكرة وعبارة تتوكأ على عبارة، فهو من أداء الفن وولادة الفكر.

ولقد تجد رسالة كلها حنين ولهفة، أو حادثة وذكرى، أو فن من الفن. ولقد تجد كذلك رسالة غيرها تجمع هذه الألوان الثلاثة فى قرن؛ ففيها قلب ينبض، وذكرى تعود، وبيان مرصع.

فإذا عرف القارئ هذه الألوان الثلاثة وميز بعضها من بعض عرف الكتاب وعرف صاحبه، وخرج منه بشىء.

يبدأ أوراق الورد بمقدمة بليغة فى الأدب، يتحدث المؤلف فيها عن تاريخ رسائل الحب فى العربية، بأسلوب هو أسلوبه وإحاطة هى إحاطته وسعة اطلاع لا تعرف لغيره، وهذه المقدمة وحدها هى باب طريف من أبواب الأدب العربى، تذكر قارئها ذلك النهج البارع الذى نهجه الرافعى العالم المؤرخ فى كتابه "تاريخ آداب العرب" فكان به من أول من كتب فى تاريخ الأدب وآخر من كتب...

وتأتى بعد هذا الفصل مقدمة الرسائل، وفيها سبب تسمية الكتاب، ثم يمضى فى هذه المقدمة يتحدث عن حبه، وآلامه فى الحب ورأيه فى الحب، وشىء مما كان بينه وبين صاحبته، ثم يتحدث عن نهجه فى هذه الرسائل؛ وما أراد بها، وما أوحاها إليه: ثم تأتى بعد ذلك فصول الكتاب متتابعة على ما أوضحت طريقها من قبل: فيها حنين العاشق

المهجور، وفيها منية المتمنى، وفيها ذكريات السالى، وفيها فن الأدب وشعر الشاعر، وفيها من رسائلها ومن حديثها...

من أراد أوراق الورد على أنه قصة حب فى رسائل لم يجد شيئًا، ومن أراده رسائل وجوابها فى معنى خاص لم يجد شيئًا، ومن أراده تسلية وإزجاء للفراغ لم يجد شيئًا، ومن أراده نموذجا من الرسائل يحتذيه فى رسائله من يحب لم يجد شيئًا، ومن أراده «قصة قلب» ينبض بمعانيه على حاليه فى الرضى والغضب، ويتحدث بأمانيه على حاليه فى الحب والسلوان- وجد كل شىء.

وهو فى الفن فن وحده، ليس له فى بيانه ومعانيه ضرب مما أنشأ الكتاب وأنشد الشعراء فى معانى الحب، على أنه- بأسلوبه العنيف وبيانه العالى وفكرته السامية فى الحب- لا يعرف قراءه فى العربية. وكم قارئ استهواه عنوانه وموضوعه فتناوله بشوق ولهفة، فما هو إلا أن يمضى فيه صفحات قليلة حتى تسلمه يمناه إلى يسراه إلى الزاوية المهجورة من مكتبته، وهيهات أن يعود إليه.. وكم قارىء كان لا يعرف الرافعى الشاعر الثائر العنيف فى حبه وبغضه وكبريائه، فلما قرأ أوراق الورد عرفه فاستخلصه لنفسه، فما يعرفه فى الأدباء إلا أنه مؤلف أوراق الورد.

ليت شعرى أفى العربية كلها شاعر يستطيع أن ينظم ورقة واحدة من أوراق الورد أو يجمع معانيها فى قصيدة؟.. أين يكون هذا الشاعر وأين قراؤه يوم يكون؟

أرأيت إلى المنجم الذى يمتد فى الأرض ويتغلغل بعروق الذهب؟.. إنه كنز، ولكن من ذا يصبر على المعاناة فى استخراجه والبلوغ إلا أن يكون صاحب أيد وقوة؟. إنه كنز يطلبه الجميع، ولكنك لن تجد فى الجميع

من يقدر على استخلاصه من بين الصخور المتراكبة عليه وحواليه من طبقات الأرض- إلا الرجل الواحد المحظوظ الذى يكون معه الصبر!

إن أوراق الورد منجم من المعانى الذهبية، لو عرفه المتأدبون من شبابنا لوضعوا يدهم على أثمن كنز فى العربية فى معانى الحب والجمال يكون لهم غذاء ومادة فى الشعر والبيان.

وكان الرافعى(رحمه الله) يعتز بأوراق الورد اعتزازه بأنفس ما أنتج فى أدب الإنشاء. ويباهى ويفتخر، وما أحسبه تعزى عن صاحبته بقليل إذ تعزى بما لقى من النجاح والتوفيق فى إنشاء أوراق الورد.

وكما تجد الأم سلوتها فى ولدها العزيز عن الزوج الحبيب الذى طواه الموت- وجد الرافعى العزاء فى أطفال معانيه عن مطلقته العنيدة.

لقد فارقها ولكنه احتواها فى كتاب!

إن الأم لا تنسى زوجها الحبيب إذا فارقها وخلف بين يديها بضعة منه؛ ولكنها تجد العزاء عنه بشىء منه وإن قلبها ليخفق بذكراه فى عينى هذا الحبيب الصغير. وكذلك لم ينس الرافعى ولكنه وجد السلوى.

لقد أفلتت من يده ولكنها خلفت ذكراها معه، ذكرى حية ناطقة تتمثل معانى وكلمات فى كتاب يقرؤه كلما لج به الحنين فكأنه منها بمسمع ومشهد قريب!

يرحمه الله! لقد مات ولكن قلبه مازال حيا ينبض يتحدث عن آلامه وأشواقه فى قلب كل محب يقرأ كتابه فيجد فيه صورة من قلبه وعواطفه وآماله يرحمه الله!

محمد سعيد العريان

صدر من التاريخ

هذا الديوان من الرسائل تكملة على كتابين خرجا من قبل، وهما: "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر" فجملة أرائنا فى فلسفة الجمال والحب وأوصافهما هى فى هذه الكتب الثلاثة.

ورسائل "أوراق الورد" هذه تطارحها شاعر فيلسوف روحانى وشاعرة فيلسوفة روحانية، كلاهما يحب صاحبه كما يقول الفيلسوف ابن سينا" باعتبار عقلى"[1]، وسيرى القارئ فلسفة حبهما فى بعض ما يأتى، كما رأى من ذلك فى الكتابين الآخرين وقد جرت الرسائل بينهما على أغراضها فى أحوال مختلفة يكتب إليها بما عنده منها وما عند نفسه من نفسه، وما يكون من الوجود المحصور بينهما فى حدود الحب. وكأن تلك الكتب الثلاثة هى ما استوجبته الحياة من عمل قلب ذلك الشاعر فى تدوين حادثة واحدة من حوادثه، فلو أن بيانا أكثر من أن يكون بيانًا لما علمته إلا هذا الأثر من خالصة السريرة فى ذلك الشاعر الخالص للحب. والموقوف الضلوع على الهوى!

وأما بعد فإننا لا نعرف فى تاريخ الأدب العربى كله رسالة كتبت من هذا الطراز، على كثرة كُتاب العربية وكتبها، وعلى ما أبدعوا فى فنون

---

(1) لابن سينا رسالة فى العشق على طريقته الفلسفية التعليمية، أوردها بهاء الدين العاهلى فى كتابه "الكشكول"، وفيها معان حسنة، ولكنها لا تعد من الأدب، وهو يرى أن حب الصورة المليحة باعتبار عقلى هو الوسيلة إلى الرفعة والزيادة فى الخيرية، قال. ولذلك لا يكاد أحد من أهل الفطنة والحكماء يوجد خاليا عن شغل قلبه بصورة حسنة إنسانية. قلنا: وهذه فلسفة ولكن تنقصها الفلسفة.

الترسل، وعلى أن هذه العربية من أوسع لغات الدنيا فيما خصت به المرأة، وما أوقعته على صفاتها، وما أفاضته على العاطفة إليها، وما حفلت به من ألفاظ معانيها، حتى لو أمكن أن ترسل لغات الأمم ألفاظها تستبق فى المعانى النسائية، لما كان السبق إلا للألفاظ العربية ولا أوفى على الغاية إلا المعجم العربى وحده!

وفى تاريخ أدبنا ممن اشتهروا بالعشق من نكاثر بهم فى هذا الباب ومن أشهرهم مجنون بنى عامر[1] وصاحبته ليلى، وقيس بن ذريح ولبنى، وتوبة وليلى الأخيلية، وكثير وعزة، وجميل وبثينة، والمؤمل والذلفاء، ومرقش وأسماء، وعروة وعفراء، وعمرو بن عجلان وهند، والمهذب ولذة، وذو الرمة ومية، وقابوس ومنية، والمخبل السعدى والميلاء، ووضاح اليمن وأم البنين، وبشر وهند وابن أبى ربيعة والثريا (وثريات كثيرة...) والأحوص وسلامة ونصيب وزينب، وأبو العتاهية وعتبة، وابن الأحنف وفوز، وأبو الشيص وأمامة، وابن زيدون وولادة وكثيرون وكثيرات...

اشتهر من شعراء الغزل خاصة كثيرون منهم ابن أدينة, ابن الدمينة، وابن الطثرية، وابن ميادة، وابن مطير وابن أبى ربيعة وابن ذريح والعرجى، والمجنون، وقيس بن الحطيم وسويد بن أبى كاهل، وكثير الذى قالوا فيه: لو رقى المجنون بشعره لأفاق، وجميل، ونصيب، ووضاح وعباس بن الأحنف والخليع، والوأواء، وابن الخياط، وابن زيدون، ومن لا يحصى فى المشرق والمغرب والأندلس[2].

واشتهر من الشاعرات المتظرفات الجميلات الموقوفات على الحب:

---

(١) يظنه بعضهم شخصًا خرافيًا؛ ولسنا من هذا الرأى، وإنما حملوا عليه فى الرواية.

(٢) استوفينا هذا الباب فى الجزء الثالث من كتابنا "تاريخ آداب العرب" وإنما نلم هنا ببعض الأسماء إرسالاً على طريق ما نحن فيه، لا على طريق التأريخ.

الذلفاء، وعنان جارية الناطفى، ويقولون إنها أشعر الناس، وجنان صاحبة أبى نواس، وفضل الشاعرة جارية الخليفة المتوكل. وكانت أفصح أهل زمانها وكانت تهاجى خنساء الشاعرة جارية هشام المكفوف، وعشقت الكاتب البليغ سعيد بن حميد، وللمتوكل بنان ومحبوبة أيضًا، وهما شاعرتان، وفى الأندلس نزهون الغرناطية، وولادة، وحمدة الملقبة بخنساء المغرب، وكثيرات غيرهن استوفينا أسماءهن فى تاريخ آداب العرب.

وحفل تاريخ الأدب بالقيان الظريفات الغزلات، ولا تكاد أسماؤهن تحصى، وهن سر الغزل الحى البديع الذى انفردت به تلك العصور ولم يظفر الأدب العربى بمثله من بعدها إلى اليوم[1].

وجاء فى آدابنا العربية من المؤلفات المعجبة التى أفردت للحب ومعانيه وأهله وأخبارهم ونوادرهم وأشعارهم كتب مجردة منها كتاب الزهرة الذى ألفه الإمام محمد بن داود الظاهرى فقيه أهل العراق[2] وقد جعل كتابه فى مائة باب وهو القائل: ما انفككت من هوى منذ دخلت الكتاب! ثم الظرف والظرفاء، وكتب مؤلفه الكثيرة فى هذه المعانى[3]

---

(١) وأسماؤهن وحدها غزل، ومن هذه الأسماء حكم الهوى، وقلوب، وصدق، ومهج، وخشف، وبدعة ومشتهى، وكنوز، ونشوان، وترشف، وملاعب.. الخ. وكان فيهن أديبات محسنات، ولهن بلاغة هى صورة أخرى من جمالهن كفرحة جارية ابن الجهم الشاعر المشهور: سألها ذات ليلة: كم بيننا وبين الصبح، فقالت: عناق مشتاق وقال لها مرة: نجعل مجلسنا الليلة فى القمر؟ فقالت. ما أولعك بالجمع بين الضرائر!

(٢) توفى سنة ٢٩٥، ومن كتابه جزء فى دار الكتب المصرية، وكان يعشق على الطريقة التى أشار إليها ابن سينا، والتى هى حقيقة الحب، ولا تنس أنه كان فقيه أهل العراق!

(٣) هو أبو الطيب محمد بن إسحاق بن يحيي الوشاء، من أدباء القرن الثالث وستأتى الإشارة إليه بعد، وكتبه فى هذه المعانى مسماة فى الظرف والظرفاء.

ثم مصارع العشاق الذى وضعه أبو بكر البغدادى السراج المتوفى سنة ٥٠٩هـ وجعله اثنين وعشرين جزءًا، وهو أصل لكل ما وضع بعده من الكتب: كأسواق العشاق، وديوان الصبابة وتزيين الأسواق، ومنازل الأحباب، وغيرها: ومع كل ما رأيت فقد انفرد الشعر وحده بالنسيب والغزل وأوصاف الجمال، وليس لنا كتاب واحد فى رسائل الحب ولا نعرف أحدًا من البلغاء كتب فيها. ولعل هذا راجع إلى أن تلك الطريقة استقل بها الشعر فى الصدر الأول فقلد الباقون وأخذوا فى مدرجتهم من بعد.

وكأن هذا الباب عندهم مما يرون للشعر به اختصاصًا، فهو سبيله دون الكتابة والخطابة، لمكان الوزن فى الشعر، فتجئ الرساله الغزلية لحنا غنائيًا من طبيعتها، ثم لأنه قد تقرر عندهم أنه يحسن فى الشعر من فنون الكذب والمبالغة ما لا يطرد فى النثر، حتى إن أكثر الرذائل- كالهجاء ووصف الخمر والمجون- كان ظرفها الشعر. وهى سائغة وفى غيره منكرة ولا يأتى منها فى المنثور إلا قليل.

وقد نصوا على أن للشعر مواضع لا ينجح فيها غيره من الخطب والرسائل بل هو يفضلهما.

قال أبو هلال العسكرى فى كتاب "الصناعتين" وهو يعد هذه المواضع:" ومن ذلك أن صاحب الرياسة والأبهة لو خطب بذكر عشيق له وصف وجده به وحنينه إليه وشهرته فى حبه وبكاه من أجله لا ستهجن منه ذلك وتنقص به فيه، ولو قال فى ذلك شعرًا لكان حسنًا".

وقد توفى العسكرى سنة ٣٩٥ للهجرة. وعلى كثرة ما حشد فى كتابه من فنون النثر وطرائفه لم يأت برسالة واحدة بين حبيبين، إلا ما أورده

فى باب «ما يحتاج الكاتب إلى ارتسامه وامتثاله»، قال: وينبغى أن يكون الدعاء على حسب ما توجبه الحال بينك وبين من تكتب إليه: وقد كتب بعضهم إلى حبيبة له: عصمنا الله وإياك مما يكره. قال: فكتبت إليه: ياغليظ الطبع! لو استجيبت لك دعوتك لم نلتق أبدًا...!

ولا ريب عندنا أن هذه الكتابة مصنوعة للتمثيل بها فى هذا الموضع، كالذى كانوا يصنعونه من الشعر إذا احتاجوا إلى الشاهد والمثل، على ما بيناه فى باب الرواية من تاريخ آداب العرب.

ثم هم يخضون الشعر بالغزل والتشبيب والنسيب؛ لأن الشعر أيسر عملًا وأخف مؤنة فى هذا الباب؛ إذ يعين بقوافيه على الإبداع فى المعانى فإن القافية كثيرًا ما تخترع المعنى وتلهمه الشاعر، ثم الشعر يصحبه الوزن واللحن فيعين بنسقه أيضًا كما يعين بقوافيه، ثم تجىء ألفاظه مقدودة مفصلة فتكون حيلة ثالثة، ثم هو يكتفى منه بالبيتين والأبيات اليسيرة فيجىء كل ذلك على أتمه وأحسنه ويقوم به، بخلاف الكتابة: فلا يجدى فيها السطران والأسطر القليلة فى رسالة تصف الحب، وما ستر هناك يفضح هنا، وما أعان فى الشعر يخذلُ فى النثر، والشعر إجمال والكتابة تفصيل وأنت فاعمد إلى بيتين من روائع الغزل كقول ابن الطثرية:

بنفسى من لو مر برد بنانه على كبدى، كانت شفاء أنامله

ومن هابنى فى كل شىء وهبته فلا هو يعطينى ولا أنا سائله

فاجعل هذين البيتين رسالة إلى حبيبة، فانهما يجزئان ويؤديان الرسالة، وينقلان إليها عن نفسك معانى الاحتراق والعشق والصبابة، ويتكلمان عندها كثيرًا ويعلقان بذهنها ويدوران فى قلبها دورة الدم. ثم

اعمد إليها فاجعل المعنى المنظوم فى سطرين وحاول منهما رسالة كتلك، فإن السطرين لا يتزحزحان ولا يمشيان إلا كما يتوكأ الأعرج على أعرج مثله...!

وهذا إلى أن الكتابة فى معانى الحب لا تحتمل الصدور والفصول وصناعة الألفاظ والترادف بالكثير منها على القليل من المعانى، ويسمح فيها خاصة ما نراه يحسن فى غيرها من فنون الكتابة: كالتوسع بالنقل والرواية، وتشقيق الكلام بما يلابس كل معنى، والطغيان فى العبارة بذلك وما إليه. وكل شىء فهو يصلح مادة للكتابة إلا فى هذا الفن من رسائل الحب، فإن مادته القلب والروح وفلسفة العاطفة وترادف وحى الجمال بالمعانى الكثيرة على الشعور الواحد، لا وحى اللغة بالألفاظ الكثيرة على المعنى الواحد، ولا يتخلص إلى فنونه ومعانيه إلا من ثمة. فكأن هذا الباب هو ناحية ليس فى طبيعة كتابة المتقدمين ومن الناحية الأخرى ليس فى طبيعة الاجتماع يومئذ، لأسباب لا محل لبسطها فى هذا الإيجاز.

ولقد كتب شيخنا وأديبنا الكبير "الجاحظ" رسالة فى العشق والنساء، وهى مجموعة رسائله، فكان والله كالذى يلبس ملكة الجمال فى هذا العصر مرقعة قذرة. واجتلب من هنا وهناك لمعانيه، وشق لها المداخل والمخارج على طريقته، واتسع بذلك فى العبارة، فجأءت أبرد رسائله وأسقطها، وكان هذا الإمام فيها كالذى يتحسس بيده مجلدًا ضخمًا من الكتب، ثم يذهب يستوحى من جلدته أوصاف ملبس جسم الحبيبة.. التى كأنها طاقة نرجس أو كأنها ياسمينة، أو كأنها خرطت من ياقوتة.

وساق ابن قتيبة فى كتابه "عيون الأخبار" رسالة منية إلى صاحبها

قابوس- وهما من أعلام العشق والأدب- ثم جواب قابوس عليها ثم رسالة أخرى منه[1] فكتبت منية إلى حبيبها:

" من سَنّ سنة فليرض بأن يحكم عليه بها؛ ومن سأل مسألة فليرض من العطية بقدر بذله، لكل عمل ثواب، ولكل فعل جزاء، ومن بدأ بالظلم كان أظلم، ومن انتصر فقد أنصف، والعفو أقرب إلى العقل، وغير مسىء من أعتب، مع المخض تبدو الزبدة، عند تناهى البلاء يكون الفرج، كل ذى قرح يشتهى دواء قرحه، كل مطمع منتظر، كل آت قريب؛ الموت أروح من الهوى، اليأس أول سبب الراحة، السحر أنفذ من الشعر[2]، دواء كل محب حبيبه، مع اليوم غد، كما تدين تدان، استشف الله لما بك. واسأله المدافعة عنك".

وأجابها قابوس:

" من الكرام تكون الرحمة، ومن اللئام.. تكون القسوة، من كرم أصله لان قلبه ورَقّ وجهه، ومن عاقب بالذنوب ترك الفضل، ومن ترك الفضل أخطأ الحظ، ومن لم يغفر لم يغفر له، أولى الناس بالرحمة من احتاج إليها فحرمها، لكل كرب فرج، ولكل عمل ثواب ملكت فأسجحى، قدرت فاعفى، ويل للشجى من الخلى الخ الخ".

فانظر ويحك ما هذا الكلام المتقطع المبتذل المطروق المنتزع كله من الأمثال والحكم، وكأن العشق فى الحافظة.. ولم يورده ابن قتيبة إلا فى باب النساء والعشق.. ثم ما عسى كان يقول هذان الحبيبان لو أن منية

---

(١) الجزء الرابع من عيون الأخبار صفحة ١٣٦ طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) الصواب: الشعر أنفذ من السحر، كما هو ظاهر.

هذه قامت على منبر مسجد الكوفة.. وصعد قابوس المنبر فى مسجد البصرة، وأرادا أن يخطبا الناس لإقامة صلاة الجمعة؟.

على أن بلغاء الكتاب فى كل عصر تناولوا فى ترسلهم فن «الإخوانيات» وأجروا فيه رسائل المودة والشوق والصداقة والاستعطاف والعتاب والاعتذار والاستزارة لمجالس اللذات والأنس وهذه كلها من أمس المعانى بالحب وأقربها شبهًا به، وقد أجاد بعضهم فى ذلك إجادة بالغة، وأنت تجد رسائلهم منثورة فى كتب الأدب[1] ومن أبدعها قول سعيد بن حميد، حبيب فضل الشاعرة. "إنى صادقت معك جوهر نفسى، فإنا غير محمود على الانقياد لك بغير زمام لأن النفس يقود بعضها بعضًا[2]".

غير أنهم يشترطون فى هذا الفن من الرسائل الإيجاز والاختصار؛ وألا يتجاوزوا به نكتة المعنى، ليجئ قصدا قريبًا ولعل ذلك للعلة التى أومأنا

---

(١) عيون الأخبار لابن قتيبة، والظرف والظرفاء، والصناعتين والعقد الفريد لابن عبد ربه، وصبح الأعشى، ويتيمة الدهر، والمنظوم والمنثور لابن طيفور، وغيرها وقد يكتب فى هذه المعانى القيان كالرقعة التى أملتها جميلة المغنية فى استزارة عبد الله بن جعفر ونقلها صاحب الأغانى فى ترجمتها فى الجزء السابع. وجميلة هذه من أبلغ النساء وأظرفهن، وكانت سيدة أهل زمنها فى الغناء وكانت تتواضع للأحوص وتعجب به وتغنى بشعره.

(٢) روى صاحب الأغانى عن ابن أبى المدور، قال: كنت عند سعيد بن حميد وكان قد ابتدأ ما بينه وبين فضل الشاعرة يتشعب، وقد بلغه ميلها إلى بنان وهو بين المصدق والمكذب بذلك، فأقبل على صديق لى فقال: أصبحت والله من أمر فضل فى غرور، أخادع نفسى بتكذيب العيان، وأمنيها ما قد حيل دونه، والله إن إرسالى إليها بعد ما قد لاح من تغيرها لذل، وإن عدولى عنها وفى أمرها شبهة لعجز، وإن تصبري عنها لمن دواعى التلف، ثم أنشد أبياتًا من الشعر.

فهذه كانت طريقتهم فى الحب، يتحدثون به ولا يكتبون فيه، ويتراسلون به إما فى الألسنة وإما فى رقاع تقوم مقامها فى التحدث والتأدية والإبلاغ وفى كتب الأدب أشياء من هذه وتلك. ولقد كانت كلمات سعيد فى تلك الحال تصلح مادة رسالة بليغة فى صاحبته الشاعرة الجميلة لولا ما بيناه وكانت رسائل فضل شعرًا تنظمه، وفى رأينا أنه لو كان ابتدأ فن الرسائل الغرامية كاتب لابتدأه سعيد هذا.

إليها من قبل، إذا كان هذا على حدود الحب، فإذا تبسط فهو الحب بعينه، والكثير فى الحب لا يكثر ولا يمل، أما فى الصداقة فإلى حد وحسب.

وانظر ما كتب بعضهم فى قطيعة صديق إذ كتب إليه:

"لم يدع انقباضك عن الوفاء وانجذابك مع سوء الرأى فى ملاحظة الهجر والاستمرار على الغدر- محركا من القلب عليك ولا خاطرًا يومى إلى حسن الظن بك، هيهات! انقضت مدة الانخداع لك حين أخلفت عدة الأمانى فيك وما وجدنا سائرًا من تأنيب النصحاء فى الميل إليك، والتوفر عليك، إلا الإقرار بطاعة الهوى والاعتراف بسوء الاختيار".

فهذه الرسالة لو أنها صرفت إلى حبيبة، وامتد بها النفس على هذا الأسلوب وبمثل هذا التصرف لتكون صفحتين أو تبلغ صفحات، لرجفت أركانها الوثيقة، وخرجت إلى الاستكراه والتكلف، وجاءت عيوبها من محاسنها، وهلك من طولها أولها إلى آخرها.

ولذلك نحونا فى "أوراق الورد" أسلوبًا خاصًا، تدور به المعانى الحية فى ألفاظها بألين مس وألطفه على وضع مستحكم كما يمس الدم الحى عروقه التى يدور فيها.

ولم نقف على اسم كتاب أفرد الرسائل الحب، ولو أنهم كتبوا فيها لجمعت كغيرها وأفردت بالتدوين، بيد أن للقيان الأديبات المتظرفات ضربًا من رسائل الحب يكتبنها بالذهب والمسك والزعفران فى بديع الحرير الصينى وضروب الديباج، ويجعلن ظروفها طرائف المناديل؛ ويتخذن لها الزنانير الحريريه تربطها، ويطيبنها بالمسك والذرائر[1]، ولا

(١) جمع ذريرة. ضرب من الطيب مما كانوا يصنعونه.

يكتبن فيها إلا "نتف الألفاظ المهلكة... وملح المكاتبة، وطرائف المعاتبة، وجميل المطالبة، وشكيل المداعبة. وقد جمع أبو الطيب الوشاء من أدباء القرن الثالث كتابًا من هذه الرسائل سماه (فرح المهج) والذى يؤخذ من كلامه أن أكثر ما يكتب فى ذلك هو الشعر والمثل وأبيات العتاب والسلام ونحوها، مما هو محفوظ مأثور، فليست هذه من رسائل الحب وإنما هى من وسائله.

وأبعد فى الاستحالة من كل ما مر أن يكون فى الأدب العربى ديوان من الرسائل الغرامية لكاتب واحد، فلقد كان مثل ذلك فى الشعر كالندرة والفلتة، حتى قال الجاحظ: "لولا أن العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاما وخاطرًا، ما قدر أن يكون شعره فى مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه يهجو ولا يمدح ولا يتكسب ولا يتصرف، وما نعلم شاعرًا لزم فنًا واحدًا ولزومه فأحسن فيه وأكثر.

ولأديبات الجوارى رقاع فى مكاتبة عشاقهن، بيد أنها لا تذهب إلا مذهبًا واحدًا فى الكلام، فهى فى القلم كما هى فى اللسان، وليس الكتاب إلا رسولا لا رسالة، وقد نقل صاحب الأغانى فى ترجمه "عريب" الحسناء الفاتنة المغنية الشاعرة الكاتبة البليغة المتعشقة التى تكاد تشبه الأديبة الفرنسية الشهيرة المتسمية (جورج ساند) فى عشقها واستكلابها... نقل أنها عشقت صديقًا لمولاها يقال له حاتم بن عدى قال؛ فمد عينه إليها "فكاتبها فأجابته" وقال أيضًا: إنها لما صارت فى دار المأمون، احتالت حتى أوصلت محمد بن حامد وكانت قد عشقته "وكاتبته". ونقل عن بعضهم قال: وسمعت من يحكى أن بلاغتها فى كتبها ذكرت لبعض

الكتاب، قال: فما يمنعها من ذلك وهى بنت جعفر بن يحيى؟[1] ثم روى صاحب الأغانى من مجونها وإفحاشها، فلو أن لها رسائل حب لاستطرف منها هو أو غيره. ولكنها كما قدمنا، رقاع فى مثل الكلام الذى يتراجعه كل صاحبين إذا تحدثا أو تشاكيا أو تواعدا وليست من الرسائل المصنوعة المجودة القائمة فى فنها على شاعرية الجمال وتفلسف الحب وغزل الروح وخصائص المعانى.

وتبذل بعض أدباء المتأخرين فكتبوا فى الرسائل الغرامية يخاطبون فيها بكاف الخطاب المفتوحة. كقول الأديب الشهير ابن سناء الملك من رسالة: "وأنا والله فى أمرك مغلوب، والسبب أنى أنا المحب وأنت المحبوب، ولا أتجلد عليك فأغرك وأخون حبك، ولا أتصنع عليك فأغشك وأغم قلبك... اعمل ما شئت فأنا الصابر، وافعل كيف شئت فأنا الشاكر، وقل فلى سمع يعشق قولك، والتفت تر آمالى ترفرف حولك، وافعل فأنت المعذور، واستطل فما أنا المضرور بل المسرور، وارجع إلى الواد الذى بيننا فكل ذنب لك مغفور".

وهذا كما ترى، كلام غث سمج، وحب قد يكتسه فى الطريق الكناسون.

---

(١) لا ريب عندنا أن هذه العبارة مما يتكذبون به لغرض من أغراضهم فى الرواية ولذلك قال فى سندها: وسمعت ممن يحكى... ويروون أن عريب زارت صاحبها محمد بن حامد مرة" فجعل يعاتبها ويقول: فعلت كذا، وفعلت كذا فقالت يا عاجز، خذ فيما نحن فيه... فإذا كان غد، فاكتب إلى بعتابك فى طومار (فرخ ورق) حتى أكتب إليك فى ثلاثة، ودع الفضول، فقد قال الشاعر:

دعي الذنوب إذا التقينا تعالى لا أعد ولا تعدى!

وهذا إن لم يكن حدث فهو تهويل من صناعة الأخبار علي طريقتهم فى سوق الحكاية وتنزيل معانيها وتدبير نسقها، وإن كان قد حدث فهو تهويل من عريب وتبسط، وكانت طويلة اللسان مهذارة كأنها تقول لصاحبها: إن كان قدر لسانك طومارا فلسانى ثلاثة...!

ولبديع الزمان رسالة مشهورة، إلى بعض من عزل عن ولاية حسنة" أثبتها فى ديوان رسائله. ولابن الأثير فى كتابه "المثل السائر" رقعة قال إنها من عاشق لمعشوق، وعدها فيما عد من معانيه المبتدعة. وكل ذلك عندنا لا قيمة له.

ومن المضحكات رسالة كتبها علاء الدين المغربى سماها النيرين. قال: وهى من المحب الكئيب إلى حبيب الحبيب[1]... وقد أوردها ابن أبى حجلة من أدباء القرن الثامن فى كتابه الذى سماه (حاطب ليل).

فأنت ترى أن الأدب العربى قد انطوى على مجموعة من هذا الفن بقيت فى الغيب إلى عهدنا هذا، ونرجو من الله أن تكون كتبنا الثلاثة قد أظهرتها واستعلنت بها وأن تقول العربية إذا تواصفوا كتب هذا الباب فى بيان اللغات الأخرى: " هاؤم اقرؤا كتابيه".

والحمد لله بما يبلغ رضاه؟

مصطفى صادق الرافعى

(١) عشق هو حبيبًا... وعشق الحبيب حبيبًا فى مثل سنه وجماله فاتصل النير بالنير، فهذا سبب تسمية الرسالة بالنيرين.

obeikandl.com

المقدمة

هذا كتاب " أوراق الورد ". فحدثنى من حدث[1] فى سبب هذه التسمية قال: كانت معها ذات يوم وردة لا أدرى أيتهما تستنشى الأخرى[2] فجعلت لها ساعة من حفاوتها تلمسها مرة صدرها ومرة شفتيها، والوردة بين ذلك كأنما تنمو فى شعاع وندى، إذا رأيتها وقد تفتحت وتهدلت حتى لحسبت أنها قد حالت أوراقها شفاهًا ظمأى.

ثم تأملتها شيئًا، ثم نحت إلى بصرها[3] وقالت: ما أرى هذا الحب إلا كورق الورد فى حياته ورقته وعطره وجماله، ولا أوراق الوردة إلا مثله فى انتثارها على أصابع من يمسها إذا جاوز فى مسها حدًا بعينه من الرفق، ثم فى تفترها على إلحاح من يتناولها إذا تابع إلحاحه عليها ولو بالتنهد، ثم فى بناء عقدها على أن تتحلل أو تذوى إن لم يمسكها مع بنائها الرفيق حذر من أن تكون فى يده... [4] لأنها على يده فن لا وردة.

---

(١) نسبت رسائل الأحزان إلى صديق على طريقة الرواية، فظنها البعض حقيقة لذلك الصديق وما هى له.

(٢) تستنشق رائحتها وطيبها. (٣) أى صرفت إليه بصرها.

(٤) يعلم القارىء من «رسائل الأحزان» أن الحبيبة شاعرة روحانية تسمو هى وصاحبها بالحب فوق المادة، ولا يريدان إلا وحى النفس الجميلة للنفس الجميلة.

ثم دنت الشاعرة الجميلة فناطت وردتها إلى عروة صاحبها فقال لها: وضعتها رقيقة نادية فى صدرى ولكن على معان فى القلب كأشواكها... فاستضحكت وقالت: فإذا كتبت يومًا معانى الأشواك فسمها "أوراق الورد" وكذلك سماها!

عمر الورد فصل من السنة! أما الشوك فعمره ما بقيت الشجرة وما بقى حطبها، ولذلك ينسى الحبيب ويذهب الحب ويبقى بعدهما القلب العاشق وليس بينه وبين آلامه إلا كما ذر الضياء بين أول الفجر وآخرة الليل فى مرأى من النور والظلمة يخيل إليك من غبشه[1] أن الليل ظلام مكفوف وراء حائط من البلور: فالآلام دائما بمنزلة من القلب المحب والأشواق منه أبدًا على أسباب؛ ومن أحب مرة فما اهتدى إلى حبيب ينتهى منه إذا سلاه، وإنما ابتدأ فى جمال هذا الحبيب أشواق الحياة التى لا تنتهى، وعرف من الحب طريقًا بين الحس والغيب آخره دائمًا أول غيره كطريق السماء لعينك؛ كل مسافة أنت مقدرها فيه تراها قد نيطت بمسافة أخرى[2] إلى ما لا ينتهى ولا ينقطع إذ ليس ذلك اتصالاً بين المسافات المكونة للأبعاد أكثر مما هو اتصال بين النواميس المكونة للأبدية.

وإلقاء الحب الصحيح فى قلب من خاطره الهوى، معناه إيحاء الفن إلى صاحب ذلك القلب يفهم به الصورة الشعرية الجميلة التى يلبس منها الحبيب جماله، فيرى كيف يجىء كل شىء من حبيبه كأنه فى وزن من

---

(١) الغبش: آخر ظلمة الليل، فيكون بياض الفجر على حدها.

(٢) أى اتصلت بمسافة، إذ هو فضاء ممتد لا تقيم فيه الحدود.

الأوزان، حتى لكأن هذا الشكل المحبوب إن هو إلا لحن موسيقى خلق إنسانًا يجاوب بعضه بعضه..

.. وبذلك يخرج من فهم جمال الحبيب إلى فهم جمال الطبيعة ويدرك بروحه ما حول كل شيء من الجو الخيالى البديع المحيط به إحاطة الوزن الشعرى بالكلمة والنغمة الموسيقية بالصوت. ومن ذلك ينبثق فى نفسه نور إلهى خالق يفيض على كل جمال فى الأرض والسماء ما يجعل هذا الجمال من إدراكه أو حسه بسبب قريب، فتشتمل نفسه العاشقة على آفاق واسعة من جمال الخليقة مادام فى نفسه الحب، كما تحيط العين بالأفق فتحويه مادام فى العين البصر!

وتاريخ الحب عند صاحب هذه الرسائل كان كله نظرة أخذت تنمو وبقيت تنمو.. وهو حب قد كان من نمائه وجماله وطهره كأنما أزهرت به روضه من الرياض لا امرأة من النساء، وكان من مساغه وحلاوته ولذاته البريئة كأنما أثمرت به شجرة خضراء تعتصر الحلاوة فى أثمارها أصابع النور فأنت لا تجد فى هذه الرسائل معانى النساء متمثلة فى امرأة تتصبى رجلا، ولكن معانى الحب والجمال متألهة فى إنسانية تستوحى من إنسانية أو توحى لها.

وبين الدهر والدهر تخرج الأقدار على طوفان الشهوات الذى يغرق الإنسانية عاشقًا روحانيًا فى طباعه مثل شموخ الجبل العالى وقوته وتماسكه تأوى إليه صفات الحب السامية يعصمها ويبقيها على ندوها[1]

---

(1) أى ندواتها ونضرتها.

ولو فى إنسان واحد كما هى على أصيلها فى جمال الكون. وهذا الإنسان لا يعطى الدنيا إلا من سبيل حرمانه هو، وكأنما يحترق قلبه ليستطع بالنور والدفء على القلوب المظلمة الباردة التى لا يكون الحب فيها إلا خديعة مسولة من الطبيعة بين الجنسين حين تعمد إلى حسابها العجيب فى جعل الاثنين ثلاثة[1].

وكل الصفات السامية متى نزلت إلى الدهماء والأوشاب وهذا الهمج الهامج فى إنسانية الحياة، نحلوها أسماءً من طباعهم لا من طباعها؛ فاسم الفضيلة عندهم غفلة، والسمو كبرياء، والصبر بلادة، والأنفة حماقة، والروحانية ضعف، والعفه خيبة، والحب اسمه الفسق...!

وصاحب هذه الرسائل يرى فى الحب كأنما وضع على هامش الناس، منطلقًا غير مقيد، عزيزًا غير ذليل؛ فهو كالسطر الذى يكتب على هامش الصفحة يستعرض ماملأها بين أعلاها وأسفلها وله الشرح والتعليق وما فى معناهما، إلى التهكم والضحك والسخرية، ومن ثم فرسائله كذلك على هامش كل رسائل الحب: يتجافى بها عن ألفاظ الشهوات ومعانيها مما يتعمده بعض فحول الكتاب فى أوربا ولا طلاوة لرسائلهم وقصصهم بغيره، إذ هو يشبه أن يكون روح اللحم والدم فى اللغة. ويتوخون التأثير من أقرب الطرق إليه، فيمسون شهوات القراء بالحادثة والوصف والعبارة كما يدر لعاب الجائع على ألفاظ الطعام

---

(١) كناية عن النسل وأستيلاد الاثنين ثالثاً. ومذهب أن الحب خداع من الطبيعة وتسويل بين الذكر والأنثى لإيجاد النسل: مذهب صحيح، ولكن فى الطبيعة من يسمو عليها ويقهرها، فلمثل هذا حب آخر ومذهب غير ذاك.

وأوصافه ورائحته... وإنما نحن نرى أن لحياة الحب- حين يكون حبًا صحيحًا- واقعًا غير الواقع فى هذه الحياة، وأوهامًا غير أوهامها، وحقائق غير حقائقها، فلابد لها من كلام يلائمها فى المعنى الطائف بين القلب والروح يكون أشبه بكلام النية الصادقة لو نطقت فى لسان، وبكتابة الضمير المخلص لو كتب فى قلم.

والحب الصحيح إذا سلمت فيه دواعى الصدر[1] واعتدلت به نوازى الكبد[2]، وتوثق فيه عقد النية[3]، واستوعى غيبه ومشهده[4] كان أشبه بقوة سماوية تعمل عملها لتبدع من الإنسانية شعرًا أسمى من حقائقها؛ كما كانت الإنسانية نفسها قوة عملت أعمالها لتبدع من حقائق الطبيعة أخيله أجمل من مادتها. فشعرُ العقل تخلقه الإنسانية من الطبيعة بالعلم، وشعرُ القلب يخلقه الحب من الإنسانية بالجمال؛ ومن ثم فالحب كالطبقة بين الإنسانية والإلهية، أفلا تراه يأبى حين يكون إلا أن يكون وحده هو الحق الذى ليس له فى البشرية فوق فليس فى البشرية ما يوضع فوقه، حتى كل ما عداه من الحقوق والواجبات فهو من بعده في الموضع والمنزلة؟.

الحب الصحيح ليس له فوق، ولا يشبهه من هذه الناحية إلا الإرادة الصحيحة فليس لها وراءٌ ولا يمين ولا شمال، وما هى إلا أن تمضى أمام أمام.

---

(١) كناية عن أسباب المودة وأغراضها.

(٢) كناية عن مواد الشهوات فلا تطير فيه حماقاتها.

(٣) كناية عما تربط عليه القلب، فتحت كل حب نية آثمة أو بريئة.

(٤) كناية عن الحب للحب لا لغاية أخرى، فهو فى غياب الحبيب مثله فى حضوره.

إنك لا ترى فى هذه الرسائل ما ينزُع به الكلام ذلك المنزَعَ الذى أشرنا إليه آنفًا، ولا ما يتوسع به كتاب أوربا من الحشو الذى يوجه على عِلل مختلفة بين التاريخ والاجتماع وما إليهما، ولا مايقحمونه فى رسائلهم من كلامٍ نازلٍ كالكلام الذى يتراجعه العامة[1]، فإن كتابنا خالص للجمال بذاته، واقع من الحب فى خاص معانيه، ولقد كانت حوادث صاحبنا فى حبه كالسحب الرقيقة فى سماواتها، عمرّ ساعة من الشفق، وتأتى وعليها ألوانها الإلهية أصباغًا واقعة كما تتفق، ثم لا يكون الجمال والتناسب مع ذلك إلا كما تتفق، فكذلك نشأت رسائله من وحى القلب وروحانيته، وتموج بمعانيها وتتبرج فى معارضها ولعمرى لمن كتب فى الحب والجمال بقلم لقد كتب صاحب هذه الرسائل بقلب لو تحيا الابتسامة والدمعة لكانتا سرور ذلك الحب وحزنه كما وقعا فى حياة الكاتب وأيامه من صاحبته، فهما لا يتجاوزان البث والتشاجى، وتباريح الصبابة وتسليم الابتسامة على الابتسامة، ومعاضبة الدمعة للدمعة ولكليهما من روح صاحبه داع ومجيب. وعلى ما طال بينهما من زمن الحب فهى كأنها لم تزد له على أن سنحتْ مَسح الغزال وولت...

وكان القدر ينقى حوادث هذا الغرام كما تنقى المدرة من الحب[2] بأصابع دقيقة تحت عينين مبصرتين؛ فكانت النفس فيه مع جمحاتها

---

(1) يكثر الأوربيون فى رسائلهم الغرامية من سوقيات مبتذلة، كأن الحب حادثة يومية يراد تعيينها بمكانها ووقتها واسم شارعها.

(2) المدرة: الطين اليابس يكون فى حب القمح ونحوه.

كالفرس تترامى فى عنانها مخلى لها الطريق، ولكن أمر الطريق لها ونهيه فى العنان الذى يُلجمها وظلمات الحب فى بعض النفوس المختارة كظلمات الليل فى بعض الليالى: هذه لها القمر وتلك لها الفضيلة.

وما أحسب حب هذا الشاعر وتلك الشاعرة قد كان فى كل حوادثه إلا تأليفًا من الأقدار لهذه الرسائل بمعانيها، حتى إذا كسيت المعانى ألفاظها، انبثقت كالنور وصدحت كالنغم وجاءت كإشراق الضحى لتناسم الارواح[1] بعبارات صافية من روح قوية فرض عليها أن تحب، فلما أحبت فرض عليها أن تتألم فلما تألمت فرض عليها أن تعبر؛ فلما عبرت فرض عليها أن تسلو...!

مصطفى صادق الرافعى

(١) المناسمة: كناية عن قرب المتكلمين أحداهما من الآخر ورقة كلامهما، كأن أنفاس كليهما نسيم يتصل بعضه ببعضه ولذا تقال فى حديث الصاحب للصاحب.

obeikandl.com

وزدت أنك أنت

تاللهِ لو جَـدُوا للبدرِ تسميةً لأعطَى اسمكَ يامَنْ تَعْشَقُ المقَلُ[1]

كَلاَّ كّما الحسنُ فتانًا بِصُوَرتِه وزدتَ أنكَ أنتَ الحبُّ والغَزلُ

وزدت يا حبيبى أنكِ أنتِ...

إن حقيقة الجمال الذى يغمر العالم أراها كأنها بجملتها مستقرة فى الموضع الضيق الذى بينك وبين قلبى، تملأ مع هذا الكون عالمًا آخر من شعورى بك وفى نظرات عينيك الساحرتين أرى لمحات منبثة من الإرادة المسيطرة وراء الأشياء، تفعلُ مثل فعلها الجبار وراء عواطفى.

واليقين الذى دليله الإيمانُ والتسليم، أحسه إحساسًا فى نظرى إليك وفى نظرك إلى، كأنى أتحول معك إلى إقرار.

والمعنى العجيب الذى يفتن فتنة درية اللؤلؤة الثمينة، ويسحر سحرًا نورانيًا فى الماسة الكريمة النادرة، هو بفتنته وسحره فى نسويتك الجذابة، غير أنه اتخذ من أشياء الطبيعة أبدع ما ينظر فيه، واتخذ منك أنت أجمل ما يعقل فيه.

وما رأيتك مرة إلا خيلت لى أن بعض النواميس المادية القاهرة فى

---

(١) كل ما يأتى فى هذه الرسائل من الشعر فهو منها، أى لكاتبها لا لغيره.

هذا الوجود قد تحولت إنسانية فيك، وكأن القوى مبعثرة هناك ومنظمة هنا، وكأنك منها تقيد منطلق، واجتماع متفرق، وكأن ماحدٌ له رآكِ له حدًا فوقف وظهر!

ولو ولد النور لكان وجهك الجميلَ المشرق، ولو ولدت الكهرباء التى هى سر النور لكانت أسرار عينيك، ولو تولدت القوة التى هى سر الكهرباء لكانت فتنةَ حبك، وكل المعانى التى فى نفسى لا تتخذ صورها إلا منك لأنك بجملتك تمثال الشعر.

وفيك المعانى التى تقول: أين كلماتى؟

وفى أنا الكلمات التى تقول: أنت معانى!

فى نفسى عالم أحلام من خلق عينيكِ الذابلتين.

وفى نفسك عالم أسرار من خلق أفكارى المعذبة.

خرجنا كلانا بالحب والجمال من حد الإنسان إلى حد العالم.

وتحولنا كلانا بالهوى من حالة شخص إلى حالة عقل.

كيف تجدين مافى وإنك لتعلمين أنك فى؟

أما أنا فأجد كل مافيك حلوًا! لأن طعمه حلو فى قلبى!

وعندما أنظر ازدهاء الشفق بألوانه وأصباغه كأنه صورة جديدة فى الخلق عرضت ليراها أهل الأرض، أحسبنى على مرمى السهم من جنة فى السماء فتحت أبوابها ولاحت أطراف أشجارها.

وعندما أتأمل انبثاق الفجر، يخيل إلى من جماله وروعته أن الوجود فى سكونه وخشوعه نفس كبرى تستمع مصغية إلى كلمة من كلمات الله لم تجىء فى صوت ولكن فى نور.

وعندما أبصرك أنت، أوقن أن الحسن المعشوق ما هو إلا خيال الجنة الأخروية يناله من الدنيا إنسان فى إنسان!

أنت وحدك أذقتنى نشوة الظمأ إلى الأسرار القلبية، بما ذقته من لذة ظمئى إليك ولهفته. وأريتنى جمال الشعر فى خيالاتى العطشى الحائمة أبدًا على نهر النور من جسمك، وعلى ذلك النبع الأحمر الصغير، نبع الياقوت المتفجر دائمًا بابتسام شفتيك، وجعلتنى من وحى جمالك المتنزل على قلبى أشعر أن هذا الجمال السماوى أنشأ فى صفة ملائكية ترفعنى فوق إنسانيى.

بهذه الصفة أراك فى بعض ساعات قلبى تظهرين لى وكأن سرًا من الكون يتجلى بك ويقول لى من عينيك: المسنى وانظرنى فيها...!

سرّ هادئ ناعم يتناثر فى ألحاظك ألينَ من تنفس رشاش الأمواج المتطاير إلى بعيد: يكون كالهباء من البحر ومع ذلك فهو أثر قوته وجبروته.

فيكِ يا حبيبتى من أبدع محاسن الكون، وزدت أنك أنت الحب...!

زُجَاجَةُ العِطْرِ

"وأهدى إليها مرة زجاجة من العطر الثمين وكتب معها":

يا زجاجة العطر، اذهبى إليها، وتعطرى بمسِّ يديها وكونى رسالة قلبى لديها.

وهأنذا أنثر القبلات على جوانبك؛ فمتى لمستِك فضعى قبلتى على بنانها، وألقيها خفية ظاهرة فى مثل حنوِّ نظرتها وحنانها، وألمسيها من تلك القبلات معانى أفراحها فى قلبى ومعانىَ أشجانها.

وهأنذا أصافحك، فمتى أخذتك فى يدها فكونى لمسةَ الأشواق وهأنذا أضمكِ إلى قلبى، فمتى فتحتكِ فانثرى عليها فى معانى العطر لمساتِ العناق.

إنها الحبيبة يا زجاجة العطر! وما أنت كسواك من كل زجاجة ملئت سائلا، ولا هى كسواها من كل امرأة ملئت حسنًا؛ وكما افتنت الصناعة فى إبداعك واستخراجك، افتنت الحياة فى جمالها وفتنتها، حتى لأحسب أسرار الحياة فى غيرها من النساء تعمل بطبيعة وقانون، وفيها وحدها تعمل بفن وظرف.

وأنتِ سبيكة عطر. كل موضع منك يأرَجُ ويتوهج، وهى سبيكة جمال، كل موضع فيها يستبى ويتصبى!

وما ظهرتْ معانيكِ إلا أفعمت الهواء من حولك بالشذا، ولا ظهرت معانيها إلا أفعمت القلوبَ من حولها بالحب.

وكلتا كما لا يمس أحد منها مسة إلا تلبس بها فلا يستطيع أن يخلص منها، ولا يستوى له أن يخلص منها[1].

أنت عندى أجملَ أنثى فى الطيب[2] من بنات الزهر، وهى عندى أجمل أنثى فى الحب من بنات آدم.

قولى لها يازجاجة العطر، إنك خرجت من أزهار كأنها شعل نباتية، وكانت فى الرياض على فروعها كأنما تجسمت من أشعة الشمس والقمر؛ فلما ابتعتكِ وصرتِ فى يدى، خرجتِ من شعل غرامية وأصبحت كأنما تجسمت من أشواقى وتحياتى ولمسات فكرى، ولذلك أهديتك...

وقولى لها: إن شوق الأرواح العاشقة يحتاج دائمًا إلى تعبير جميل كجمالها، بليغ كبلاغتها، ينفذ إلى قلب الحبيب بقوة الحياة سواء رضى أو لم يرض، وهذا الشوق النافذ كان الأصل الذى من أجله خلق العطر فى الطبيعة. فحينما تسكب الجميلة قطرة من الطيب على جسمها تنسكب فى هذا الجسم أشواقٌ وأشواقٌ من حيث تدرى ولا تدرى، ولذلك بعثتك...

وقولى لها: إنك اتساق بين الجمال والحب، فحين تهدَى زجاجة العطر من محب إلى حبيبة فإنما هو يهدى إليها الوسيلة التى تخلق حول جسمها الجميل الفاتن جو قلبه العاشق المفتون. ولو تجسم هذا المعنى حينئذ فتمثل فنظره ناظر، لرآها هى محاطة بشخص أثيرىّ ذائب من

---

(١) من مس الطيب علق به، شاء أم أبى، كذلك هى: كأن لجمالها عطرا!

(٢) من أعجب وأغرب ما فى اللغة العربية، أنهم يقولون «ذكور الطيب» لما يصلح للرجال دون النساء من أنواع الطيب: كالمسك والغالية، فاستخرجنا نحن منها «إناث الطيب» لما يهدى إلى الحبيبة خاصة، وذلك كله من دقة اللغة العربية متى لا تجد نظيرًا فى لغة غيرها.

الهوى واللوعة يفور حولها فى الجو ويسطع[1] ولذلك يا زجاجة العطر أرسلتك...

أيها العطر! كانت أزهارك فكرة من فن الحسن توثبت وطافت زمنًا على مظاهر الكون الجميلة، كى تعود آخرًا فتكون من فن الحب وفى ذلك مازجت الماء العذب، ولا مست أضواء القمر والنجوم، وخالطت أشعة الشمس، واغتسلت بمائة فجر منذ غرسها إلى إزهارها، لتصلح بعد ذلك أن يمس عطرها جسم الحبيبة ويكون رسالة حبى إليها!

أيها العطر! لقد خرجت من أزهار جميلة، وستعلم حين تسكبك هى على جسمها الفاتن أنك رجعت إلى أجمل من أزهارك، وأنك، كالمؤمنين تركوا الدنيا ولكنهم نالوا الجنة ونعيمها...!

(١) فوران الطيب وسطوعه وتوهجه وتوقده: كل ذلك حدة رائحته وذكاؤها قوتها مع فروق بينها دقيقة لمن يذوق البيان.

ما نفع رقة روحي؟

يا مَن لنضو طريحٍ ... مُجمع من حُطامِ[1]

بقيةٌ من سلو ... على بقايا غرام

وقطعة من جفاء ... فى قطعة من سلام

أضيء كالنجم لكن ... فى وحدة وظلام

وما أكابد نارًا ... يرَوْه نورًا أمامى

ما نفعُ رقةِ روحى ... تندَى كطلّ الغمام

وكلُّ ما هو حولى ... كحلق عطشان ظامى؟

يا واصلا بالمعانى ... وهاجرى فى الكلام

مخاصمى فى نهارى ... مُصالحى فى منامى

من العبوس كلامٌ ... معناه معنى ابتسام

ولن يُغير جسم ... الوداد ثوبُ الخصام

ما نفع رقةُ روحى ... تندَى كطل الغمام

وكل ما هو حولى ... كحلق عطشان ظامى؟

---

(1) النضو: النحيل المهزول، والطريح: الذى أضجعه المرض، والحطام: ما تكسر أو تحطم.

رسم الحبيبة

"ولما أهدت إليه رسمها كتب إليها":

كنتُ ساعة أجلس للكتابة إليك، أرانى كالمصور، غيرَ أنى أنقل من عالم فى داخلى؛ أما الآن ورسمك يملأ عينى، فقد أضيف إلى عالمى المضطرب بأخيلته الكثيرة عالم من الجمال الصافى، وهو فوق ذلك كالسماء فوق الأرض: تحيبها بالشمس والقمر، وهو من وراء ذلك كالآخرة وراء الدنيا: تطمعها بالجنة والخلد.

ولكدت والله يا حبيبتى أتخيل هذا الرق[1] الموضوع أمامى يبرقُ بصورتك ويشرق بوجهك. نافذة سحرية فتحت بينى وبين عالم الجمال الأزلى فأطل فيها وجه حوراء من حُور الجنة ينظر إلى وأنظر إليه، يحمله جسم خلق ليكون فتنة للجنة ذاتها، وكأنه بجماله ومعانيه حقائق ذلك النعيم جاءت تترجم لذة الخلود للنفس البشرية فى بلاغة مصورة اختاروا لها رسمك أنت.

وهل فى الحسن أحسن من هذا الوجه الذى يرف على القلب بأندائه ويتلألأ بنضرته، حتى لكأنه خلق من نور الفجر وكأن علامة الفجر فيه إنما هى هذا الروح الذى يحيط القلب من وجهك بمعانٍ كنسمات الصبح،

---

(١) الرق: كلمة استعملناها لهذا الورق المقوى الذى تكون عليه الصورة الفوتغرافية.

عليلة من شدة الرقة، ذابلة من فرط الجمال، مملوءة من روح الندى بما يجعلها حول النفس كأنها جو من شعور حى فرح لا نسمات فى الجّو.

وجه منضر يفزع لروعة حسنه من يراه، كأن شيئًا بدعًا لم يكن ممكنًا فأمكن! أو كأن فى حمرة خديه وشفتيه خمر القلب رؤيتها شرْبها، وفيها السكر بالجمال والنشوة بالهوى، فما هو إلا أن ينظر وجهك الناظر حتى يخالط قلبه.

وعلى ما رأيت هذا الوجه الفاتن، فما رأيته من مرة إلا حسبتها أول مرة، وكانت معه لنفسى جمحاتها الأولى، كأن الحب الذى بدأ فى أول نظراتى إليه يبدأ فى كل نظرة إليه بدعًا جديدًا؛ وأَرى أجملَ الوجوه يخاطب فى حاسة الاعجاب ولا يعدو هذه العاطفة، وأَرى وجهك أنت يبلغ منى القصوى ويأخذ بقلبى كله ويستولى على جملة ما فى إنسانيتى.

وإنى لألمح فيه سرًا عجيبًا يكون فقدان العبارة عنده هو أبلغ العبارة فى وصفه، إذ لا تتكلم روعة الحس بالجمال، وهى تنزل فى صور الألفاظ، وإنما تغمز على القلب غمزة خافتة تشعر الناظر أن روح المنظر خامرت الروح وأن حياة الشكل انسكبت فى الحياة، وأن المعنى الغامض فى السر اتصل بالمعنى الغامض فى النفس.

ويمثل هذا السر الذى يطالعنى من جمال وجهك أصبح الجمال على الحقيقة هو علم أفراح النفس وأحزانها، وعاد الشخص الجميل المعشوقُ وما هو بكل معانيه إلا الفن الفلسفى الكامل أتيح لنفس أخرى تحاول بالحب أن تكون كاملة.

ومن هذا السر يظل وجه الحبيب جديدًا على كل نظرة من محبة وإن طال ترداد النظر وتكراره، كأن الوقت لا يمضى معه كما يمضى مع

الأشياء، وكأن الحبّ أبدية على قدر ما تحتمل الدنيا، ولذا فهو يضغط على القلب لا بالساعة ولا باليوم، بل يجثم بقطعه ضخمة من الزمن كأنها عمر كامل فرحها شديد شديد، وحزنها شديد شديد.

سر عجيب فكرت طويلا كيف أسميه فلم يستو لى، وقد جل أن يقع معناه فى كلمة، ولكنى أسميه المعنى المتفرق المجتمع، إذ بجملته ظاهر فى الوجه كله، وهو بحملته أيضًا ظاهر على مقدار ذلك فى كل موضع من قسمات وجهك ومعارفه، كأنه لا أجزاء له ولا جملة كأنه شىء أبدى، كأنه فى وجهك تألهُ الحب.

ومن بعض هذا السر تلك الابتسامة الواقعة على ثغرك ترق فيها الروح مرة وتتكاثف مرة، حتى كأنها وهى فى الرسم- لون روحى ظهر يتموج على شفتيك فما أقلب فيه عينى إلا شعرت أن روحى تذوب فيه كما يتمازج لونان فى السماء على الشفق الأحمر.

ومن بعضه هذه النظرة الحية التى تبعث فى كل معنى من معانيك حياة وتخلق منه لعينى فكرة أتلمحها فيه، حتى ليروعنى من أثرك علىّ وأنا انظر إلى رسمك،أنى أتخيل نفسى بجملتها أسئلة وجسمك هذا بجملته أجوبتها!

نظرة ساحرة تجعلنى أرى كل شىء فى رسمك محدودًا، ومع ذلك أراك أنت غير محدودة فى شىء! كأن لك فيضًا من الجمال والسحر يستغرق العالم ويغمر الكون ولا يكتفى بما ينتهى دون مالا ينتهى، أو كأنك أنت مجتلى هذا الفيض لعينى؛ وكأنك وسيلة فى اتصال روحى بروح الجمال الأزلى.

وماذا أقول فى هذا الشكل المنسجم المتجاوب من كل نواحيه، إلا أنه القوة الرهيبة ظاهرة فى ملمسها الناعم، والضعف المؤنث الذابل مسلحًا بأسلحة الشهوات والفتنة، والسلطة القادرة اتخذت لها شكل الجمال فيك لتأمر وتنهى فينا.

إنه لجمال أكبر من الجمال، إذ كانت فيه القوة والفتنة والحب جميعًا والجمال وحده من شأنه أن يُعجب، ولكنه فيه يُصبى ويُدله، وبذلك يُعجب ويفتن، وبذلك يتسلط مسوغا الحق، وبذلك لا تكون له إلا الطاعة!

لا أرى غير هذا الشكل يأخذ بقلبى، ولكن أين أجد الكلام يستوعب كل ما فى قلبى لأعطى كل معانيك الصوت واللغة؟

وكيف لى أن أزعم أنى وصفت التى تمتاز على الشمس والقمر بأن فيهما النور وحده وفى وجهها النور الحى؟

obeikandl.com

البلاغة تتنهد

تقولين فى رسالتك أيتها العزيزة[1]:

"لقد كنتُ أحسب فيما حسبت بعد أن طوحت بنا النوى[2] وضرب الدهر هذه الضربة بيننا- أن سعادة الفكر المتصل بى منك والمتصل بك منى تخفف عنى بعض ما أجد فتنقل خفقة قلب إلى قلب، وترسل لمحة نفس إلى نفس، وتعطى العمر ولو عمر ساعة من غير هذا الزمن، فأقطع إليك هذه المسافة المتراخية[3] بقوة كقوة الأحلام: لا تدع فى الكون أبعادًا ولا مسافة بل تحويه كما تحوى المرآة الصورة التى تقابلها: تتراءى فإذا هى مرسومة كما هى منظورة، ولكن يا أَسفاه! لقد أرتنى الحقيقة أن الحياة مادة، وأن هذه المعانى المحبوبة التى نحفظها ممن نحبهم لا تزال تنازع دائمًا إلى أشخاصها المحبوبين ليخففوا من لوعتها- أو قل ليزيدوا في لوعتها- فإن الحب هو الطرف الشاذ الذى لم يُعرف له وسط، فإن لم يكن ذاهبًا إلى الزيادة مطردًا بها، كان غيرَ شك منحدرًا إلى النقص مستمرًا فيه.

الحياة مادة يا صديقى، فإذا أنا لم أقل كلمة وأسمع ردها، أو أخط سطرًا وأَقرأ مثله، أَو أَرسل نظرة وأَتلقى جوابها، فإن الفكر الذى يسعدنى

---

(١) هذه كانت أول رسالة منها وهى فى مكان بعيد، حينما أحست أن صاحبها يريد كتابتها وفلسفتها ليضع رسائله. قلت: هي صاحبة حديث القمر التى عرفها فى ربوة من لبنان منذ بضع عشرة سنة!

(٢) أى رمانا الفراق فى ناحيتين

(٣) البعيدة الممتدة.

فى كل شىء هو نفسه الذى يعذبنى حينئذ بأحب الناس إلىّ، يعذبنى بك حين لا أراك.

أما والله ياعزيزتى إن فى دون هذا للبلاغة كل البلاغة، فكلامك بيان كإشراق الضحى، وهو مثلك فوق وصف الواصف، وإن فيك لمنبع سحر كالنهار الذى ينبعُ من شمسه، فلا تخط أناملك سطرًا إلا تضوأت فيه الحياة[1]، ولا أقرأ لك لفظًا تكتبينه إلا بمعنى منه ومعنى منك.

بل لا أراك تجمعين ضميرى وضميرك معك فى كلمة[2] إلا أحسست أنه لقاء بيننا فى لفظ...

وإن كتابك ليأتينى وكأنه صفحة مرآة مسحورة بسر من أسرار الحياة: لا تلبث عينى أن تدور فيها دورة فإذا أنت ماثلة وإذ أنا لا أقرأ كلامك بل أقرأ وجهك!

ولما طلعت لى فى هذه الكتاب، ألقيت نفسى من شفتى على شفتيك وما أسرع ما نبهنى مس الصحيفة، فنظرت فإذا أنا أقبل كلمتك البديعة: إن الحياة مادة...

كنت أعرف أن اللغة موضوعة لكل أهلها، شائعة فى ألسنتهم جميعًا، وقد خلقت من قبل أن يخلقوا، وتركها الأول للآخر، ولكن بلاغتك التى يتهللُ بعضها تهلل جبينك، ويستحى بعضها إستحياء خديك ويفتر بعضها افترار شفتيك، وتأتى مفننة ناعمة كأنها جسم بديع ناضج للحب- قد جعلتنى أعرف أن الكلمة التى يلقيها حبيب إلى محبه تأتى وكأنها لغة

---

(١) توهجت وأشعت واستنارت.

(٢) كقولها مثلا: " يعذبنى بك "، فجمعت ضميرها- وهو الباء- بضميره- وهو الكاف ولا غرو أن يكون هذا فى جنون الحب لقاء أو وصالاً وهذا المعنى دقيق جدًا كما ترى.

مخلوقة لساعتها إذ ينتزع منها المحب صورًا لا يراها فى مثلها من كلام الناس، ويصيب لها فى نفسه معانى لا تكون لها فى ذات نفسها، ويراها مبتدعة له ابتداعًا غريبًا على نسق حى، فما ألقيت كلمة بين حبيبين إلا جاءت وهى تتنهد أو تبكى أو تضحك أو تتوجع أو تنظر إلى معنى من المعانى بينهما ، إذ لابد أن تضرب على القلبين أحدهما أو كليهما.

إن الكلام فى نفسه وسيلة من ورسائل الفهم، فهو لغة، ولكنه فى الحب وسيلة الجذب، فهو قوة، واللغة من بعض أدوات الحياة: أما لغة الحب خاصة فالحياة من بعض أدواتها.

لهذا يا عزيزتى لا تكون الحياة فى الحب إلا مادة: وإن النفس قد تجوع وتأكل من جوعها، إذ تخلق بإرادتها من الجوع أكلا فتشبع شبعًا معنويًا يلائمها كما جاءت ذلك الجوع الذى يلائمها: كنفس الذى قنع بالفقر وهو محتاج إلى الغنى والذى صبر على المرض وهو فقير إلى العافية، ويطرد هذا القياس فى كل أغراض الحياة، إلا فى الحب، فإن جوع النفس العاشقة يقتلها قتلا،إذ لا غذاء لها من شىء فى الوجود كله إلا ممن تحب.

ليس الحى منقطعًا من الوجود، بل هو منه لأنه فيه، ويكاد كل شىء يقول له: يا ابنى، أو يا أبى أو يا أخى، أو نحوها، فهذه الوشيجة بين الحى(والموجودات كلها)، هى قرابة العقل المسماة بالمعرفة، وصلته (بخصائص) الوجود فى طائفة من الأحياء أو الموجودات، هى قرابة النفس المسماة بالصداقة، وشابكته (بأخص الخصائص) فى حى واحد يجمع كل ذلك ويزيد ولا يزال يزيد، هى قرابة القلب المسماة بالحب.

نعم، وإن الحب ليكاد يكون معنى كبر فى السن والقيمة والعقل من ذلك المعنى الطفلى الذى يندمج بالأم والابن معًا فى الوجود والعاطفة،

فإذا كانت الأمومة هى التى تلد حقيقة الحياة بمعانيها الواقعة، فإن الحب وحده هو الذى يلد الحياة بشعرها ومجازها ومعانيها الخيالية الجميلة، ومن ثم لم يكن الحب رحما، وهو أشد منها صلة وأوقع فى القلب، ولم يكن نسبا، وهو فوق النسب، ولم يكن دما من دم، وهو أشد ما عُرف من حنين الدم للدم.

ولقد يكون فى الدنيا ما يغنى الواحد من الناس عن أهل الأرض كافة، ولكن الدنيا بما وسعت لا يمكن أبدًا أن تغنى محبًا عن الواحد الذى يحبه.

هذا "الواحد" له "حساب" عجيب غير حساب العقل، فإن الواحد فى الحساب العقلى: أولُ العدد، أما فى الحساب القلبى فهو أول العدد وآخره، ليس بعده آخر إذ ليس معه آخر.

والحياة فى كل موضع- يا حبيبتى- هى هى كما تكون فى كل موضع وكأنها البحر: ماؤه فى أمريكا هو ماؤه فى مصر- إلى حيث يكون الحبيب، فهناك مع الحياة شىء غيرها، هناك المادة الخفية القادرة التى تساغ فى هذه الحياة لتلونها تلوين الزهرة منفردة بالجمال والعطر من بين أوراق شجرتها، على حين كل أوراق الشجرة مسحة لون واحد.

«الحياة مادة» فأين أنت يا مادة الروح المنسكبة فى روحى؟

أضعُ فى آخر كلماتى سطرًا غير مكتوب. سطر فيه كثير من المعانى المتكلمة من غير كلام...!

رسالة للتمزيق...[1]

وكم حارَ عشاقٌ ولا مثلَ حيرتى ... إذا شئت يومًا أن أسوء حبيبى

وهل لىَ قلب غير قلبى يسوءُه ... وياخذُلى فى الكبرياء نصيبى؟

ألا ليت لى قلبين: قلب بحبه ... مريض، وقلب بعد ذاك طبيبى

وياليت لى نفسين: من رئم روضة ... ألوف، ومن ذى لبدتين غضوب

وكيف بقلب واحد أحمل الهوى ... عجيبًا على طبعى وغير عجيب

فو الله إن الحب خير محاسنى ... ووالله إن الحب شر عيوبى

هذه رسالة لن أبعث بها، رسالة منى أنا وإلىّ أنا، أكتبها اليوم لأقرأها غدًا، فقد والله كاد هذا الحب يجعلنى على اختلاف أيامه أشخاصًا مختلفين متناكرين، حتى إنه ليحتاج شخص الغد أن يتعرف ماذا كان خبر شخص الأمس.

أكتبها لنفسى، ومتى تنفس غد هذا اليوم النحاسى[2] من فجره الذهبى وأخذت تتسلى هموم يوم فى يوم آخر، وضربت موجة من الزمن موجة أخرى فهزمتها إلى الساحل الذى تموت فيه الأمواج، ساحل النسيان

---

(١) بعد رسالته "البلاغة تتنهد" انقطعت عنه كتبها زمنًا بحكم الدلال أو كأنها تستغفر بالسكوت مما خطته... فكتب هذه الرسالة.

(٢) كأنه نحاس لرخص حوادثه، إذ كان يوم هجر، ولا ذهب ولا فضة فى أيام الحب إلا من الحبيب نفسه دون ما فى الدنيا.

المحيط ببحر الحوادث، لتتكسر عليه أمواجها العاتية ضربة ضربة، ثم تنسحق وتتلاشى- فحينئذ أقرأ فى رسالتى هذه تاريخ الألم الذى بلغ منى الغيظ ودك أطوادًا شامخة من الصبر كنت ألوذ بها فى رمضاء الحب، حتى عادت ظلامًا كظلال الحصى لا تفىء إليها النملة...

وأقرؤها ثم أمزقها من سطرها الأعلى إلى سطرها الأسفل ثم أنحى عليها من كل جهة تقطيعًا حتى أدعها مزقًا بعدد كلماتها، ثم أبسط بها كفى إلى الريح وأقول لها: أيتها الريح التى لا يستطيع أن يرد هبوبها أحد ولا أن يلويها عن وجهها، إن هذا كله ريش طائر من طيور الحب ذبحه الهجر فخذيه إلى حيث لا تلتقى واحدة بواحدة، وانثريه فى أمكنة منسية، فإنك تبعثرين به خفقات هذا القلب الذى يحاول أن ينسى!

واهًا لحوادث الحب، كأنما هى تقع لتغير من الحياة فى أيام قليلة ما يغير العمر الممتد فى سنوات متطاولة. سل الشيخ الفانى الذى أوفى على المائة فأصبح عمره فى الإنسانية صفرين إلى عود[1].. سله: من أنت؟ يقل لك. أنا الذى كنت أنا من أربعين! بل خمسين بل ستين سنة،... وسل المحب الذى أضناه الحب. من أنت؟ يقل لك أنا الذى كان هو من شهر أو شهرين أو ثلاثة!... وسلنى أنا فى هذا الهجر لا بل دعها هى تسألنى...

ألا إن شر الحوادث هى تلك التى تنزل بنا فلا نعرف منها إلا أننا كنا نعيش من قبلها، وتتقدم الحياة يوما بعد يوم، ولكن الحى جامد فى مكانه من الزمن على ألم يتوجع له ما يبرح أو ذكرى يحن إليها ما يزال!

أنا منذ شهر أرقب منها كتابًا ولا يأتى كتابها، ففى كل يوم غضب

---

(١) المائة هكذا (١٠٠) والشيخ الفانى كالعود من العظم.

على أثارة قبله[1]. وكنت أرى أن الحب هو الطريقة التى يعثر بها الإنسان على روحه وهو مغشى بماديته، فيكون كأنه فى الخلد وهو بعد فى الدنيا وأكدارها، فأصبحت أرى الحب كأنه طريقة يفقد بها الإنسان روحه قبل الموت, فيعود كأنه ضارب غمرة[2] من الحميم وهو قارّ فى نسيم الدنيا!

ليس لى والله من شدة حبى إياها إلا أن أبغضها وأتجهمها بالكلام النافر الغليظ وأقول لها... نعم أقول لها ثم أقول لها: قبح الله الحب إن كان مثل وجدى بك: لا يؤتى الحياة جمالها إلا يسلبها حريتها واستقرارها معًا! وأقول لها، ثم اقول لها: لقد اوقعتنى من حبك وهجرك بين الشرِّ والذى هو شرٌّ منه... واقول لها أيضًا: لقد يكون ما نراه من حب المرأة الجميلة فنظنه ابدع ما تحسنه من الرقة والظرف، هو ابدع ما تتقنه من صناعة الكذب بوجهها...!

ولكن هل تصدق شيئا من هذا وهى تعلم من فلسفتها ومن غرائزها ان إرادة البغض إنما هى أقوى دليل على وجود الحب، وهى التى قالت لى ذات يوم: إن ازدراء رجل محب لامرأة يحبها هو حب جديد!

ياويحى، ماذا اصنع؟.

إن سكتُّ علمتُ علم السكوت. وقالت: محب يأكلُ الغيظُ من قلبه, وإن غضبت لم يفتها معنى الغضب، وقالت : محب يلتمس أسباب الرضا وإن زعمت السلوة كان الزعم من حجتها وقالت: محب يصور قلبه غير تصويره!

---

(١) أى على غضب كان قبله.

(٢) أى ملق بنفسه فى مزدحم وشدة.

ياويحى! كيف؟

أيمكننى أن أنزل هذه الصورة الفاتنة من مكانها، وقد أرادت المقادير أن تزخرف بها غرفة الأحلام فى نفسى فجعلتها فى صدرها، لأنها من زينة الله التى أخرجها لى ولم يجتمع ما أحبه من الجمال فى امرأة إلا فيها؟

وهل على الحب خيار؟ أم هو الجمال الأزلى يستعلن لكل إنسان بالوسيلة التى توافق مزاجه وتلائم تركيب نفسه على قدر ما يلائمه وعلى أحسن ما يلائمه، فأتى الحب متخذًا من الشكل المحبوب وسيلته فلا يكون أكمل ولا أجمل عند كل عاشق من معشوقه، إذا هو ليس إلا الصورة التى تتراءى فيها خصائص الجمال العلوى للخصائص التى فى روح العاشق وطباعه فتتصل بها من الجهة التى تنفذ منها إلى خالصة قلبه وداخلة روحه[1].

أنا لن أبغضها إلا أن تسىء إلى أكبر من إساءة دلالها، بل إساءة تضعها فى دمى، دمى الحر الجياش المتحدر إلىّ من أقصى تاريخ المكارم.

إنى لمن أولئك الذين يعرفون أن لهم عروقًا سماوية فى أرواحهم

---

(١) كأن فى كل إنسان جهة خاصة لا يمكن أن يشعر بجمال العالم إلا منها، فيختار الجمال الشكل الذى تلائم خصائصه هذه الجهة. وقد يكون الشكل سخيفًا أو قبيحًا عند الناس، ولكنه طلعة الشمس والقمر عند محبه، إذ هو فى الحقيقة ذلك الجمال نفسه الذى يتجلى فى أجمل مخلوق، ولكن بالتركيب الذى يلائم نفس إنسان بعينه، كأن الجمال عنصر من الدواء فى يد طبيب حكيم يصفه بمقادير مختلفة فى أشكال مختلفة، ولكن أثره لا يختلف، ومن هنا لابد أن يحب كل إنسان: ولابد أن تختلف الأذواق والأسباب فى الحب باختلاف الجهات النفسية فى الخلق، ولكن الشعور واحد، والمعنى واحد، والجمال نفسه واحد والطبيعة واحدة وبهذا الذى بيناه تحل مشكلة اختلاف الأذواق فى إدراك الجمال.

تتضرم بالشعاع القدسى الذى كان يومًا فى بعض أجدادهم. إما نبوة نبى، وإما خلافة خليفة، وإما مُلكٌ مَلك...

وفى مذهبى أنه إذا اجتمع الأذى والحب فى قلب، وجب أن ينصرف الحب مطرودًا مدحورًا، وليس من ذلك بُد، ولكن، بالله! أين منها الأذى الممض المؤلم الذى يطرد الحب ويجعلنى أبغضها بدمى كما أحببتها بدمى؟

إن هى إلا هذه الإساءة المبتسمة، إساءة الدلال التى تغضب لتجدِّد الرضا؛ وتبعد لتؤتى القرب معنى غير معناه القديم، وتؤلم لتحدث اللذة الحادة التى يمازجها الطرب، وترسل الوحشة إلى القلب كأنها سفير سياسى يمضى بأسلوب الحرب ليرجع باسلوب السلم، وتأتى من كل ذلك ماهى آتية لتجمع عليك من سحر الزمان الذى يهدد الحب، ومع قوة الحسن قوة الرغبة فى لذة الحسن، ومع ثورة القلب عليها ثورة الفكر على القلب وعليها!.

ليت شعرى، أتقوم العاصفة الهوجاء من خطرات مروحة الحبيبة؟ ويقع الزلزال المدمر من رجرجة منديلها فى يدها؟ لا أدرى ولكن ربما! ربما!

إن لكل حبيبة خيالاً ساحرًا كأنه خارج من قوى الكون كله لا من قواها الضعيفة، فما تلمس من شىء إلا سحر به على عين محبها فحوله فيما شاء الهوى من صور الخيال المعقولة والمستبعدة، والممكنة والمستحيلة!

وكل حبيبة وصاحبها كالوثن وعابده: فى أحدهما الحقائق كلها ما دام فى الآخر الوهم كله!

إن المرأة لتكون امرأة وحسب، إلى أن تجد عاشقها، فإذا هى وافقت

منه الحب فقد تألهت فى قلب إنسان، وصار لها جنتها ونارها ومضى منها الأمر وكأنها عند محبها تأسر بقوة قادرة على أن تحيى، وتنهى بقوة قادرة على أن تميت!... وليس ما يصفها به العاشق من فنون الجمال الخيالى وما يفيض عليها من ألوان التعبيرالمصبوغ- إلا ما تتوهمه العين البشرية من جلال فوق الحس، ويريد الحس أن يصل إليه كأن هناك فى العقائد الإنسانية معضلتين: ما وراء الطبيعة، وما وراء الحبيبة...

كل يوم أقول فى هذه الجميلة القاسية التى أبغضها، أعنى أحبها، أعنى أبغضها... إنها لظريفة إلا حين يجب أن تكون ظريفة... وإن كل محاسنها لا تعّن إلا فى مساوٍ بقدرها[1].

ترى ماذا حبس كتبها عنى؟ أتكلمنى بهذا السكوت؟ إن السكوت للغة أحيانًا! أم هى تدعنى أبحث عن كلمتها فى خواطرى وأفكارى لأسر بقدر ما أجد، وأتألم بقدر ما أستطيع؟ أم المحبة قد أخذت تطير إلى النسيان بأجنحة الأنام التى تحمل كل شىء ولا ترجع به؟.

إن السكوت من أكبر فضائل المرأة، وقليلا ما وفقت إليه، ولعله أشق عليها من كتمان سرها؛ ولكن سكوت الحبيبة عن كلمات الحب هو الرذيلة، الرذيلة التى لا يعدلها فى الغيظ عند محبها إلا أن تنطق بهذه الكلمات- كلمات الحب- لرجل غيره.

اتفقت لى بالأمس حادثة أوحت إلى بهذه الحكمة: قد يكون أدق خيط من خيوط آمالنا، هو أغلظ حبل من حبال أوهامنا..!

آه آه! ما أرانى عند هذه الكلمة إلا قد انتهيت إلى الموضع الذى يحسنُ عنده تمزيق رسالتى، لأقول للريح: خذى ريش طائر الحب المذبوح...

---

(١) أى لا تظهر محاسنها إن مع مقدارها من المساوى، ولا يريد مساوى الخلق، بل الصد والدلال ونحوهما.

القمر [1]

"وكانت تأنس بضوء القمر ويعجبها نوره على الحديقة خاصة فسألته أن يناجى هذا "الجميل" فى رسالة، فقال: حبًا وكرامة "للقمر"... وكتب".

إنى لأراك أيها القمر منذ علقت معانى ما أرى ولكنى لم أعرف أنك أنت كما أنت إلا بعد أن وضع الحب فيها بينك وبين قلبى وجه من أهواها، كما يوضع التفسير إلى جانب كلمة دقيقة...

عندئذ وصلتك قرابة الجمال بوجهها فاتصل بك شعورى؛ وبت على بعدك فى أفلاك السماء أيضًا فى دائرة قلبى، واستويت متسقًا كأن عملك لى أن تتمم فن جمالها بإظهارها أجمل منك، وأمسيت عندى ولك مثلها شكل السر المبهم المحيط بالنفس المعشوقة: يدخل كل جمال فى تفسيره ولا يكمل تفسيره أبدًا!

ومن شبهك بوجهها أزهر الضوء فيك ما يزهر اللحم والدم فيها. فتكاد أشعتك تقطف منها القبلة، ويكاد جوك يساقط من نواحية تنهدات خافته، وتكاد تكون مثلها يا قمر مخلوقًا من الزهر والندى وأنفاس الفجر!

أما قبل حبها فكنت أراك أيها القمر بنظرات لا تحمل أفكارًا.

كنت جميلا، ولكن جمال ورق الزهر الأبيض، وكنت فى رقعتك المضيئة

---

(١) فى كتابنا (حديث القمر) تشبيهات كثيرة وأوصاف مختلفة، فانظرها هناك، إذ هى نمط آخر غير ما نجده فى هذه الرسالة.

تشبه النهار مطويًا بعضه على بعض حتى يرجع فى قدر المنديل، وكنت ساطعًا فى هذه الزرقاء ولكن سطوع المصباح الكهربائى على منارة قائمة فى ماء البحر وكنت زينة السماء ولكن كما تناط مرآة صغيرة من البلور إلى حائط فتشبه من صفائها موجة ضوء أمسكت ووضعت فى إطار معلق!

وكنت يا قمر... كنت ملءُ الوجود ولكنك ضائع من فكرى!

وأما بعد حبها فأمسيت أراك أيها القمر ولست إلا طابع الله على أسرار الليل فى صورة وجه فاتن، كما أن كل وجه معشوق هو طابع الله على أسرار القلب الذى يحبه.

فأنت جميلٌ جمال الجسم البض العارى، تكاد تشبه صدر الحبيبة كشفت أعلاه فظهر فى بريق الفضة المجلوة.

وأنت فاتن تحاكى فى ضوئك وجهها لولا أنك بلا تعبير.

وأنت ساطع بين النجوم ولو تجسمت صورةٌ من أجمل ضحكاتِ ثغرٍ معشوق لكانتك ولو تجسمت القبلاتُ المنتثرة حول هذا الثغر لكانتها![1]

وأنت زينة السماء، ولكن السماء منك كمرآة سحرية اطلعت فيها حورية من حور الجنة فأمسكت خيال وجهها فى لجة من النور، فأنت خيالُ وجهها!

وأنت يا قمر... أنت ملء الوجود ولكنك أيضًا ملء فن الحب...!

أتذكر أيها القمر إذ طلعتَ لنا فى تلك الحديقة... وتفيأتَ بنورك عليها فغمرت أرضها وسماءها بروح الخلد، حتى وقع وهمنا أنك وصلتها سحر أشعتك بطرف من أطراف الجنة فهى ناحية منها؟

---

(١) أى كأن القمر قطعة اجتمعت من أنوار ضحكات ثغر جميل، وانتثرت قبلات هذا الثغر نجوما، فكل نجم هو ضوء قبلة.

أتذكر وقد رأيتك ثمة قريبًا من الحبيبة تصب عليها النور حتى خيل إلى أنها إحدى الحور العين متكئة فى جنتها على رفرف خضر[1] وقد وقف لخدمتها قمر؟

أتذكر وقد لمستَ فكرى بضوئك لمسة نورٍ فأظهرتك لى كأنها فى جمالها الطاهر شكل دينى وُضع ليكون مثالاً لعبادة القلب الإنسانى؟.

أتذكر إذ نزلت علينا بآيات سحرك فخيلت لى أن العالم قد تحول فيها هى إلى صورة جميلة مرئية أمست لى وحدى، فملكت العالم كله فى ساعة من حيثُ لم أملك إلا الحب؟

أتذكر ساعةَ جئتها بها من فوق الزمن وكان فيها للحديقة جو من زهر، وجو من قمر، وجو من امرأة أجمل من القمر والزهر؟

أترى يا قلبى كأن فى الوجود الذى حولنا أنوثة وذكورة فهو بالقمر تحت الليل يعبر عن نفسه تعبيرًا نسائيًا فى منتهى الرقة، لأنه قوى شديد، وفى غاية التفتر لأنه مشبوب متضرم وفى كمال الدلال لأنه فى كمال الإغراء، وفى أقصى الحياء، لأنه يبعث بهذا الحياء فيما حوله أقصى الجرأة؟

تعبيرُ امرأة معشوقة جميلة ترف بأندائها وليس فيها إلا صفات.

وبالشمس على النهار يعبرُ الوجود عن نفسه تعبير رجل مقدام ليس فيه غيرُ القوة والحركة والاندفاع.

تعبيرَ رجل جبار يحمل عزائمه التى يحترق بها وليس فيه إلا صفات النار![2].

---

(١) فى صفة أهل الجنة "متكئين على رفرف خضر" وفسرت بالمخاد أو البسط والمراد بها هنا منثورات الروض الخضراء التى تفرش أرضه.

(٢) هذا رأى لنا لم نجده لأحد، فكأن من المرأة مظلمة أبدًا كليالى المحاق، ومنها مضيئة ولكن على تفاوت باختلاف الأسباب "ومنها ليلة البدر" وهي الحبيبة عند محبها: كلها جمال ووحى وضوء ورقة وسحر!

أترى يا قلبى كأن مدينة الحياة فى النهار بصراعها وهمومها تحتاج إلى قفر طبيعىٍّ يفر إليه أهلُ القلوب الرقيقة بضع ساعات، فلذلك يخلق لهم القمر صحراء واسعة من الضوء يجدون فيها بعد ذلك المادية الجياشةِ المصطخبة روحانية الكون وروح العزلة وسكينة الضمير، ويبدو فيها كل ما يقع عليه النور كأنه حى ساكن يفكر؟.

أترى يا قلبى كأن، ضوء القمر صنع صنعة بخصائصها ليبعث فى القلوب معانى القلوب الروحية من الفكر والحب، كما صنع نور الشمس ليبعث فى الأجسام قواها ومعانيها المادية من الحياة والدم؟.

أترى يا قلبى كأن هذا القمر إنما يلقى النور على الحلم الروحانى اللذيذ الغامِض الذى يحلم به كل عاشق من أول درس فى الحب، ساعة ترسل الحبيبة إلى قلبهِ رسالة عنها، ولا يحلم بمثله فى غير العشاق إلا أعظم الفلاسفة، وفى آخر دروس فلسفته، وبعد أن تكون الليالى الطويلة قد أطلعت سماء عمره قمرَ الشيخوخة من شعره الأبيض؟

أترى يا قلبى كأن، هذا القمر فى الحب «تلسكوب» يكبر نوره العواطف حين تبث فى ضوئه، فلا يطلع على حبيبين أبدًا إلا كبر أحدهما فى عين الآخر؟.

أترى يا قلبى أنه ليس فى الحب إلا عواطف مكبرة يثيرها دائما وجه الحبيب، فلا بد أن يكون دائمًا وجه الحبيب طالعة فيه روح القمر؟.

أترى يا قلبى...؟ آه... أترى؟.

قال القمر...

يا ليلُ، هيجتَ أشواقا أداريها ... فسلْ بها البدرَ: إن البدرَ يدريها

رأى حقيقةَ هذا الحس غامضة ... فجاءَ يظهرها للناس تشبيها

فى صورة من جمال البدر ننظرها ... وننظر البدر يبدو صورة فيها

يأتى بملء سماء من محاسنه ... لمهجتى، وأراه ليس يكفيها

وراحة الخلدِ تأتى فى أشعته ... تبغي على الأرض من في الأرض يبغيها

وكم رسائلِ تلقيها السماء به ... للعاشقين، فيأتيهم ويُلقيها

يقول للعاشق المهجور مبتسما : ... خذنى خيالا أتى ممن تسميها

وللذى أبعدته فى مطارحها ... يد النوى، أنا من عينيك أدنيها

وللذى مضه يأس الهوى فسلا : ... أنظر إلىّ ولا تترك تمنيها

أما أنا فأتانى البدْر مُزدهيًا ... وقال: جئت بمعنى من معانيها

فقلت من خدها، أم من لواحظها ... أم من تدللها، أم من تأبيها

أم من معاطفها، أم من عواطفها، ... أم من مراشفها، أم من مجانيها

أم من تفترها، أم من تكسرها ... أم من تلفتها، أم من تثنيها!؟

كن مثلها لىّ جذبًا فى دمى وهوى ... أو كن دلالا وكن سحرًا وكنِ تيها

فقال وهو حزين: ما استطعت سوى ... إنى خطفت ابتساما لاح من فيها..!

نظراتها

أكتب إليك يا حبيبتى كتاب عينى، إذ أكتب عن نظرتك السحرية التى أجد لها فى قلبى معرض فن كامل من صور المعانى الجميلة فإن نظرية الحب تقع موقعها فى العين وحقيقة معناها فى القلب، كأختها قبلة الحب: هى فى الفم وحلاوة طعمها فى الفكر.

أتدرين يا حبيبتى كيف أراك؟... إن فى عينى من أثر حبك ما جعل فى نظرى قوة خلق معنوى ترينى كل شىء من فوق معانيه، كأنى خلقت فيه جمالا أو معنى، أو خلقت فيه القدرة على أن يسمو فى روحى ويرتفع بها فوق ما هو فى نفسه وحقيقته، وعلى الجملة فكأنى أسبغ الفن على المادة فإذا كل شىء يرى هو نفسي شىء ألبس مجازًا أو استعارة أو نحوهما مما يحقق فيه مع صنع مادته عمل فكرى وخيالى.

فى نظرى من أثر حبك حس من الفكرة، فهو نظر وتقدير معًا والأشياء لديه مادة وعبارة سواء، والإدراك به حقيقة وخيال جميعًا، وبكل ذلك فالجمال فى نظرى جمال من ناحيتين: حسنه فى ذاته، وحسنه فى خيالى الذى يجعله اسمى من ذاته.

ولو أردت مثلا أضربه لقلتُ لك: خذى جمالين فى معنى واحد فإنى أنشأت حديقة زهر. ولكى لا أقول لك أنت غرست حديقة بل أقول لك: غرست الفجر.

ومن ذلك يبدع لى الحب فكرة عنك لو هى كانت فى خاطر ملك من

الملائكة مر بها فى السماوات لما زادت ولا ارتفعت عما هى فى نفسى ولو دخل بها الجنة، فى هذه الفكرة وعنك يا حبيبتى الجنس كله بأحسن ما فيه، وبهذه الفكرة أراك وفيك الجمال النسوى كله، فإذا نظرت إلى غيرك لم أر فيها إلا شخصها هى حسبه[1].

كذلك أراك بحس الشاعر الذى يضيف دائمًا إلى الحياة والطبيعة زوائده وفنونه، ولكني أراك أيضًا بحس الطفولة التى تضيف إليها الحياة والطبيعة دائمًا مثل تلك الزوائد والفنون، فما أحسبنى رأيتك مرة إلا وكأنى رأيت فيك أول أنثى، وكأنما الحب هو بدء الدنيا مرة ثانية من أولها، أى ولادة خيالية: إن لم تولد بها الأشياء فى أشكال جديدة فبألوان جديدة، أى زخرفة الوجود كله ونقشه لعين العاشق بجمال المعشوق، كأن الوجود بيت قد طلى وزخرف ونقش لأنه ستدخله عروس الحب!.

وانظرى الآن يا حبيبتى صور نظراتك فى قلبى، فإن لها بعثات من ورائها بعثات[2]، وفيها المعانى من تحتها المعانى.

فهذه نظرات تمتد تأمر تشعرنى قوة سطوتها كأنها تقول: أريد... أريد... ثم لا يرضيها الرضا فكأنها تقول: أريد منك أكثر مما أريد...!

ونظرات تجىء تشعر النفسَ قوة سحرها، فلا تتفتر بها عيناك حتى أرى الحياة وقد ملأت وجهك بفن من الأنوثة الساحرة كأنما أبدعته لك خاصة.

ونظرات من عين ساجية ساكنة الطرف كأنها تقول لى: إن نظراتى إليك بعض أفكارى فيك!

---

(١) حسبه، أى فقط، والهاء: هاء السكوت للوقوف على الكلمة.

(٢) أى لها فى نفسه أمارات مما تبعثه وتهيجه فى النفس.

ونظرات بتقطع الطرف بينى وبينك فيها كأنها تقول لى أفهمت...؟

ونظرة طويلة صارمة لها سِيماء قاض محقق فيّ عن توكيد لتهمة أو براءة!

ونظرات من عين تسأل متجاهلة وقد شطرت بصرها[1] كأن فيها فكرين أحدهما يقول أعرفك، والآخر يقول لا أعرفك!

ونظرات الحبيبة لألأت بعينيها[2] كأنها تقول لقلبى: أنت جرىء كالفراشة، ولكن الشعلة المحرقة...!

ونظرات الجميلة المزهوة كأن فيها شيئًا أعلى من أرواحنا يوضح لمحات من الجمالى الأزلى.

ونظرات الضاحكة اللعوب تنفر وتتدلل كأنها تقول لى:

إنها تحس بأفكارى تداعبها وتلمسها!

ونظرات الخفرى الحييّة التى كأنما تحاول أن تخفى سر قلبين تحت كسرةِ طرف ضعيفة.

ونظرات العذراء أو مضت بعينها وسارقت اللحظ[3] لأن روحها تريد أن تقول: إنها للحب متيقظة!

ونظرات ترنو فى سكون واسترخاء كأنها تقول: إن تعبيرى هو أن يموت فى التعبير أراها محدجة[4] كما تنظر من روعة وفزع حين لافزع ولا روعة، فأعلم أن الجمال يهاجمنى بسلاحِ خوفه!

---

(١) يقال هذا فى الشخص الذى كأنه ينظر إليك وإلى آخر... فشطر من بصره هنا وشطر هناك.

(٢) كما يقول العامة (برقت) وذلك يكون من إعجاب ودهشة.

(٣) أى كأنها تنظر وميضا ينبعث ويخفى.

(٤) تنظر ملء العين.

هذه نظرة بريئة ولكن فى شكل خاص من البراءة.. لينبعث منها فجأة معنى ظريف يتماجن ويمكر ويعبث!

وهذه نظرة ناعسة، وكأن وراءها فكرًا خطرًا نائمًا تجتهد أن لا ينتبه...!

وهذه نظرة- نظرة واحدة- يقول من يعرف أنساب معانى الحب: إنها ربما كانت... أخت القبلة، فهى قصيرة لا ينفتح بها الجفن حتى ينطبق!

وهذه نظرة طويلة قوية فى جذبها، فربما كانت أخت العناق!

وهذه نظرة- نظرة واحدة- يجشع فيها بصرك لأن تهمة لك من عينى التقت مرة باعتذار لى من عينك.

وهذه نظرة بين المعنيين تحتمل كليهما: إساءة الدلال إلىّ وإحسانه علىّ!

وهذه نظرة بين اللقاءين[1] تجذب فى قلبى الخوف والأمل بمقدار واحد.

تلك يا حبيبتى صور نظراتك فى معرض قلبى، وتقابلها هناك الصور الأخرى التى لا تريدين أن أصفها لك، لأنها الصور المسكينة: صور أحلامى..!

(١) لقاء الغضب ولقاء الرضا، فهى فى حالة بينهما لا من هذا ولا ذاك لا عابسة له ولا باشة فى وجهه.

استمداد فلسفة

"وكتب إليها"

جاءنى كتابك، بل جئتنى أنت فى كتابك، فضممت الصحيفة إلى قلبى ضمة عرفتك فيها من خفقات هذا القلب واضطرابه! وقبلت الكلمات قبلا شعرت من سحرها فى نفسى أن هذه الألفاظ قد خرجت من فمك الوردى فجاءت عطرًا وحياة وجمالا، ونقلت فى الكتاب جوًا رقيقًا نديًا كان مطيفًا بشفتيك عند كتابتها كأنه نسمة من الفجر حول وردة تتنفس بعطرها الذكى.

كلما قرأت لك شيئًا نفذ إلى روحى بالعطر الذى عطرك الله به. كأن الكلام بيننا أثير تسبح فيه مادة نفسينا: ولو كل الجميلات فى العالم لفظن كلمة واحدة ثم لفظتها أنت لكنت أنت وحدك القادرة على أن تصنع روح الجمال وروح الحب وروح المرأة فى تلك الكلمة لأن روحى لا تعرف الجمال والحب والمرأة إلا فيك!

ترينني حين أقرأ كتابك بين سحرين تظاهرا من ألفاظك ومعانيك فتجدينني كالنائم تخلق الذاكرة فى خياله أجسام المعانى المحفوظة لتخرج له من الاسم صاحب الاسم، وترد عليه من الحكاية واقعة الحكاية، وتجرد منه شخصًا لا حقيقة له ينطق فى عالم مسحور ليست له حقيقة. ويألم النائم ويلذ كأنه من اليقظة لم يزل!

يذكرنى هذا بما جادلتك فيه يومًا من أن هناك عالمًا معنويًا يخلق مما ننساه ونحن ننتقل إليه أحيانا بالنوم، وأن هذا تمثيل لمعنى الخلود أو هو من بعض أدلته، إذ لست أرى الموت إلا رجعة الروح إلى عالم أنشىء لها من أعمالها فى رحمة الله ونقمته. فنحن على الأرض نبنى لأرواحنا فى السماء،ومنا من يبتنى لنفسه المدينة العظيمة بخيراته وحسناته، ومن يبنى لروحه السجن الضيق الوعر بآثامة وجرائمه!

مالى أرانى قد اندفعت إلى ما وراء الحياة؟ ولكن هل الحب إلا روحانية ترجع بنا إلى ما وراء أنفسنا لتضيف بعض المجهول إلى وجودنا، وتزيد لنا نعيم الدنيا وآلامها ما لا يزيده شىء آخر غير الحب؟.

لو سألتنى من هو العاشق لأجبتك إنه لن يكون عاشقًا إلا من أحس أنه قذف به فى الابتسامات والنظرات بمرة واحدة إلى مهبط السموات، فيشعر أن نعيمه أهنأ من نعيم الأرض، وأن عذابه أشد من عذابها، وكأنه إذ يتنعم لم يصب أسباب النعيم، بل أسباب الخلود فى الجنة، وإذ يتألم لم يجد مادة الألم بل مادة نارية خالدة على قلبه.

كذلك لايبدأ الحب إلا من آخر الدنيا، فهو دائما على طرفها، ولو نصب ميزان الآخرة لعاشق من العشاق المتيمين ووضعت كرة الأرض بكنوزها وممالكها فى كفة منه ثم وضع حبيبة فى الكفة الأخرى، لرجحت هذه عنده لأن فيها حبيبه وقلبه، وبقيت الأخرى كأن لم يكن فيها شىء وإن كان فيها المشرق والمغرب!

وأعجب من هذا أننا نجد من الزهاد والمتنسكين من يقطع دهره كله

متعبدًا منصرفًا عن الدنيا إلى ما بعدها، جاعلا لسان حواسه الأرضية[1] دائما سماوى اللغة، ثم لا يجد مع هذا النسك وهذه الروحانية من يقول إنه كالملائكة على حين أن الكلمة الأولى التى يقولها العاشق فى وصف حبيبه ساعة يمس قلبه: إنه ملك. وإنه من السماء، وإنه قانون من قوانين القدر، وإنه الوجود كله مختصرًا فى نفس إنسانية، والطبيعة كلها ممثلة فى ذات لذات أخرى، وإنه مظهر من مظاهر التقديس لا تحيط به إلا معانى الجلال والعبادة فلا يزال القلب يركع أمامه ويسجد!

أتذكرين أيتها الحبيبة ما قلته لك ذات مرة وقد رأيت كلبك الصغير الجميل كأنه من ترامبه عليك ومن معانى نظراته إليك- عاشق يريد أن تفهميه.. فقلت لك: إننى أراه يحبك بقوة أحسبها تحاول أن تقلبه إنسانا يحب ويعبد، فإن كان هذا فى الحيوان ولم يزد على معنى الوفاء والأمانة شيئًا، فليت شعرى كيف تصنع هذه القوة فى الإنسان وهى فيه أمانة ثم رغبة زائدة عليها، ووفاء ثم غاية أعلى منه، وحب إنسانى ذاهب إلى طرفه الإلهى، وشىء معلوم ثم شىء مجهول فى المعلوم؟

إنها والله لن تدعه إنسانا أبدًا ما دامت لا تدعه فى نفسه آه، آه! ما أرى الحب إلا قوة تخرج النفس وتشيعها فى الوجود كله أو تدخل الوجود كله إلى النفس وتدعه شائعا فيها، ولهذا فمهما يبلغ من سعة العالم فإنه لن يمتلئ عند المحب إلا بواحد فقط، هو الذى يحبه.

---

(1) كناية عن الرغبات والشهوات لأنها هى نطق الحواس ولغتها.

أعرف هذا منك أيتها العزيزة لأنى فى هذا البعد أراك فى كل مكان حتى لكأن هذا الوجود كله وَرَقَةُ تصوير حساسة مصوبة بآلتها إلى قلبى تلقط رسمك منه وتلقيه على كل شىء صرفت إليه عينى، وهذا- ولا ريب- معنى من معانى اللانهاية فلعل ناموس الحب لم يخلق إلا لتدرك منه الإنسانية ما يقرّب لها فكرة مالا ينتهى، فمادة الحبيب الممثلة فى جسمه وتكوينه لا تفنى أبدًا ولا تحصر أبدًا. بل هى تنصب من عينى محبه على كل شىء وملء كل شىء.

الحبيب محدود بعاشقه فقط، وهذا مثال يقرب للعقل كيف يفهم الخلود الذى لا يفنى ولا ينتهى، لأنه أبدا ممتد مع الخالق الأزلى الذى لا ينتهى ولا يفنى.

عذرًا أيتها الحبيبة، فمهما أكتب فلا يزال وراء الكلام ذلك المعنى الدقيق الذى لا يظهره الكلام، وذلك المعنى المعجز الذى هو بلاغة فوق البلاغة، ذلك المعنى الجميل الذى هو أنت...!

صرخة ألم

"وسألته مرة أن يكتب إليها فى أوصاف الألم وفلسفته، قالت: لأن قلبى يجد فيك يا أستاذى... من يؤلمه، أعنى يداويه مما يؤلمه!

فكتب هذه الرسالة والتى بعدها:

وأنا والله يا حبيبتى كسار وقع فى ظلمة مدلهمة تحت ليل كأنه رماد قد هيل على جمرات النجوم فأطفأها. وهو على ذلك يخبط فى قفز أشد وعورة واستغلاقا من جفاء الحبيبة الهاجرة المتعنتة: لا يعرف الطريق الذى يؤدى إليها كأنها ليست فى جهة، ثم بينا هو يعتسف وقد ضل ضلاله شام البرق فحسب الملائكة جاءته من فوق تحمل مصباحا، ولكن ظلام حظه جعل الملائكة أيضًا تطفىء مصباحها وتدعه لما بين يديه...

وكذلك أطفأت أنت حتى كلمات الأمل، التى كالبرق تضىء ولا يثبت منها شىء، وتلوح معانيها ثم هى مظلمة من كل معنى. وتركتنى لآلامى كالحنظلة المرة، لو أنك أمسستها قطرات من العسل لما أحلتها ولا بقيت حلوة.

لا.. لا، بل قطرة واحدة من هذه القطرات تجعل حنظلتى كلها يا حبيبتى قرصا من العسل ما دامت منك.

تريدين أن أكتب أوصاف الألم وفلسفته؟ ألا فاعلمى أن آثارك فىّ هى كتابى إليك... لا...لا، بل سأتكلم عن أخرى مثلك هى... هى الحياة.

أكثر تكاليف الحياة فى ألمها وتعبها كأكثر أمراض الحياة، فهل من هذا إلا أن كل إنسان مريض ما دام حيًا- بأنه حى...؟

ونعيش بين الأشياء والمخلوقات، ومنها ما يسرنا كأنه أجزاء فى وجودنا قد زيدت علينا، ومنها ما يؤلمنا كأنه أجزاء قطعت منها فهل يؤخذ من هذا الإنسان ما دام مضطرًا فهو مريض بأنه مضطر...

فأين إذن يلقى الحى آلامه وفى جسمه مرض يخلقها مندفعة منه وحول جسمه مرض آخر يردُّها راجعة إليه.

أهما مرضان فى القوة أم سجنان للقوة؟ أم الألوهية تحقق بهذا الأسلوب الجبار قدرتها فى ضبط هذا الإلهه العقلى المسمى الإنسان فشدته وثاقًا من شعوره بآلامه. وجعلت أكثر معانيه الإنسانية هى أكثر سلاسله.

إنما أمر الله إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون، ومن شقاء الإنسان أنه طول حياته يزور كلمة الألوهية "كن" ويريد أن يقبض من الأشياء قيمتها...!

وأشد ما يؤلمه أن يهزأ منه ما يقول له "كن" فلا يكون منه شىء، فالحكيم لا يتألم إلا ألم الحكمة، والجاهل يتألم بآلام الخيبة والعقاب.

على أن كل ألم لو حققنا راجع بلذة أو حكمة أو منفعة، وأفراحنا وأحزاننا- على تناقضها تلتقى كلها منسجمة فى الحكمة الأزلية التى قدرتها لمن يفرح ومن يتألم.

وما أشبه آلام الإنسان بألم الطفل المدلل. تراه يحزن لكثرة ما يفرح

ويحول ابتسامته دموعًا فى عينه فيتغير فى صورته دون أن يتغير فى معناه، فيضحك باكيًا، ويشكو فتكون شكواه طريقة مرح فى غير شكلها ويكون فى نفسه معنى واحد ولكن وجهه الغض اللين يضع لهذا المعنى أساليب مختلفة هى أنواع من ألعاب الطفولة.

إننا نسر حين تخضع لنا القوة المحيطة بنا فتؤاتينا، ونألم حين تتمرد علينا ولكن ياويحنا! ألا يجوز أن نكون نحن قد تعالينا ففتناها وتكون آلامنا آتية من سموها على المادة، كما ترى وجه الفيلسوف عابسًا تحسبه منظر لوعة وهو منظر فكرة سامية؟

ترفعنا الهموم والآلام، لأن عواطف الحزن والشقاء لا تكون إلا من سمو، وهى لابد أن تكون لأنها وحدها الحارسة فينا لإنسانيتنا، إذ تخلق مع حياة الجسم المادية حياة معنوية للقلب، ونحسها من فقد ما نفقده، لأنه لابد للضمير الإنسانى من صوت أليم يقول له أحيانا: أنت سماوى فاترك هذا، وكأن كل لوعة ألم يحسها المرء هى صرخة عاطفة جديدة ولدت فى النفس!

حين يموت الميت العزيز يولد من موته لذويه الحزن عليه تلك بعينها هى طريقة خلق الفضيلة، تفقد شيئا فنجد من فقده معنى.

والمرأة بكل قواها ترعى طفلها وتحوطه وتربيه، ولكن ابنها بكل ضعفه يربى عواطفها ويرعاها ويحوطها، وإن دمعه ليجعلها ترى للأشياء مدامع.. فهو خالق فيها لأنه مخلوق منها وهذا هو التفسير الذى لاغموض فيه، لأنه هو ذاته الغموض الذى لا تفسير له.

وكذلك آلامنا هى أطفال معانينا.

وقفتُ يومًا على شاطىء البحر، فخيل إلىّ أنه عين تبكى بها الكرة الأرضية بكاء على قدرها، تأملت الجبال فحسبتها هموما ثقيلة مطبقة على صدر الأرض، وفكرت فى البراكين فقلت لوعة أحزانها تثور وتمهد.

ثم رجعت بهذا النظر فى الإنسان، فإذا له على قدره بحر وجبال وبراكين.

عند الطبيعة: لا ألم ولكنه نظام، وعند الإنسان: لا نظام ولكنه ألم.

ولعمرى، لو أتى للأقدار أن تخاطب البائس المتألم لكان الخطاب بينهما جملتين من القدر وحرفا واحدًا من البائس على هذا النسق:

القدر: هل عرفت كل السر؟

الإنسان: لا.

القدر: ويحك، فهذا الذى أصابك بعض السر!

obeikandl.com

... وألم الحب

أما ألم الحب، فذاك حين يأتى على اللحم والدم معنى لو تجسم لكان هو الذى يصهر الحديد فى موج من لهب النار، ويحطم الصخر فى زلزلة من ضربات المعاول.

هناك الألم المدمر لا يكابده إلا إنسان كأنما يراد خلقه مرة ثانية فيهدم ويبنى، أو يزاد تنقيحه فيغير ويحول.

وأعظمه لأعاظم الحكام والشعراء، فهم وحدهم الخارجون دائمًا عن هندسة الحياة المنسجمة، وهم وحدهم الذين يتحول كل شىء فى أنفسهم إلى حقيقة عاملة فلا يبرحون فى تغيير، ومن ثم فلابد فيهم من هدم...!

ولا بد لهم من آلام على قياس العظمة، تكون لكل منهم كالبراهين عنه نفسه أنه غير إله، وأنه حين يكون بين حكمتين إنما يكون بين ضربتين...!

تجد الشاعر العظيم أنه ليكاد يملأ الكون، فلا يضرب بالحب إلا الضربة الداوية تنطبق بها أقطار المشرق والمغرب!

وإنه لضغط بالوجود نفسه على بعض الناس، كضغط الأرض بآلاف الأجبال على بعض الفحم المطمور فى أعراقها ليتحول فيكون منه الماس الكريم المتلألىء!... ألا ما أهولها قوة تبيض الأسود بطبيعته، إلى جوهر النور بطبيعته، وفى خلق شمس ألماسية وهاجة، ولكن من ظلمة حالكة انعقدت فى التراب!

وما أهول مثلها من الآلام فى مضاعفة الحكيم أو الشاعر بقدر إنسانيتين، ليتسع لبؤس من الأشقياء وسرورها جميعًا، وليكون على مدرجة بين الخليقة وخالقها، وليبقى دائمًا من ضغط الوجود عليه كأنه محصور فى عمر ساعة ألم قد جمدت حوله!

أولئك يتأوهون لا بالأنين كغيرهم من الناس، ولكن برعد الأرواح يرجف إذ تنفجر بكهربائها، ويبكون لا بالدموع، ولكن بسحائب من معانيهم يؤلفها القدر ويراكمها ويضربها فيسوقها لتمطر على ناحية الجدب الإنسانى.

أولئك يتألمون لا بالألم ولكن بتمزيق فى أنفسهم كتمزيق الأرض حين تودع أسرار الزرع . ويتوجعون لا بمقدار عمل الواحد منهم بنفسه، ولكن بمقدار عمل الدنيا به، وليس منهم البائس الحزين الذى نزل به الألم رغمًا وذلا. ولكن البائس الجميل الذى اتخذته الحكمة ليبدع الصورة الكلامية من جمال نفسه لجمال الكون شعرًا وبيانًا وفنًا.

فى موضع تقع الشرارة لتنطفىء، وقد تنطفىءُ قبل وقوعها وفى موضع آخر تقع وكأنها ولدت ثمة لتحيا وتكبر، فإذا هى من بعد نار تعمل أعمالها.

وكذلك الألم ومن يتألمون ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[1].

---

(١) آية مقتبسة من القرآن الكريم. وفى اعتقادنا أن الحب ليس اختيارًا كما مر فى «رسالة للتمزيق»، وإنما هو استعلان معنى الجمال بالصورة التى يمكن أن تفرض فرصا على محبها، فما هو إلا يراها فتخالطه فيحس الجمال فيجب.

ومن قسوة القدر على الشاعر العظيم أن لا يجعل حبه حبًا خالق الوحى إلا فى أمرأة على قدر تألهه عظة وسخرية...!

يقول هو عنها ما أحوجنى إلى معجزة نبى تحول الحجر الذى فى ضلوعها إلى قلب...، وتقول هى عنه: ما أحوجنى إلى بعض الملائكة أو الشياطين ليكشف لى سر نفسه المخبوءة تحت مكان الصبر فى قلبه!

ويعيشان فى الحب كما يعيش اثنان فى قصة... وضعها مؤلف خيالى فأحكم عقدتها... وتخاصم سعادة كل منهما سعادة الآخر، ويعملان كما يعمل الغنى الشحيح. يفقد الحياة لينال الدنيا[1]. ثم إذا سألت ذلك المسكين الأعظم: ما لذة هذا الحب الأليم اللهفان؟ قال لك: لذته أنه حب!

هى حينئذ كل العذوبة السيالة فى روحه، وهى بذاتها كل الإقذاء التى ألقيت فى ينبوع نفسه؛ وآلامها ميلاد حقيقى لمعانيه، ولذاتها أكفان حقيقية لموتى هذه المعانى إذا أريد لها الموت، وكل ما يضع الآلام والأوجاع فيه يضع منها النور فى كلماته!

من كونها هى فى قلبه يشعر أن الكون فيه، حتى ليقول فى وحيه للجبال الراسية على أعضاد الأرض: آلمتنى يا أعضائى...

وتلقى فى حياته ألوان عينيها وخديها وثغرها وألوانًا وألوانًا، فإذا حياة فنية مزخرفة منقوشة بأبدع وأجمل مما فى الطبيعة ورياضها وألوانها.

ولا تصالها بموضع السر من روحه، تشعر السر العجيب سر الحب الذى يحير العاشق حين تفتنه من يهواها فيحسب كأن الجنس كله مستحيل

---

(1) أى يتصرف كلاهما بعناد وتهور وخطأ. ومقدمات تستحيل معها النتائج السعيدة لأحدهما أو كليهما، فهو ذو عناد وهي ذات معاسرة!

وأمكنت واحدة، أو كأن الجنس كله ممكن واستحالت واحدة تعلقها، فكأنه لا جنس بل واحدة فقط...

وتتصرف به فى دلالها وهواها تارة وضدها، فيراها حيًا كما ينظر طفل إلى سكرة، وحينًا كما ينظر المريض إلى مقبرة!

وإذ هى أنفقت أهلكت بلذة، وإذا هى امتنعت هلكت بألم... داءٌ لا يدرى أنى يؤتى له[1].

يا رحمة للمحب الذى يتوجع بآلامه وحقائقها ثم بمعانيها فى روحه وأمانيه ثم بالصبر عليهما: ثلاثة آلام من ألم واحد!

ويا آلام الحب، أنت ثقيلة، ثقيلة لأنك نظام التراب فى روحانيتى!

ويا آلام الحب، أنت جميلة جميلة، لأنك إشراق السر الأعلى فى نفسى!

ويا آلام الحب، أنت حبيبة ولو أنك آلام، بل حبيبة لأنك آلام...

(١) أى لا يدرى كيف يتأتى له ولا كيف يداويه، إذ لا يدرى ما هو، ولا أين هو؟

منى السلام

منى السلامُ على من لو تصافحها ... يد النسيم، أحّسث غمز آلامى

مرت على الورد فى الأكمام فارتعشت ... أسى وقالت: أهذا قلبهُ الدامى

وأبصرت غصنًا ظمآن منطرحًا ... فما رأت فيه إلا بعض أسقامى

وتسمع الطير صداحًا بأيكته ... يشكوا، فتسمع فى شكواه أنغامى!

حقيقة الحب فيها، ثم تُظهرُ لى ... كأننى عالق منها بأوهام

يا للعجيبة للمرآة! أنظرها ... ولا أرانى فيها وهى قدَّامى

يأختَ شمس كلون الخد مشرقة ... وأخت بدر كنور الوجه بسام

ما كنتِ مثلهما إلا لتبتسمى ... على ليالىّ فى حبى وأيامى

obeikandl.com

الحبيبات والمصائب...

"وكتبت هى إليه"[1]:

كنت أقرأ الساعة فى كتاب... لذلك النابغة الفرنسى الذى أخرجه الحب للشعر فأخرجه الشعر للانسانية.

هو «فلان»، هذا الرجل الذى ولد مرارًا فى الحياة، فإن الشاعر العظيم لا تلد منه أمه إلا الجزء الأرضى الآتى من المادة ليفنى فى المادة أما الأجزاء الروحية السماوية التى هى زيادة فيه على الناس ليكون أكبر من الناس، فهذه- كما قلت لى أنت مرة- تلده الحبيبات و... ومصائب الدنيا!

أترى يا عزيزتى مصائب الدنيا نوعا من الحبيبات فى بعض وجوه الشبه واتحاد الغاية ومطابقة الحكمة؟... لك فلسفتك ولكنى أرجو أن يكون أنا الموحية إليك بهذا المعنى...

الألم فى الحب والألم فى المصائب: كلاهما أسلوب إلهى رحيم على قدر ما هو عنيف، يؤتى من القوة بمقدار ما يبتلى من الضعف، وينتهى إلى السعة فى الروح كما يبتدىء بالضيق فى الحاسة، وينشىء فينا

---

(١) ليعلم القارىء أن الصديق «صاحب الرسائل» تلقى من صاحبته رسائل كثيرة، ولكنها كالصحافيين، لها من دلالها "قانون مطبوعات" تراقبه.. وقلمها قلم فنانة، فيه مع الجمال خبث جميل. وهى إلى الآن لم تأذن بنشر رسائلها، وإنما استرقنا هذه وبعض فصول من غيرها. أما لغة الرسالة فليست لها، بل هى من تهذيب صديقها. وفى يقيننا أنها لو كاتبته لاتمام رسائله وأفرغت له قلبها وفنها كما فعل هو لظفر منها الأدب العربى بأثمن كنز فى معانى الحب، وأهل ذلك كانت وكان صاحبتها، فقلما وجد مثلهما.

مع النظرة المتألمة أو المتحزنه أو المتكسرة نظرات أخرى، منها النظرة المفكرة والشاعرة والمتحدثة فى صمتها واسترسالها بأسرار عالية كانت معانيها من السمو الروحى لأن لغتنا من الأوجاع والأحزان!

ذلك الأسلوب القاهر لايزال يتقصى بالوجيعة ويتتبع بالشدة حتى يخرج من الإنسان الموهوب ما تخرج حبة الرمل من حيوان الصدف حين تندس بخشونتها فى لينه وتنغرز فى لحمه إبرة حياة فإذا تاريخ ألم طويل حى لايزال يستخرج ما يكونه حتى يلتف ويتغشى ويستكمل، ثم تكنز منه الطبيعة كنزها، فإذا أنت من حبة الرمل بحبة لؤلؤ...

شاعرنا الفرنسى هذا يشبهك يا صديقى شبهًا تامًا، حتى كأن التاريخ يعيده فيك، مملوء من كبرياء العقل وكبرياء الغضب على الحياة، فليس يراه أحد فى وقت يكون فيه مع الأشياء... إلا حسبه لاهتياج نفسه وعنفوانه كأنه خارج لتوه من عراك أو خصام...!

لقد قلت لى يوما: إذا كلمتك عن خصومك والمفترين عليك من حاسديك، إن عداوة الأعداء مهما كثروا ينسيها حب حبيب واحد، ولكن عداوة حبيب واحد لا تنسيها صداقة الأصدقاء مهما كثروا.

فشاعرنا هذا... دائمًا يرى كأن به عداوة حبيب، ومذهبه هو مذهبك بعينه، هو أن الحب الذى هو فى جملته أعلى الصداقة، هو فى أشياء كثيرة ألف العداوة أيضًا..."[1] ولنرجع إلى الكتاب.

---

(1) أكثر دلال الحبيب هو عداوة لطيفة لعواطف محبه، فالمنع مثلا عداوة للطلب، والبعد عداوة للقاء، وهكذا.

أتذكر إذ التقينا وليست بيننا شابكة، فجلسنا مع الجالسين لم نقل شيئًا فى أساليب الحديث، غير أننا قلنا ما شئنا بالأسلوب الخاص باثنين فيما بين قلبيهما؟

وشعرنا أول اللقاء بمالا يكون مثله إلا فى التلاقى بعد فراق طويل، كأن فى كلينا قلبًا ينتظر قلبًا من زمن بعيد؟

ولم تكد العين تكتحل بالعين[1] حتى أخذت كلتاهما أسلحتها... وأثبت اللقاء بشذوذه أنه لقاء الحب؟

وقلت لى بعينيك: أنا.. وقلت لك بعينى.. وأنا.. وتكاشفنا أن تكاتمنا؟

وتعارفنا بأحزاننا كأن كلينا شكوى تهم أن تفيض ببثها؟

وجذبتنى سحنتك الفكرية النبيلة التى تضع الحزن فى نفس من يراها، فإذا هو إعجاب، فإذا هو إكبار، فإذا هو حب؟

وعودت عينى من تلك الساعة كيف تنظران إليك؟

وجعلت أراك تشعر بما حولك شعورًا مضاعفًا كأن فيه زيادة ولم يزد؟

وكان الجو جو قلبينا.

وتكاشفنا مرة ثانية بأن تكاتمنا مرة ثانية...!

آه! قلت: ولنرجع إلى الكتاب، ففى الكتاب قصة محب تبدأ هذه البدأة وتجرى فى هذا المنزع ثم تطرد وتنساق فلا يقرأها من عرف الحب إلا

---

(1) هذا تعبير عربى بديع، يقولون: لما اكتحلت العين بالعين... كأنهم يقولون: لما التقيا ووجدت كل عين من الأخرى جمالها وقوتها وزينتها... فتأمل!

أحس كأن خيال ذلك المحب قد خرج من الكتاب ولزمه، ولشدة ما تؤثر القصة فى النفس، حتى لكأنها حادثة وقعت لمن يقرؤها، أو كأنه يرى القصة رأى عين.

رجل وقع من الحب بين لا، وليت، وهيهات ولات[1] بين التمنى بأسلوبين، والبعد عما يتمنى بأسلوبين أيضًا، فأحب ليتعذب، وتعذب ليتصل بمعنى نفسه. واتصل بنفسه لينفذ منها إلى طرف من معنى الألوهية، وإن أردت الاختصار قلت لك: إنه أحب ليتأله!

هل تفعل بسمات الحبيبة كل هذا؟ ألا قل لى من أنت، فإن الكتاب لا يقول لى شيئًا؛ وما كنت أقرؤه بل أقرؤك[2].

ماذا ترى فى الابتسامات؟ أمر تسقط عليه بندى السماء فى نشر الروض وعطره، أم تلذع قلبك بالخمر الضاحك الذى لا يقال فيه حين يشتعل إنه اشتعل، بل إنه، بل إنه تندى... ذلك الجمر يحرق من غير أن يتضرم فلا يفنى ما يحرقه ولا يأخذ منه، بل يصبح كلهيب الياقوت فى الياقوت وديعة إلهية جميلة فى شكل النار؟

فى كل صفحة من الكتاب كنت أراك فأرى المعانى شعاعا فكريًا منبعثًا من جبهتك السامية لا من الأسطر وأوراقها.

كأس الكتاب مملوءة بماء الشعر العذب؛ ولكن مؤلفه لم يناولنى كأسًا بل نقلنى إلى الينبوع المتفجر إذا نقلنى إليك. أعطانى هو مادة القراءة

---

(١) أى وقع من الحب الممتنع المطمع فى مثل معانى هذه الكلمات نفيًا وتمنيا وبعيدًا.

(٢) ستأتى فلسفته فى رسالة الابتسامة بعد هذه وكيف يرى الابتسامة.

وهيأت لى أنت مادة الفكر فيما أقرأ فوضعنى هو فى الكتاب ووضعتنى أنت فى نفسى!

روحية الكلام المكتوب يا صديقى هى وحدها التى تجعل الكتاب عالمًا من العوالم يحمل دنيا مستقلة وإن كان هو يحمل فى اليد، ولن يستطيع مؤلف أن يخلق فى كتابه هذه الروحية، بل يبثها القارئ فيها يقرأ من ذات صدره أو ذات نفسه. فلابد للمؤلف الناجح من ثلاث: نوع الكتابة، ونوع الأسلوب؛ ونوع القراءة، ومتى أصاب هذه الثلاث التأم قليله بالكثير، واجتمعت فصوله بالحوادث؛ وتلبست كلماته بالأعمال، ووجد من قرائه تفسيرًا لكل ما يقول؛ فإذا هو قد ارتفعت به الحال فلم يعد كاتبًا ينتظر قرائه بل نبيًا ينتظر المؤمنين به؛ لأنه خارج من أحدى نواحى القلوب، وراجعًا إلى القلوب من ناحية أخرى.

وقصص الحب متشابهة، ولكن لكل منها طعما ومذاقًا وأثرًا، كأن كل حب هو نفس جديدة، فهو بذلك قصة جديدة، وعلى هذا القياس يمكن أن نقول: إن الحب هو تجديد النفس.

هذه النفس تسأم الحياة فتريد أن تخرج منها وهى فيها، فلا يصنع لها هذه المعجزات إلا الحب.

والنفس قديمة، فتحاول أن تتوهم إنسانية جديدة خاصة بها فلا يأتيها بهذه المعجزة إلا الحب.

والنفس بين سماء وأرض لابد لها منهما؛ فتنزع أحيانًا إلى أن تكون

بين سماوين رجاء أن يكمل إشراقها، فلا يخلق لها هذا الخلق المعجز غير الحب!

أنا الآن حزينة وقد حضرنى بشى[1] فأطرقت إطراقة طويلة عند هذه الكلمة، إذ الجديد لا يبقى جديدًا إلا مدة ما، فهل ترى يستمر الحب حبًا؟

آه من سيل الزمن الطاغى العنيف المندفع دون رد على وجودنا بهذه القوة الماحقة المستأصلة، قوة ما لا ينتهى "تندفع لتكتسح فى طريقها ما ينتهى!

أيها السيل الأزلى الذى لا يرحم ولا يبقى! من هذا الذى يستطيع أن يصنع لك سواحل وشطآنًا ويقول لك: استقر هنا يابحر الزمن؟

وأنت أيها الحب! من الذى يقيم عليك سواحلك وشطآنك ويقول لك: استقر ولا تذهب فى السيل...؟

أيها الصديق! وأنت...

(1) أى اشتد حزنى.

رسالة الابتسامة

يد مدم الحب على قلبه كأنه فى نفسه ينهدم[1]
برجفة حاملها لم يزل ممزقا فى القلب لا يلتئم
زلازل البركان لما دعت أن سئمت بركانها المحتدم
أجابها الله الطفى وارجفى من شفتى محبوبة تبتسم...!

لا يمكن القلب أن يعانق القلب، ولكنهما يتوسلان إلى ذلك بنظرة تعانق نظرة، وابتسامة تضم ابتسامة.

تلك يا حبيبتى كلمة سماوية مخلوقة من الضوء فى شفتيك الجميلتين تعبر عن كل شىء بحركة واحدة لا تتغير ولا تختلف على حين أن معانيها فى النفس دائبة فى تغيرها واختلافها.

وفى عينيك الأحلام رهيبة غامضة، ولكن على شفتيك معانى الأحلام واضحة مفسرة: فابتسامك هو كلامك الذى لا تتكلمين به، وهو يختلج لأنه حركة ظاهرة لفكرك فى الحب، ولذلك هو دائم متنوع، دال على معنى... وهو يضىء ليومىء بإشارة سماوية إلى سر المجهول الذى يتحجب فى جمالك ولكنه لا يكاد يومض حتى يطفئه هذا السر، فيعود فيستطير ثم يعود فيختفى ثم يعود ثم يعود.

---

(١) أصل الدمدمة. الغضب، ودمدم عليه إذا كلمه مغضبا، والمراد هنا عنف الحب فى هز القلب من اهتياجه وشدته كأنه مسلط عليه يهدمه.

أهناك نزاع على حقيقة خفية من الحقائق الجميلة لم تجد لها مخبأ إلا ثغراك الجميل؟

أم لك فكر شعرى موسيقى فهو يرقص دائمًا على وزن من ابتسامك؟

أم فى قلبك مادة من النجوم فهى دائمًا تلمح لمحها فى سماء وجهك النيرة فيسمون لمحها ابتسامًا؟

أم ثغرك يبتسم دائمًا لأنه بطبيعة جمالك وظرفك يتهيأ دائمًا لقبلة؟

يجد الطفل على كل حالة وفى كل مكان سرور نفسه، لسبب واحد وهو أن ابتسامه أبدًا معه فهو لم يملك من الوجود شيئًا بعد ولكنه أغنى من عليها بهذا الكنز الذى خبأته السماء فيه فينفق منه فيما لا تبيع كنوز الأرض ولا تشرى!

ولولا هذا الابتسام فى هؤلاء الأطفال وأنه على أفواههم كالنبض فى قلوبهم لما نفعتهم نافعة فى تحصيل النمو للجسم، والصبر للطبيعة والاستقرار للعاطفة والهدوء للنفس، والسعة للعقل، ولضغطت الحياة أجسامهم ونفوسهم اللينة فى قوالب معانيها المحدودة الضيقة المصبوبة من الضجر والآلام والهموم، فما يكبر من بعدها على الأرض طفل أبدًا، ولكن ابتسامهم سراج من كل قيود المادة، هو أشعة إلهية تذيب ما حول القلب الصغير من المعانى الضاغطة عليه ولو كان معنى روح جبل صخرى من الهم!

ولا تزال الجنة مع الطفل، حتى إذا كبر قيل له كما قيل لآدم: اهبط منها..!

أكل آدم من الشجرة، ولا شىء يضيع فى الكون، فأين الحلاوة التى ذاقها فى الجنة؟

هى فى أفواه الأطفال...

ويبتسم الطفل ويضحك ونحسب ذلك على مقداره. كلا، إنه وإن يكن طفلاً صغيرًا فى ملء جلده وعلى وزن جملته، ولكن مادة ابتسامه على مقدار الطبيعة كلها، لأن عظمة الكون هى التى ترعاه بهذا الأسلوب الصغير.

هو لا يحيا فى العالم، بل فى معانى نفسه، وبذلك هو دائمًا فوق الدنيا.

ومن حياة الأطفال المنحصرة فى معانى أنفسهم، ندرك سر الحب وسر السعادة، فإن كل لذة الحب، وإن أروع مافى سحره، أنه لا يدعنا نحيا فيما حولنا من العالم، بل فى شخص جميل ليس فيه إلا معانى أنفسنا الجميلة وحدها، ومن ثم يصلنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون، وينشىء لنا فى هذا العمر الإنسانى المحدود ساعات إلهية خالدة، تشعر المحب أن فى نفسه القوة المالئة هذا الكون على سعته، فتمر النفس حينئذ فى سبحات اللذة الروحية، من الجميل، إلى الجمال، إلى الطبيعة، إلى الله جل جلاله[1].

---

(١) لنا فى "رسائل الأحزان" و"السحاب الأحمر وفى هذا الكتاب آراء مختلفة فى كيفية اتصال النفس من الحب والجمال الإنسانى إلى مصدر الجمال الأعلى وتوفية لهذه الآراء ننقل هنا هذه الكلمة من كتابنا "المساكين" الطبعة الثانية.

"والطبيعة نفسها تهيىء الإنسان للدين بأسلوب غريب، وهو هذا الحب الذى يخلق فطرة على أنواع مختلفة متعددة، حتى لا يخلو منه أحد فلا معدل عنه ولا محيص، وإنما هو فى مظاهره- أيها كان- درية للنفس الانسانية تصعد به درجات من الفضائل: كالإخلاص والإيثار والاتصال الفكرى والإنبعاث الروحى والشوق الخيالى، ونحوها مما هو فى الحقيقة إيجاد للحياة النفسية فى أعمالها؟ وفيض بالقوة الروحية على مظاهر المادة لإحداث الملامسة بين الأرواح والأشياء، والترابط بين الجاذب والمنجذب. وكل ذلك تهيئة للدين وعمله فى النفس، ليكون قائما على أساسه فى الطبيعة، فالحب دين على أسلوب خاص ضيق ولذلك يشتد فيه التعصب كما يقع فى الدين من المؤمن به، على وتيرة واحدة، إذ لا يرضى للقلب فى هذا ولا هذا غير رأى واحد".

إما ابتسامتك أنت؟

أنك حين تمنحين نظرتك وتتبعينها الابتسامة التى تفسرها أقول عندئذ فى نفسى: لقد علم الله علمه فى حكمته ورحمته، فلما خلق الحقيقة من قوته عابسة جافية، قابلها من رحمته بالحبيبة متبسمة رقيقة... فلعل المرأة الجميلة أسلوب فى الفرع الإنسانى كأسلوب إنشاء الزهرة فى ذات القوة الخشنة التى تنبت الشوك.

ولك ابتسامة يزيد سكون الطرف من غموضها، والأخرى يزيد استطلاق وجهك من صراحتها. والثالثة على استحياء كأن وعدًا معلقا فيها.

ولك ابتسامة ملحنة كأنها نشيد وجد، يترقرق فيها صوتك الرخيم الذى هو أيضًا تصوير الابتسامة بحروف ورنين.

المعنى الذى يتحول بغيره، يقابله المعنى الذى لابد أن يحول غيره إنها مشكلة عجيبة كان حلها أعجب منها.

فما توجد امرأة هى جميلة فاتنة فى وهم رجل، إلا انبعث من شخصها معنى ليس فى أحد غيرها، كأن فيها وحدها مالا يوجد فى آدمى، وفى هذا السيال المعنوى يذوب كل شىء. وترى هذا الرجل يصغر للحب- ولا أقول يصغر به- فيرجع كالطفل تتولاه الطبيعة متمثلة فى امرأة. امرأة تعمل وحدها فيما يسوء ويسر عمل الدنيا وأكبر من عمل الدنيا!

لكل محب مع المخلوقات التى يعيش بينها مخلوقات من خواطره وآماله، وهذا برهان آخر على أن الشخص المحبوب أحد قوتين متقابلتين فى الخلق[1].

وقد تهم الحبيبة أن تكاشف محبها، ولكنها بابتسامة ظريفة ترد أفكارها الخطرة إلى أماكنها، وبهذه الابتسامة عينها تزعج فى نفس محبها تلك الأفكار من أماكنها.

آه من تلك الابتسامة المرحة الذاهلة! عليها لعينى المشتاق سمة من فتح ذراعيه وضم وقبل!

فى ابتسامة الحبيب يتنقل العاشق بروحه بين المعانى والخيالات الشعرية السماوية، وفى تلك النظرات منه يسافر بقلبه إلى أحلامه البعيدة كما يسافر الفلكى بعينه إلى النجوم فى (التلسكوب).

يسمونه ابتسامًا، ولكن حين يظمأ النبات لا يقول للناس: أريد الماء، بل يقول للشمس وحدها. أريد من شعاعك البارد العذب يا حبيبتى!

الماء حين يبصر تحرق الإسفنج وقد جف وانكمش يقول: إن كل ثقب من هذه الثقوب نفس ظمأى.

كذلك أوحى إلى محبًا قبل حبيبته فى روضة عند شجرات من الورد، فأشارت إحداهن إلى شفتى الجميلة المضمومتين وقالت لصواحبها أسمعتن قط أجمل همسًا من هذه الوردة الصغيرة وهى تتفتح...

---

(1) لأن الحبيب قوة خالقة فى العواطف والمعاني، وكأن هذه هى حكمة وجود الحب، والله يخلق الإنسان، والحب يوسعه ويمد من حدوده وقد يضيقه ويختصره.

الزمن كله موسيقى عند المحب، ولماذا...

لصوت حبيبته.

والزمن كله ربيع فى رأى عينيه، والدليل؟

ورد خديها وشفتيها.

والزمن كله جمال فى نفسه، والبرهان؟

كلها كلها...

وهل أبدع الله الفم الجميل المبتسم بهندسته وتقسيمه إلا ليبدع هو فى ابتساماته فن الروح حين لا تستطيع أو لا تريد أن تتكلم فترتعش...؟

كلام الفكر من اللسان، وكلام القلب من العينين، أما كلام الروح فهو هذه الحركة البليغة وحدها! وحدها!

أليس تألق الماسة هو وحده لغة معدنها النفيس؟

والألفاظ تجىء وفى نطقها معانيها، ولكن ابتسام الحبيبة هو يستخرج معناه من محبها!

واللغة رابطة بين النفس والمادة، وأما الابتسامة فرابطة بين الحس والقلب إنها الروح تأخذ عن روح أخرى فى حالة من الحالات النفسية الخالقة، تحول كل شىء إلى لغة حتى اللحم الدم.

ورب ابتسامة على شفتى حبيبة هى خطاب لكل حواس محبها.

عندما تبتسمين أشعر بحرارة أفكارك فى دمى..

وفى تضرج وجنتيك لا أدرى احمرارًا ولا خجلا ولا حياء، بل أرى قلبك يتكلم بلون خديك!

إن للقلب أربع لغات يتكلم بها: واحدة منهن بالألوان فى الوجه والثانية بالدلال فى الجسم، والثالثة فى النظر بالمعانى، والأخيرة، وهي أسهلهن وأبلغهن. يتكلم بكل ذلك فى ابتسامه.

ومع ابتسامه الحب يأبى فم الحبيب أن يلفظ كلمه لا يقبلها فم حبيبه يالها فكرة ملائكية معلقة على فم...!

obeikandl.com

جواب الزهرة الذابلة

" وتلقى منها ذات يوم كتابًا، فلما فض غلافه لم يجد فيه إلا زهرة ذابلة فكتب إليها".

قرأت يا حبيبتى هذا الكتاب الذى لم تكتبيه... وتسمت شفتاى ذلك السر الذى فيه" وكدت أقول إنها هى نسمات عطرها سحرتها فى هذه الأوراق بسحرها، ولكنى تأملت الأوراق الذابلة فخيل إلى من ذواها وطيبها، أنها أجسام قبلات حارة احترقت على شفتى حبيبها...!

وفهمت من العطر أن الرسالة مكاشفة بالحب أو مناسمة: ولكنى فهمت من الذبول أنها معاتبة فى الحب أو مخاصمة!

وقالت لى الزهرة يا حبيبى:

"بل أنا كوكب عطر من يدها الجميلة فى فلك زهرى غض، ثم انتثرت من فلكى وذبلت لأنى انتثرت من فلكى...!

وقد نشأت فى روضتى على أملود ناعم ريان، فلما صرت فى أناملها على أغصان اللحم والدم فى روضة الجمال، أحسست أنى بت قلبًا يحب ويعشق ومرضت لأنى بت قلبا يحب ويعشق...؟

"وكنت أنفح بالعطر والشذى الفياح، فلما لمستنى شفتاها لمسة عدت أفوح بالحب، وهجرتنى لأنى عدت أفوح بالحب...

"وكنت تمثال النشوة والفرح: فلما رفت بى على خدها رفتين، صرت تمثال السكر والعربدة، واطرحتى لأنى تمثال السكر والعربدة...

"وكنت بملء النضرة أفيض منها على الكون فلما وضعتنى ساعة على صدرها التهبت كشعلة هوى، ونبذتنى لما أحست بى على صدرها كشعلة هوى..."

وقلت للزهرة يا حبيبتى:

إنما أنت كلمة أيتها الزهرة الذابلة، وما ذبولك إلا سحابة على نور معنى من المعانى.

أفمن لغة القبلة أنت، وقد جئت رسالة من شفتيها إلى فانكمشت من حياء وخفر؟

أم من لغة الابتسام، وقد جئت تحية من وجهها وفيك ذلك المعنى من غموض الدلال، فأنت موجهة إلىّ ولست موجهة إلىّ؟

أم أنت من لغة اللمس، وقد جئت سلامًا من يدها وهذا التجعيد فيك شدة حب وضغطة شوق؟

أم أنت من لغة النظر، وقد جئت ذابلة متناعسة لأن فيك نظرة من غرامها تنظر ولا تنظر؟

أم أنت من مادة العناق وقد جئت هالكة ضمًا من انطباق صدرين تحتها زلزلتا قلبين ترجفان؟

أم أنت...؟ آه؟ أم أنت من لغة النسيان، وجئت رسالة هجر منها، وهذا الذبول الذى فيك هو مرض الجفاء ترسله إلى قلبى؟

ولكن ماذا قلت أنت للزهرة يا حبيبتى؟

أما إنك قلت لها: إن كتابة العطر لا تقرأ...؟

إن كلام النية لا يتكلم...!

إنى أضن عليه بكلمه...!

obeikandl.com

يالجلال..
رسالة الجاذبية

آه لو أستطيع أن أخرجها من زمانى، إننى لا أستطيع
آه لو أستطيع أن أدخلها فى حياتى، إننى لا أستطيع
قـــدرت قـدرتـهـا فـــىّ فلا أستطيع قـدرة لا أستطيع..
كل من يكذب فى الحب قدر[1] إن أطـاق الحب- والله- غدر
وصـحـيـح الـحـب حـبـه هـدر كل ما يستطيع أن لا يستطيع؟

فى عينيك يا حبيبتى سحر ظاهر بمعانيه يلقى الحب على من ينظر إليه.

أهو سر الضرورة الذى يشعرنا من معانيك الرحيمة بمعانيك القاسية؟

أم هو روح اضطراب مجهول أودعتك القدرة إياه ليخلق حولك العواطف القلبية؟

أم هو استبداد الجمال الذى خصصت به ليكون قلبك وحده فى قوة القلوب كلها؟

---

(١) المحب الصادق لا يقدر إلا على أن يحب والكاذب يقدر على ما يشاء.

أم هو ذلك المعنى الخالق الذى يفيض على جمالك تمييز جملتك البديعة فى شىء شىء وفى حسن حسن؟

أم أنت أنت وذلك السر فى عينيك معنى "أنت"؟

دائمًا يضيف وجهك إلى كلامك بلاغة إلهية:

ولو نطقت بألفاظ القوة التى تشبه أجراسها صلصلة السلاح[1] لخرجت من شفتيك متنهدة.

ولو تكلمت بأشد ألفاظ القسوة لذابت فى حلاوة شفتيك ومتى نطقت باسمى خرج من فمك سكران...

أى سر هذا الذى يجعلك على كل أحوالك تفيضين بالقوة كأنما بنيت على شكل لا يزال يجمعها فى نفسه ويبثها من نفسه؟

إنه ولا ريب طابع الجاذبية على القوة.

وأى إبداع هذا الذى يظهرك فى محاسنك مظهر كون خلق كله من الزهر، وهو جميل فى مجموعه بأجزائه وفى أجزائه بمجموعه؟

إنه ولا ريب طابع الألوهية على المعجزة.

حولك ما نحسه ولا نعرف منه إلا أنه حولك وحسب، والجو الذى أنت فيه ينعكس عن جمالك فى صورة سحرية، فلو أننى طفت العالم كله لرأيته من حولى أينما كنت، وأبصرت وجهك دائمًا أمام عينى كأنى محدود بك فى حدود مسحورة تدعك حيث أنت وتمضى معى حيث أكون!

---

(1) الأجراس: الأصوات، والصلصلة صوت وقوع السلاح بعضه على بعض.

وما الوجود إلا انسياب قوى المادة بعضها فى بعض، وفى هواك تنساب القوى من روحك فى روحى، فالأصل الذى بنى عليه الكون فى منافعه بنيت أنت عليه فى محاسنك، كأنما هو يعرض قوانينه التى تحس ولا ترى فى صورة منك تحس وترى، وتزيد على الرؤية أنها آخر حدود العشق، وعلى العشق أنها أول حدود العبادة.

أما والله لو ناديتك بغير اسمك ياحبيبتى لما وضعت لك إلا اسمًا من معانيك، ولو سميتك بهذه المعانى لما ناديتك إلا بهذا الاسم العظيم: يانسوية العالم...!

نارية فى غير نار! آه من يفهم هذا؟ ولكنى أحسه منك حتى لا أرى جسمك إلا مضيئًا مشتعلًا بالشباب والجمال، وتالله إنى لأحسبك فى بعض سبحاتى نارًا مدمرة كأنك تقذفين على قلبى منفجرة، فيه ويشيد بى الوجدوأضيق فما أظن الحب إلا عداوة ساخرة تهزأ بالناس فتجيئهم متلطفة فى غير أسلوبها وعلى غير طريقتها ومن غير أهلها، من الحبيب... من الحبيب على أنها عداوة...!

أتلك يا قلبى نار وتدمير وعداوة؟ أم أنت ترتجف من جاذبيتها على زلزلة لا تهدأ ولا تقر ولابد لها أن تتم عملها بطريقتها العنيفة؟ إن فيها حركة الجذب، وإن فىَّ حركة المقاومة، فأنا المتألم بطبيعتى لأن انجذابى إليها إن هو إلا اصطدام معانىَّ بمعانيها، واندفاع ما يتحطم إلى ما يحطمه ولكن يالها من عجيبة، إن هذه هى بعينها لذة الحب، إذ كان تحطيمه فينا هو تغييره فينا، وبذلك يجدّد الحياة، أيامها وأشياءها ومعانيها ويضع فى كل أمر غرامًا، ويجعل لكل شىء عينًا كحيلة...

وراءك يا حبيبتى فكرة مختفية كأنك أنت عملها على حين كأنما هى من عملك. أيكما يا ترى الخطر المستور بجماله؟

مع جاذبية الألوان والعطور فى ثيابك وحلاك جاذبيه أعطرك وأزهى فى ملبس معانيك من العواطف، وفى ملبس روحك من الدلال ولا يعدلك فى هذه الفتنة الكاسية إلا السماء فى فتنتها للرجال الإلهيين، حين تليس حرائقها من شفق الصبح.

يا للجلال! إذ تفسر الطبيعة نفسها الغامضة بامرأة جميلة، لتحقق بها فى النفس العاشقة وهم الكمال الإنسانى المستحيل الذى يخيل لها اندماج الكون بجلاله العظيم فى ذاتية إنسانية، ذاتية المحبوب المخلوقة على مساواة وتقدير من محبها لتجذبه وتفتنه، فتخرج به من حكم عقله فتنفذ أقدارها فى أقداره، فتعقد على أطراف حياته بعقدة عاطفية واحدة تستطيع بها تلك المرأة أن تهزه من كل نواحيه بأيسر لمسة؟

إنما الكون كهربائية، ولا بد فى الكهربائية من سلب وإيجاب فمن يدرى لعل كل متحابين هما مظهر كهربائى لا يحوطهما إلا جو النفس المحترقة تشعل بالضحكات كما تلتهب بالدموع؛ لأن هذه وهذه مادة حب ساطعة فى مظهرين؛ كاللهب؛ تكون فيه مرة شدة الانبعاث فكأنما يضحك، ومرة فترة الانطفاء فكأنما يبكى، ويقع الإيجاب فى السلب فيحدث الحب. ويحدث فتكون الجاذبية، وتكون فإذا إنسان يعانيه قد احتل إنسانًا فى مادته فتتفاعل أجزاؤهما، فلن يكون الحب، والبغض منهما إلا فوق الاعتدال، إذ فى واحد تتهارب أجزاء من أجزاء، وفى الآخر يفنى بعضها فى بعضها.

إنما هى قوة تلبست الصورة لتعمل بها عملا فى نفسها، وتدل بها دلالة فى غيرها، فحبى المخلص الشديد معناه فيك أنت الحسن الخالص الفاتن، وتفكيرى فى محاسنك معناه فى أنا: خلق لغة الأشياء الجميله ليتصل عقلى بحقيقتها.

وإحساسى بك وحدك معناه فى الوجود إحساسى بجماله كله.

والآن وأنا أكتب إليك. تتمثلين لى فأرى تقاسيم الحسن فيك فأقول: وما هذه التقاسيم البديعة؟

ألا رفقًا بالقلب الذى أجابنى إنها تركيب المغناطيس الغرامى وتوزيعه فى أماكنه على هندسة الجاذبية: رفقا بالقلب الذى تلمسينه من جاذبيتك بالنظرة والكلمة والفكرة كأنه حولك لأنك حوله..! بالوحى، والخيال، والحسن:

من أجل الإبداع؟ والسمو، والحب.

أنت فى نفسك، وأنت فى معانيك، وأنت فىّ!

الأشواق

هأنا ذا يا حبيبتى أجلس لكتاب الشوق، وفى يدى القلم، ومعانيك قريبة تكاد تحس وتلمس على تباعد ما بيننا، لأن كل مافيك هو فى قلبى.

وهذه عينك الظاهرة دائمًا بمظهر استفهام عن شىء، لأن وراءها نفسًا متعنتة تأبى أن ترضى. أو حائرة لا تكفيها معرفة، أو غامضة تريد أن لا تفسر، أو على الحقيقة لأن وراءها نفسها فيها التعنت والحيرة والغموض، إذ عرفت أنها معشوقة.

هذه عينك من وراء البعد تلقى على نظرات استفامها فتدع كل ما حولى من الأشياء مسائل تطلب جوابها من حضورك ومرآك لا غير وبذلك يهفو إليك القلب بأشواق لا تزال تتوافى، فلا تبرح تتجدد، فهى لا تهدأ ولا تسكن، وكأن غيابك سلب الأشياء فى نفسى حالة عقلية كانت لها، كما سلبنى أنا حالة قلبية.

وآه من تباريح الحب! إنها لوحوش من الأحزان ثائرة، فكل راجفة من رواجف الصدر[1] كأنها من حر الشوق ضربة مخلب على القلب؟

الشوق؟ ما الشوق إلا صاعقة تنشئها كهرباءة الحب فى سحاب الدم يمور ويضطرب ويصدم بعضه بعضا من الغليان، فيرجف فيه حين الرعد القلبى يتردد صوته آه آه آه...!

---

(١) رواجف الصدر هنا: كناية عن الخواطر الغرامية التى يضرب لها القلب العاشق

والآن يا حبيبتى ألقت عينك الساحرة علىّ نظرة استفهام أخرى بالصبابة ورقة الشوق، فأحسست بروحى كالغصن المخضر أثقله الزهر وقد طفقت أزهاره تتفتح وتسلم النسيم ودائع الجنة من نفحاتها وتسليماتها عليك.

وأشعر بالقلم فى يدى، وكأن له شأنا مع الكلمات التى أكتبها إليك، فهو يخطها حرفًا حرفًا، ويقبلها كذلك حرفًا حرفًا!.. وكأنه الساعة ذو هيئة إنسانية (الريشة) التى فيه تمتد إلى الكلام امتداد الشفة الظمأى بالقبلات الكثيرة المخبوءة فيها!

وأشعر بالقرطاس وكأنه قد علم أن سيحمل أشواقى وأسرار قلبى فلا يعد صحيفة ورق تموج بالألفاظ بل صحيفة صدر ملأها جو من التنهد آه آه آه.

وبظرة استفهام أخرى من عينك أشعر بحقيقتك النسوية من حولى حافة بى، فمرتجة فى صدرى، فملقية على قلبى المسكين من كل خطر، شوق لسعة ألم:

نعم إنك يا حبيبتى ترسلين الأنوار فى هذا القلب، غير أنها لم تكن أنوارًا إلا من أنها شعل مضطرمة، والمحب الذى يضيئه عشقه ويظهر للجمال، وجوده الغرامى، إنما ينيره احتراقه وفناء وجوده الذاتى، كل قدر من النور بقدر مضاعف من الاحتراق.

وكذلك البطل العظيم فى الحرب: تنهش من لحمه السيوف ويثقب فى عظامه الرصاص، وما مزقه الموت بهذه ولا بتلك، ولكن مزقه مجده!

أما إنك يا حبيبتى لو ضربتنى بسيف لقتلتنى قتلة معطرة!

أما إنك يا حبيبتى لو ضربتنى بسيف لما كنت قد زدتْ بسيفك وضربتك على أن تكوني خلقت الحس فى نظرة قاسية من نظرات عينيك.

وهكذا علمتنى حقيقتك أن الحب إن هو إلا تفسير كل شىء فى العالم تفسيرًا من القلب!

أنت ممزوجة بآلامى، وآلامى منك هى أشواقى، وأشواقى إليك هى أفكارى، وأفكارى فيك هى معانيك فى نفسى، ومعانيك هى الحب، ولكن ما هو الحب إلا أن يكون آلامى وأشواقى وأفكارى ومعانيك فى نفسى؟

ولروحك أنفاس تناسمنى[1] فأستنشقها مهما انصدعت المسافات بيننا، كأن ماملأ النفس يملأ الكون، فمن شعورى الدائم بانسكاب روحك فى روحى ينبعث غرامى ويرصد بهواك لى فى منفذ كل معنى إلى نفسى، ومن هذا تنبعث أشواقى الحزينة ما دمت لا أراك. وإذا كان الغرام هو سكر الروح بالروح، فما الشوق إلا التمرد العنيف من حواس الجسم المحب إذا حرم أن يسكر بالجسم الذى يحبه.

فى بعدك لا أشعر بالزمن يفنى من الساعات والأيام، بل منى ومن حياتى، فأنا فى بعدك أذوب، أذوب فناء، أى أذوب شوقًا، وأفنى صبرًا وعمرًا بين كل ساعة وساعة!

وفى الحياة يفنى الوقت ذاهبًا فيما نحن بسبيله من واجباتها وممكناتها وتعبًا بها وقتًا وراحتنا فيها وقتًا آخر، فكأنه لا يمسنا نحن بل يمس أعمالنا، فنحمله بذلك ونطيقه على ذلك ولا نحس أننا نموت فيه يوما بعد يوم، بل نشعر بالحياة تبدأ فينا ولا تزال تبدأ، أما فى الحب على امتناع الحبيب أو هجرة أو فراقه، فحاضرنا هو الماضى ويومنا هو أمس،

---

(١) أى أجد نسيمها كأنها بمحضر منى، وقد مر تفسيرها فى المقدمة.

إذ لا تزيد فيما يكون إلا مراجعة ما كان فيقع الزمن على قلوبنا ويعتمل فيها ويأخذ منها ولا نشعر به إلا موتًا فى صورة حياة ممتعة علينا ومن ثم ثائرة كلهفة الشوق إلى الحياة من مريض وقذه المرض ورس على جسده السقم[1] فمات أكثره وبقيت منه البقية الذاهبة نفسًا فى نفس، ويشعر بالموت يبدأ فيه ولا يزال يبدأ!

يارحمة للمشتاق حين يكون فيما حوله وهو بعيد عنه، وقد يتكلم بالكلمة وهو مسيرة شهر من معناها...[2] ويعيش فى سكوت ملأته أرواح ألفاظ محبوبة تريد بما وسعه أن تتكلم ولا يمكن أن تتكلم، إذ الفم الجميل الذى ينطقها بعيد فى وديعة النوى، ويروى أنه هو وحبيبه ناحية فكرية من نواحى الدنيا بعيدة عن الناس والأشياء، كأنهما معتكفان فى عزلة، ومع ذلك فالحبيب عنه بعيد، فكأنما المسكين غريب فى دنياه وفكره معًا، ويحس الآلام لا تنتهى، إذ كانت هى أشواقه الدائمة الحنين إلى من يهواه، فالألم دائمًا فيه يبدأ ولا يزال يبدأ!

ومن كل ذلك فأشواقى لك يا حبيبتى دائمًا تبدأ ولا تزال تبدأ، أنها دائما فى أولها!

آه ما هذه الأفكار الحزينة التى جاءت تبحث عن دموعى. وما هذا المعنى النارى الذى يطير فى دمى.

وما هذا الرعد القلبى الراجف يتردد صوته: آه آه آه...

---

(١) أضناه المرض وثبت على جسده.

(٢) يريد أنه ذاهل، أو أن كل كلامه يكون على حبيبته وهى بعيدة عنه، أو أن مركز معاني المحب لم يعد فيه هو، بل فى حبيبته، فالحوادث ليست عنده على نسبة من حقائقها السارة أو المؤلمة، بل السرور والألم على نسبة بعده هو أو قربه من حبيبته أو رضاها وهذا كله يكون من تخليط الحب، فسيأتى مثل هذا المعنى على وجه آخر.

كتاب رضا

كتابها قد جاءنى حاملًا ... لقلبى الخفاق قلبًا خفق

والتمعت فيه نجوم المنى ... فى أسطر مثل سواد الغسق

وأعرف القبلة فى موضع ... يلوح لى كالزهر لا كالورق

وكم به سطر إلى آخر ... كالصدر للصدر دنا فاعتنق!

وكم به معنى أنام الجوى ... وكم به معنى أتى بالأرق!

سألته كيف رأى وجهها؟ ... فقال: جل الله فيما خلق

قلت: وذاك الخد لما استحى؟ ... فقال: مثل الفجر فيه الشفق

قلت: وذاك الثغر ما أمره؟ ... فقال: لما ذكرتك "انطبق"[1]

يا ثغرها، فيك نسيم الندى ... فكيف قلبى فى نداك احترق؟

---

(1) كأنها تقبل اسمه حين ذكرته.

قلت: وانظر التعليق فى ص١٠٩ من كتاب "رسائل الأحزان".

رواية القلم...

أشعر أحيانًا أيتها الحبيبة أن لقلمى على خلافًا، وكأن فيه عاطفة ترميه بنوازعها، فهو يجاذبنى نفسه لا يريد أن يكون فى بنانى ولا أن يقر معى.

وهو الساعة مرتبك متبلد تمشى به يدى وكأنها الشيخ المتهدم الفانى يدعم على عصًا[1] يراه الناظر إليه مترجرجًا فيحسبه يرتعش ولا يمشى.

وإن يكن بهذا القلم شىء منى فما به إلا الضجر مما يمليه قلبى الذى يهابك فى رسائله كما يهابك فى حبه، فيقذف لقلمى بالكلمة من الكلام يكتبها عنه وإن القلب فى ذات نفسه ليزمزم[2] بمعنى ليس فى هذه الكلمة، بل فى كلمة غيرها قد أخفاها وضمر عليها.

أحسب قلمى يا حبيبتى لا يتمنى إلا أن يكتب بغير يدى على أن لا تكون الرسالة يا ذات قلبى إلا من قلبى أنا، وهذا معنى لو كشفته لكان هكذا.

يود قلمى أن يكون فى يدك أنت ليكتب بيدك إلى... كأنه يعقل ويتلو معى رسائلك ويعرف أنك دائمًا هاربة... ويتلهف مثلى على كلمة مقبلة[3].

وهبيه الآن فى يدك الرخصة الناعمة التى أودع الله فيها سر ثمرة من

---

(١) أى يقوم بها كأنها دعامة

(٢) الزمزمة: صوت خفي لا يكاد يفهم.

(٣) الكلمة المقبلة: المخصبة من المعني الذى يحبه: والمدبرة: المجدبة.

أحلى وأنضر ثمار الجنة فتذاق منها حلاوة الجنة بالتقبيل، إنه يلمسك... إنه تحت أنفاسك يرتقب كلام شفتيك... وربما فكرت قليلا فأطرقت إطراقة فلمست به خديك. وربما أغمضت عينيك ليسعدك فكرك العميق بأسلوب مقلوب... فإذا أنت فى ذلك قد الصقت القلم بشفتيك ولبثت ساكنة ولبث ساكنًا...!

ويك يا قلمى الخبيث! أتريد أن تدعنى... لكأنك والله نفس معلقة فى أصابعى تحب وتشتاق!

وماذا عسى أن يكتب إلى قلمى وهو ذاهل فى راحتك، سكران من أنفاسك، مضعضع من لمسة خديك، مترفع على الوجود كله بموضعه من شفتيك، وهو كالميت من إفراط هذه الحياة كلها عليه؟

أحسبه يكتب إلى من يدك هذه الرسالة:

"سيدى الأستاذ الفيلسوف"..

"لم يخالجنى الريب قط فى أنك من نزعاتك الروحانية ومن ذهولك الربانى كأنك فى جو كوكب... لا فى جسم إنسان، وكأن عناصرك المطهرة قد أنضجها اللهب القلبى الذى يحرق الإنسان ورغائبه وأهواءه فى شعلة متقدة تفنى منه شكله الأدنى لتوجد منه شكله الأسمى وتدعه ذؤابة نور ترتعش.

"وإن الساعة التى قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرنى بأنها من غير هذا الزمن، فكأنها خلقت لى تأتينى مع بريد من الملائكة حين يوافى البريد بكتابك".

"وتالله أن كتابك يا سيدى لزهرة من روحك تحيتها عندى فى تأملها والإعجاب بها، أما بلاغته فبالله أحلف صادقة ما رأيت أكمل منك لسان

قلم.. ولا أذكى مع هذا القلم.. قوة طبع، ولا أبلغ طبيعة نفس، لكأن قلمك... مهبط إشعاع تلتقى إليه سبحات روح الجمال المنبثة المالئة هذا الوجود مما بين أزهار الأرض، إلى كواكب الفلك إلى حدود الحور فى مقاصير الخلد.

"وسألتنى اللقاء ولكن قلمك.. ساحر قدير فهو يستطيع أن يحملك إلىّ دائمًا فى رسائلك البليغة، ولو شاء هذا القلم الساحر... لجعل من الصحيفة روضا يفرشه تحت أقدامنا نثار الورد[1] وقد جلسنا فيه تحت خيمة من الندى مطرزة بشقق عريضة من حرير الشمس، ونلتقى وإن كنا لم نلتق!

"وأها لقلمك... يا سيدى واها؟ وسلمت للمعجبة بآيات هذا القلم المعجز..."

على أن هذا القلم الخبيث لو استملى من نشوته وسكره هذا الكلام المعربد فى قلبى وركب ذلك الفن من الغيرة وأخذته هذه الرجفة وكتب إلى بيدك تلك الرسالة لقرأتها أنا هكذا:

"يا من أنا سيدته!

"لم يخالجنى الريب قط فى أنك- من حبك- نفس تحترق بذاتها كالكواكب، فعناصرك الملتهبة تلفنا معا فى شعلة غرام تفنى منا شكلين لتوجدهما فى الحب شكلًا واحدًا، وتدعه كذؤابتى نور معتنقين.

"وإن الساعة التى قرأت كتابك فيها لتكاد تشعرنى أنها منك أنت لا من الزمن، لأحيا فيك وأنا أقرؤك.

---

(١) نثار الورد: ما تناثر منه فى المجلس وحين ينتثر فى المجلس يسمى الجلسان (بضم الجيم وسكون اللام).

"وإن كتابك لمن روح أيها الحبيب لا من كلام؛ فإنى لما نشرته فى يدى أحسست كأنه غمز يدى.

"أما بلاغته فبالله أحلف صادقة لقد نقل إلىّ الكلمة التى لم تكتبها وسألتنى اللقاء.....

آه ما بالك جمدت الآن أيها القلم الخبيث وقطع بك؟ فكأنك تغار حتى من موعد مزور...!

هذه يا حبيبتى رواية قلمى فما رواية قلمك؟

إنك لتنظرين إلىّ نظرات ناعمة من ذلك النظر الرطب فأجد لها مسًّا كمس يد الحبيبة الفاتنة؛ فلماذا لا تكتبينها؟

وتبسمين أحيانًا ابتسامات معنوية تهرب إلىّ فيها بعض قبلاتك، فلماذا لا تكتبينها؟

وأرى على نور قلبى أحرفًا مختبئة فى قلبك هى: ألف، حاء، باء، كاف فهل تكتبينها..؟

نار الكلمة

تقولين فى كتابك أيتها الحبيبة. ولعمرى إنى لأستحس وهجًا من حرارة الجذوة التى فى قلبك، وأشعر به ومن بينى وبينك عرض المشرق[1] ولقد عرفت هذه النار وآمنت بما قلته لى مرة من أنها اتصال الشعاع الأزلى بالقلب الإنسانى ملطفًا فى وسيلة إنسانية، مخففًا بجمال، مزخرفا بلذة، معبأ برغبات كثيرة كيلا يمحق محقه الذى كان أخفه وأيسره أن تجلى للجبل فجعله دكا[2]، لكن أيها الصديق...

ولكن بأية نار تشعل ألفاظ رسائلك؟ وكيف ينبض القلم فى يدك هذه النبضات الحية المتمثلة حتى ما يخالجنى شك فى أنه لو وضع على كتابك ميزان الحرارة لجاءت درجته فى حرارة قلب؟

أتجهلين...؟ يا بعد ذلك!

أتعرفين...؟ يا حب ذلك!

إنما تأتى رسائلى أيتها العزيزة من تحول الكهربائية التى فى قلبى إلى ألفاظ، إذ يدفعها الشوق أن تكون عملًا منى بعد أن كانت عملًا منك

---

(١) يعرف القارىء من «رسائل الأحزان» أن صاحبة هذه الرسائل سورية

(٢) كأن الحب إحساس فى الروح بشعاع أزلى، ولكن هذا الشعاع ملطف فى وجه جميل ومعان جميلة، ولولا ذلك لأهلك وانفجر به القلب من ساعته وفى قصة موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۖ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗا﴾.

وهى كالنور، لا يرى حتى يلبس ما يرى فيه، فتلبس الكهربائية ألفاظى وتتراءى.

وإنما تأتى المعانى التى أبدعها فيك من تلك العواطف التى تخلقينها أنت فىّ، وكما لا ينطق فم الإنسان من شفة واحدة: فكذلك لابد للحب من اثنين ليتكلم فم الحقيقة بكلام الحب!

وما أكتب لك حرفا حتى أراك قبل فى مرآة نفسى، وأتمثلنى فى مرآة نفسك، ثم أضع بيننا مرآة اللغة فتعكس منى ومنك أجزاءً وصورًا تكون هى كلماتى.

ولو رأيتنى وأنا أتلو رسائلك؛ لرأيت أنك لا تكتبين لى كلامًا، بل تزرعين فى الورق زهر أنفاسك فيأتينى فأقرؤه. أى أقطفه... وبهذه الطريقة أكتب كلماتى، أى أزرع تنهداتى يا حبيبتى؟

والخائف من شىء يرى لاسمه بعض عمله من تأثير الخوف على أعصابه، فاسم الثعبان عند من لدغ مرة هو لفظ كالإبرة يمس مكان اللدغة؛ كلمة الذئب تعض... وكلمات الحب يا حبيبتى تتألم.

لست أشعل ألفاظى ولا ينبض القلم فى يدى نبضات حية، ولكن هذا وذلك غليان دمى على أربع نيران، هى خيال، وغرامى، والفكر النارى الذى هو أنت والجمال الذى أحمى على شبابك حتى بلغ درجة الاحمرار فى خديك وشفتيك!

هو الوجد، ذلك الوجد الذى يوحى لكل عاشق بأنه إن امتنع على الفم أن يلقى فى القبلة أنفاسه الحرى على وجه الحبيب، فليقابل وجهه بألفاظه الحارة فى رسالة...

هو الجمال، ذلك الجمال الذى يريد التعبير عن نفسه تعبيرًا صادقًا

حيًا، فيتخذ العاشق هيئة فكر مثقلة بالآلام وتباريح الصبابة والشعر والخيال عاليًا عاليًا إلى الحكمة، أو نازلًا نازلًا إلى الرذيلة، أو هالكًا هالكًا إلى الجنون!

إنما أضرب على أوتار نفسك ألمسها بأفكاري ونظراتي وأشواقي، وبأفراح المعرفة الغرامية وآلامها، وأخرج من ذلك أنغام حبي التي هي رسائلي!

وإذا كنت أنا المتكلم فمعنى ذلك أنك أنت المتكلمة بي، وفنك يا موسيقى الجمال هو في تركيبك الجميل وانطوائك به على أسرارك، ولكن فني إنما هو في لمساتي عنفًا ورقة[1]، وكلماتي كالأزهار تخلق فيها مادة ألوانها وأعطارها وديباجها، لأن أرواح أغراسها تنكسب فيها، وحين يلقى الشعاع كلمته الغرامية في قلب كل شجرة من ذوات الزهر، تفكر الشجرة مدة ثم تزهر وتتفتح، أي تجيب بأسلوب نسائي في ظرف ورقة ولون وعطر وحرير وتبرج.

ولست أشك أن الجمال في هذا الوجود مظهر مؤنث، حتى إن معرفة الأسد[2] لتظهر كشعر امرأة... ومن ذلك ما تبدو الأشياء الجميلة في خيال العاشق المتدله كأنما في كل نظرة أنثى... أنثى جعلت قلبها نحوه[3].

إن لم تغلبي على الكون يا حبيبتي فقد غلبت على نظرتي إليه! فكل جمال في الكون هو رسالة منك إلي، وبذلك أصبحت للعالم خلقه أخرى

---

(١) الحبيبة كأداة من أدوات الموسيقى، ففنها في تركيبها الخاص ولكن فن العازف في لمساته إياها رقة وعنفًا وما بينهما.

(٢) شعر رأسه.

(٣) أي مالت إليه بقلبها وأقبلت عليه.

فى مخيلتى، عليها أثرك الغرامى، وكأنما نحن عنصران منبثان فى كل ما حولنا فما نمس شيئًا أو ننظر شيئًا إلا وضعنا فيه روحانية القلب.

ولن يكون الحب عشقًا ما لم يرتفع بالنفس عن ذاتها، ولا تسمو النفس عن ذاتها مالم يعل نظرها إلى الأشياء، والنظر الإنسانى لا يعلو بشىء إلا إذا ألبسه معناه الإلهى.

أيكون الحب تنقيحًا فى معانى الكون بالنفس وخيالاتها، أم فى معانى النفس بالكون وحقائقه، أم كليهما؟

أم إنى لأستروح أنفاسك وقد ناسمتنى كرويحة الفجر عذبة باردة فما تزيدنى إلا ضراما، كأنما تهب منى على جمرة ذاكية. ولا يكون الشعور بالحب ناريًا ما لم يكن الحب نفسه مزجا للنفس العاشقة بالكهربائية السارية فى الكون، المالئة لنواحيه وأطرافه، النابضة بكل ما فيه.

وإذا كان هو الشأن فالوجود مقفل حتى تفتحه للرجل امرأة ويفتحه للمرأة رجل، ولا تزال معانى جماله فى قناعها، وزخارف حلاه فى أستارها، كمتاع القصر من وراء باب القصرالمقفل على ما فيه، حتى يدور فى قفل الكون مفتاح الحب.

النهار يفتح بالشمس، والليل يفتتح بالكواكب، وأما الحب فلم يفتح إلا بوجهك يا حبيبتى.

والشمس والكواكب نار؛ ولكنها على الدنيا نور، أما وجهك فنور، ولكنه على قلبي نار!

أتجهلين...؟

أتعرفين...؟

المتوحشة...!

"وكان يومًا فى مجلسها فامتد بينهما كلام قالت له فى آخره: أنت «متوحش» وقال لها، وأنت «متوحشة»: فلما ندر من مجلسها ذهب فكتب إليها هذه الرسالة":

ماذا أقول فى «متوحشتى» الجميلة: وما ظهرت منها على عيب أعيبها به إلا رأيته عند نفسى شكلًا جديدًا من أشكال جمالها، أو فنًا بدعًا فيما حنيت عليه ضلوعى من هواها، إذ ليس بينى وبينها حدود تجعل منها ألفاظ النقد حدودًا لمعانيها، بل كل ما فيها من أشياء قلبى ولو قالت لى:"أكرهك" لما وقفت الكلمة عند هذا الحد، لأنها من أشياء قلبى، فيكون معناها: أكرهك لأنى مكرهة أن أحبك، أكرهك لأنك أخضعتنى وجعلتنى مكرهة أن أحبك، أكرهك لأن كلمة "أكرهك" هى التى أظن أنها تخفى أمام نفسك تواضعى لك فى نفسى!

ووالله خالق الجنة والنار، لو كان فى سواء الجحيم[1] غرفة من الجنة بنعيمها وزينتها، أو كان فى سرارة الجنة[2] قاع من جهنم بعذابه وآلامه- لكانا معًا أشبه بما أجد منك، فإن حبك لذة من لذات الجنة، ولكنه يتضرم فنونًا على قلبى. وإن الشوق إليك عذاب كالنار ولكنه ينفض من الأمل على روحى: مثل الطلل والندى.

---

(١) فى وسط الجحيم.

(٢) سرارة المكان: وسطه.

إلا إنه ليس فى الحب نصف حب أبدًا، فليس فى الحبيب أبدًا إلا كل الجمال، فليس معانى الجميل إلا أنها كلها جميلة.

والوجه الذى نعشقه هو من كل ما خلق الله الوجه الموسيقى الذى لا ينسجم غيره ولا يتطابق مع فن الروح فى عاشقه: فإن أطرب أو أشجى[1] فبلذة أشجى وبلذة أطرب.

وإن لمست يد الحبيب بأناملها لمسة حب، فهى يد الحبيب أفلا تكون هى بعينيها يد الحبيب, إن قرصت بأظافرها قرصة حب...؟

قلت أيتها الحبيبة إنى (متوحش) فإنى كذلك، وإنى لمتسعر الدم من حبك بفظاعة تجعله كأنه دم وحش فائر تتنزى به نوازيه للوثبة، ولن يكون الحب القوى إلا متوحشًا لأنه ثورة قذفت فى الدم الإنسانى فيرتج فيه تاريخ القتال الوحشى الذى ينام فى دمنا من إرث أجدادنا، فإذا معركة مرسومة لامتلاك الحبيب لم يصنع فيها العاشق أكثر مما يصنع القائد إذا نشر خريطة حرب كانت عنده مطوية.

ومن العجب أن هذا الوحش النائم فى الدم لا ينبهه إلا أجفى المعانى وأغلظها فى سورة الغضب وجنون الغيظ، أو ألطف المعانى وأرقها فى جمال الحب وخلاعة الجمال.

فالعاشق الرقيق على فرط رقته، هو لفرط رقته وحش فى عاطفة الحب: ما منه فكر لو فتش عن معنى يفترس إذ يشعر بالحياة فى نفسه لاغذاء لها إلا بمعانى حبيبته، فيأكلها حتى بالنظر ويفترسها حتى بالخاطر!

---

(١) الشجى: خاص بالنغم المحزن لا كما يستعمله الناس من قولهم: الأنغام المشجية وهم يريدون المطربة.

ولو أننا تمثلنا أسدًا غرثان يطوى البر أيامًا وهو يهفو على أثر خيال من أخيله جوفه ولكنه لا يجد الفريسة، حتى إذا انصفق جنبه على جنبه الآخر من الجوع فتقت له الهواء رائحة ظبية من قريب ثم تمثلنا مع هذه الصورة عاشقًا مجفوا نالته نسمة من قبل حبيبته أو نفحته رويحة من عطرها ثم ترجمنا ما أفز الأسد من معانى الظبية إلى ترجمة إنسانية، لكانت وحشية الليث فى هذه الحالة هى بصورتها لهفة العاشق ولوعته، إلا أن ذلك معنى فى وحش وهذا معنى فى إنسان.

ويخيل إلى أن محبًا لو قبل حبيبته بتلك اللهفة، أى بتلك الوحشية، لجاز لها أن تتهمه قانونًا بتهمة الشروع فى أكلها[1].

وقلت لك: أنت «متوحشة»، وإنك لعلى ذلك، فإن جمالك لهو أرق الوحشية وأدقها وأخفاها، ولا برهان لى عليك إلا أنك دائمًا تساورينى فى قلبى مساورة ظهرت فى قلبى جراحاتها... وعلى كبدى منها الصوادع[2].

ولك صولة على وحشية وأنت بها غالبة أبدًا، حتى لا أستطيع فى مغالبتك أكثر من أجعل خضوعى أحيانًا فى صورة مقاومة...!

والحياة تدل بالوحش على أنها آكلة هاجمة مصممة غير رحيمة وأنها الشدة تحت مس لين، وأنها القوة الغازية معبأة فى إهاب، وأنها أسلحة قاطعة من اللحم والدم، فياليت شعرى عنك، هل دلت الحياة بجمالك الفتان إلا على رقة قاتلة، ولين مهلك، ولطف معذب. ومعان كالأسلحة فى لحمى ودمى؟

لا أثبت لك حبى إلا لتثبتى لى كبرياءك، ولا تقوم هذه الكبرياء

---

(١) فى القانون: تهمة الشروع فى القتل، وهى التى ولدت لنا هذه التهمة الظريفة.

(٢) أى ما يصدعها ويفطرها من آلام الحب.

ولا تثبت إلى بتعذيبى، والأساليب التى تخفين وراءها حبك بطبيعة الاحتراس الغريزية فيك، هى بعينها التى تعذبنى بطبيعة الجرأة التى فىّ. وما قالت امرأه مثلك عمن تهواه: إنى أحبه؛ إلا وكأنها قالت: إنى أعذبه!

ولقد تركتنى وما أظفر منك بساعة رضا إلا رأيت فى يدى معجزة وكأنى أمسكت من الزمن ساعة كانت هاربة فى الأبدية؛ يا حرة قلبي منك[1] ويا رحمتاه لكل من عشقوا.

إن الحبيبة على أنها سرور محبها وليس له عنها مذهب إلى متاع أولذة فى كل ما وسعت الدنيا، فإن سرورها هى بالمحب لا يهنئها إلا أن تراه بها معذبًا ولها صبًا وفيها مدلها[2] وقد أحرقه الوجد وأضناه التيم[3] وأهلكه حزن الهوى، إذ لا تكون عند نفسها معذبته إلا من أنها حبيبته، ولا تثبت لنفسها القدرة عليه إلى بمحق المقاومة فيه ولا تتم كبرياء أنوثتها إلا بتمام الدل عليه ولا يتأله فيها الجمال يعذب ويثيب إلا بتحقيق العبودية فيه تخاف وتطمع، فتبدع ما تبدع فى إيلامه وتعذيبه ولو تتابعت له بالسوء لأن ذلك هو عمل كبريائها وسرورها.

وقد تعذبه فى بعض دلالها أشد العذاب وهى تحبه حبًا ليس عليه صبر، كما كانت تفعل لو أنها كانت تبغضه بغضًا ليس فيه مبالاة وبذلك تجمع عليه الشبهة والحقيقة، وما أمر عذاب من وجد الضرورى له مستحيلًا عليه.

---

(١) الحرة: العذاب الموجع.

(٢) التدليه: ذهاب العقل من الهوى.

(٣) تامته وتيمته إذا استعبدته بهواها.

فأوجاع المحب وأحزانه كآلام الفريسة وأوجاعها، كلاهما بالغة السلبية فى الحبيبة والمفترس: وصف كامل لسطوة وحش...

وإنى لأحسب طبيعة الفرار التى ركبت فى المرأة[1] قد خلقت فيك أنت على الضعف، حتى لأراك دائمًا كالهاربة عنى وإن كنت إلى جانبى، وحتى إن معانى كلماتك فى الحب لتفر من كلماتك، وكأنك تحترسين بغريزة وحشية بالغة فى وحشيتها[2].

وإن حقيقتك لا تزال وراء آلاف وآلاف من ظنونى، كأنما لها هى أيضًا معنى اختباء الوحش فى ألفاف الغابة وأشجارها فإذا أنت رضيت فأيسر ما توصفين به أنك جذابة إلى حد فظيع فى التأثير، بل متوحشة فى الجاذبية والسحر والفتنة.

وإذا أنت هجرت فأحق الكلام الذى توصفين به أنك فى الهجر بلا رحمة ولا شفقة، متوحشه... متوحشه...!

(١) هذه الطبيعة من كونها أنثى، أى محل المهاجمة، ولذا فلا أسمح فى الدنيا من انعكاس هذه الطبيعة فى المرأة وانقلابها هى مهاجمة للرجل.

(٢) من أسلحة الوحش غريزة الاحتراس فيه، وكذلك هى من أسلحة المرأة والتى تعرف كيف ينبغى أن يكون الحب، تشحذ هذا السلاح وتجعله ذا حدين وتضاعف احتراسها، أو كما قالت حبيبة هذه الرسائل في بعض رسائلها التى لم تنشرها "تمشى فى كل خطواتها بالمقادير والمقاييس" فتأمل...

أما قبل

"كتبها إليها بعد أول مجلس كان لهما يصف ذلك المجلس":

لم يقولوا فى لغتنا «أما قبل» كما أقول أنا يا حبيبتى ، ولم تخطر لأحد قط ولا يصححها وجه ولا تعليل، ولكنى أضعها من أجلك، وما أشك أنها ستكون عبارة معشوقة من أثرك وأثر الحب عليها. وأقولها لك ولا ارتاب فى أن ألسنة المحبين سترمى بها فى كل زمن مراميها عند كل حبيبة.

إنها كلمة حنانة، فيها الحب والذكرى، وفيها من نفسى ومن اللغة ومنك وهى غريبة باللغة الغرابة لأنى صنعتها صنعة قلب لا صنعة لسان، ففيها الفن أى سر الحسن، أى حروف التصوير، أى المجلس الذى كان لنا أمس.

ويد المصور الملهم الحاذق لا تمر على الصورة بحركات الرسم وخطوطه، بل بحركات الفكر والقلب، ورعشات اللذة والألم، مستيفضة بالوحى الذى من لغته الخطوط والأبعاد والظلال. والألوان. فما الرسم إلا بالوجه الممكن لاتصال الإنسانى من الفكر بالإلهى فى الأشياء لخلقها مرة ثانية. وكذلك ليست «أما قبل» إلا الوجه الممكن عندى لاتصالى بأمس، وانتقال قطعة كانت من وجودنا فى وقت إلى وجودنا فى كل وقت وخلق ما كان من قبل خلقًا تصويريًا فى كلمة.

قالوا «أما بعد» وسموها فصل الخطاب[1] وأنا أقول «أما قبل» وأسميها وصل الماضى؛ وبها نجعل لما فاتنا مما نحبه أو نؤثره لسانًا، ونعيد إليه الصوت، ونفتح له باب الساعة التى نكون فيها، ونخترع للمحبين لفظًا سحريًا لم تستطع حواء بجنة خلد أن توحيه لآدم، وأوحيته أنت لى بمجلس حبك فى لحظه!

"وأما قبل"... فبماذا أصف مكانًا للحب كأنما مر به سر الخلود فإذا الوقت فيه لا يشبه نقصانًا من العمر بل زيادة عليه، وكانت يا حبيبتى كل دقيقة وثانيتها فى مجلسك الساحر كأنما بعض الفكر والحس لا بعض الزمان والمكان؟

بماذا أصف الوقت الغض الذى كان ينبت لساعته رطبا نديا كأنما انبثق من قبلتين، لأنه مر بهواء حجرتك التى أنت فيها، ثم جعلنى أعرف بعد

---

(1) للعلماء كلام كثير فى معنى «أما بعد»، وإعرابها وتوجيهها يبلغ من التحذلق أحيانا أن يكون مضحكا و «أما» عند بعضهم اسم، وعند بعضهم حرف، وإذا قيل «وبعد» قالوا و، عند بعضهم نائبة عن «أما» وهو المشهور، وعند بعضهم للاستئناف، وعند آخرين للعطف و«أما» فى «أما بعد» حرف تفصيل ولكنها فى «أما قبل» حرف توصيل ولا يجوز عندنا أن تستعمل «أما قبل» إلا فى الحب أو البغض، فهى خاصة بالتفات النفس للذة أو ألم كما لا يجوز عندنا أن يقال منها «وقبل» كما قالوا «وبعد» لأنها حينئذ لا تكون كلمة مخترعة، ولا تدل على أكثر من الظرفية، وإنما الاختراع وتمام الإشارة وتمام الظرف، فى التركيب الذى وضعناه، فليذكر كذلك فى اللغة، وليكن وضعًا جديدًا من أوضاعها لخصوص ما يحب ويكره دون غيرهما، ويجوز أن تقول «أما قبلا» بالنصب والتنوين، و«أما قبل» بالرفع والتنوين، قياسيا على ما أجازه القراء فى «أما بعد، ولكن ذلك فى كلمتنا يكون ظريفا إلى غاية الظرف بين الحبيبين.

وقال سيبويه فى «أما بعد»: إن معناها «مهما يكن من شىء» ونقول نحن فى «أما قبل» إن معناها «لقد كان ما كان...»

واختلفوا فى أول من قال: أما بعد، فقيل إنه كعب بن لؤى، وقيل بل قس بن ساعده الخطيب وهو الأقرب. ولا اختلاف فى أول من قال: أما قبل.

أن فارقتك ولقيت الناس أن الزمن قد يكون من جدبه فى أنفاس الناس حطبًا يابسًا وهشيمًا؟

وبماذا أصف مالا يوصف ولا يوجد بيانه فى اللسان مع أنه حى قائم فى العين والضمير: إذ أشعر بك فى ذلك المجلس وكأن أكثر معانيك الإنسانية تتهارب من حوله لتسبغ عليك من اللطف معانٍ ملائكيه سامية تتكلم بوجهك كلامًا هو شعر الحب؟

وإذا أشعر من شدة ما وجدت بك ووطأة حبك على قلبى أنه لو حل فى كرسيك شخص من معانيك لما كان إلا ملكًا موتزًا فى إحدى يديه قوسًا محنية من صاعقة وفى يده الإخرى سنان يمور كالشعلة، وهو يرمى ويطعن وما يرمى ويطعن إلا لحظًا وابتسامًا؟

بل بماذا أصف مالا يوصف إذا أردت بلاغتى أن تكون على مقدارك وأنت تلجين على قلبى من كل جوارحى، وأراك أمام عينى تحولًا مستمرًا فى خواطرى ومعانى، فلا أملك أن أفكر فى شىء ثابت، كأن دلالك قد سلبنى حتى قوة التحديد، ويأتى لك أن يخضع لى منك شىء ولو بالمعنى للفظ فى الذاكرة...؟

"وأما قبل"... فلقد كنت وما أحسن منك فى جملة ما أرى إلا أن الجمال الرائع فى معانيه الإنسانية إنما هو قدرة فى بعض النساء على اختراع أمثلة أرضية من الجنة.

وكنت وما أشعر من سحرك إلا أنى بإزاء سر وضعنى فى ساعة من غير الدنيا وحصرنى فيك وحدك، حتى ليس لك من نظرة ولا كلمة ولا حركة إلا خيل لى أنها لم تكن فى امرأة من قبل حتى ولا فيك أنت، وشتى بعد ذلك فرق بينهما فيك وفى كل امرأة، إذ لا تواسمك فى الحسن امرأة!

وهاجمتنى من يقظتى واقتحمت على من حذرى، وتركت بعض أفكارى من بعض كالمجروح يمشى على المقتول فى معركة، ورمتنى بما لا أجد له اسمًا إلا أنه زلزال روحى عنيف كان فى قلبى أو كأن يدًا امتدت إلى قلبى فنالته فضغطته!

وخليتنى وعينيك وخليتنى وما كتب على.

وضاعفتك رهبتك فى نفسى فكثرت وكثرت، وضاعفتنى أيضًا فزدت وزدت، حتى إن مع كل قوة فى عادت فكرة حبك قوة أخرى.

واتسعت روحى لتشملك! فما كنت تتكلمين ولا تضحكين ولا تخطرين فى غرفتك ولكن فى داخل نفسى!

وكان نور الكهرباء وهو يشع فى وجهك يغمغم أيضًا بكلمات من النور لتلك الشعل التى اضطرمت فى قلبى.

وملأت حياتى بك وعرفتنى من ذلك أنى كنت من قبل حيًا من الأحياء الفارغة...

وأشعرتنى أجمل السعادة، سعادة نسيان الوقت، كأنى فى هنيهة خلقت لى وحدى تجرى بى وبك فوق المقادير.

ثم دفعت بى إلى ما وراء السعادة، إلى منطقة الأحلام التى لا يكاد يصدق الإنسان فيها أن الحقيقى حقيقى!

ثم رفعتنى إلى حس خالق، فإذا أنا أرى كيف تخلقين فى خلق معانيك لتعود معانيك فتخلقك كما أحب وأهوى[1] وتحقق بجمالك فن عواطفى وتنشىء بعواطفى غرامى.

"أما قبل" فقد كنت موجودة معى ولكنك ضائعة فى، إذ كنا من وراء الشكل الإنسانى كالعطر والنسمة الطائفة به.

وكنت أمامى ولكنى أحتويك، وما أدرى كيف كنت مملوءًا بك وأنت أمامى؟

وكنا نتكلم ولكن ألفاظنا تتعانق ويلثم بعضها بعضًا من حيث لا تراها إلا عيناى وعيناك.

وكنت أقطف الحياة بالتنسم من هواء شفتيك، وكأن هذه الأنفاس هى فرع ممدود من شعاع الشمس فى روحى.

وتراءت النفسان فملأنا المكان بأفراح الفكر، واستفاض السرور على جمالك بمعنى كلون الزهرة النضرة، هو عطرها للنظر.

وقلت لى بجملتك: أنا...، وقلت لك بجملتى وأنا!

---

(1) أى تطابق معانيها صور الفن الكامنة فى مزاجه وروحه، فتنبه فيه هذه الصور، فكأنها خلقتها، ثم تعود الصور فتزين الحبيبة فى خياله بأهوائه فى الحقيقة لا بجمالها ولذلك قال شاعرنا (صاحب الرسائل) لحبيبته يوما فى رسالة لم تنشرها، ما أذللتنى بأنك كما أنت، بل بأنك كما أشتهى.

"وأما قبل"... فقد رأيت عندك الفجر وأخذت منه نهارًا أحمله فى روحى لا يظلم أبدًا.

وخالطت عندك الربيع وانتزعت منه حديقة خالدة النضرة فى نفسى لا تذبل أبدًا!

وجالست عندك الشباب وترك فى قلبى من لحظاته ما لا يهرم أبدًا! واجتمعت عندك بالحب وكشف لى عن مخلوقات الكون الشعرى الذى تملؤه ذاتى فلا ينقص أبدًا!

ورأيتك يا فجرى، وربيعى وشبابى، وحبى فلن أنساك أبدًا...!

و"أما قبل..."

obeikandl.com

جواب غريب

حدثنا الصديق قال: لما بعثت إليها برسالة «أما قبل» لم يكن جوابها غير أن أهدت إلى كتابًا مطبوعًا ولم تزد على أن كتبت على غلافه هذه الكلمة "أما بعد فإليك يا صديقى جواب: أما قبل، والسلام!"[1].

قال صاحبنا: فقرأت الكتاب سطوره وبين سطوره... وأعنت نفسى فى تأويل كل عبارة وتعرف سببها الذى أتخيله، وتبين موقعها الذى أتمثله، وجعلت أتوجه بالكلام مستقيما تارة وملتويًا ثم لا أجد الكلمة التى هى من جوارحى، ولا التى يقف عندها قلبى، ولا التى تقول لى أنا من لغتها، ولا الأخرى التى عليها أثر عينيها... وكنت فى كل ذلك أرى الكتاب كأنه بين يدى يموت ويحيا من كثرة ما أقول: ليست هذه بل هذه، ولكن هذه.. وجعلت لا أكاد آنس بكلمة حتى أجد الوحشة فى التى إلى جانبها، وقدرت أن الجواب ربما كان جملة قصيرة أو كلمة مفردة، فصدعنى ذلك تصديعًا ذا فنون وكأن مؤلفة الكتب كانت تعلم من علم الغيب أنها ستضرب بكتابها يومًا هذه الضربات على قلب إنسان من الناس، فكانت فى تأليف كلامها تصد وتعرض، وفى ترتيب مقالاتها كأنها ترتب ثورة غيظ من سببها إلى اهتياجها نشأتها إلى عنفوانها.

قال الصديق: ثم كأنى كنت دائما فى ليل طويل وطلعت على وجهى الشمس ضاحية، فإذا أنا كنت أجتهد فى غير طائل، وإذا الجواب فى آخر

---

(١) قلت: هو كتاب «ظلمات وأشعة»، وفى كتابنا «حياة الرافعى» زيادة بيان.

الكتاب صفحات متلاحقة، فضلا عن صفحة، فضلا عن جملة، فضلا عن كلمة؛ فكان هذا من ظرفها ومكرها معًا، انتهى.

وهذا نص الجواب[1]:

لقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم للضحك من سواهم حينًا والضحك بعضهم من بعض أحيانًا.

أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوءنى، لأنى إنما أقلدهم لأريك وجًا منى جديدًا؛ وأنت، أتجاريهم بمثل قصدى أم الهزؤ والاستخفاف فيك طوية وسجية؟

ولكن رغم انقباضى للنكتة منك والظرف؛ ورغم امتعاضى للتغافل منك والحبور، أرانى وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخلله تفاهم آخر يظهر فى لحظات الكتمان والعبوس والتأثر.

بنظرك النافذ الهادىء تذوقت غبطة من له عين ترقبه وتهتم به، فصرت ما ذكرت إلا ارتدت نفسى بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم، متمنية أن أنثر الخير والسعادة على جميع الخلائق.

لى بك ثقة موثقة، وقلبى الفتى يفيض دموعًا: سأفزع إلى رحمتك عند إخفاق الأمانى، وأبثك شكوى أحزانى، أنا التى ترانى طروبة طيارة وأحصى لك الأثقال التى قوست كتفى وحنت رأسى منذ فجر أيامى أنا أسير محفوفة بجناحين متوجة بأكاليل!

وسأدعوك أبى وأمى، متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الأمر وسأدعوك قومى وعشيرتى، أنا التى أعلم أن هؤلاء ليسوا دواما بالمحبين

---

(1) لا تحسب هذه الرسالة من كتابتنا لأنها اقتباس ولولا السبب الظريف الذى جاءت به لاطرحناها، على أن معانيها من أحسن ما تكتبه إمرأة.

وسأدعوك أخى وصديقى"أنا التى لا أخ لى ولا صديق، وسأطلعك على ضعفى، واحتياجى إلى المعونة، أنا التى تتخيل فى قوة الأبطال ومناعة الصناديد!

وسأبين لك افتقارى إلى العطف والحنان، ثم أبكى أمامك وأنت لا تدرى وسأطلب منك الرأى والنصيحة عند ارتباك فكرى واشتباك السبل، وإذ أسىء التصرف وأرتكب ذنبًا "سأسير إليك متواضعة واجفة فى انتظار التعنيف والعقوبة، وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك على فأتوب على يدك وأمتثل لأمرك!.. وسأصلح نفسى تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالى حسابا. لأحصل التحبيذ منك أو الاستنكار فأسعد فى الحالين، سأوقفك على حقيقة ما ينسب إلى من آثام فتكون لى وحدك الحكم المنصف.

وما يحسبه الناس لى فضلا وحسنات فسأبسطه أمامك فتنبهنى إلى الغلط فيه والسهو والنقصان.

ستقومنى وتسامحنى وتشجعنى وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جنانى: كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك، ولا أصدق سوى نظرتى فيك وهى أبر شاهد كل ذلك وأنت لا تعلم[1].

سأستعيد ذكرك متكلمًا فى خلوتى، لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك، حكاية البشر المجمعة فى فرد واحد، وسأتسمع إلى جميع الأصوات علِّى أعثر فيها على لهجة صوتك، وأشرح جميع الأفكار

(1) فى هذا الأسلوب تظهر الروح النسائية الحية الكاملة، إذ تعتبر الحبيب وجودها كله كما ترى، وننبه القارىء إلى أننا لم ننس ألفاظ هذه الرسالة

وأمتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديرى لآرائك وأفكارى وسأتبين فى جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هى شاحبة تافهة لأنها ليست صورة تعبيرك ومعناك، وسأبتسم فى المرآة ابتسامتك فى حضورك، وسأتحول عنك إلى نفسى لأفكر فيك، وفى غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك!

سأتصورك عليلا لأشفيك، مصابًا لأعزيك مطرودًا مرذولا لأكون لك وطنًا وأهل وطن، سجينًا لاشهدك بأى تهور يجازف الإخلاص، ثم أبصرك متوقا فريدًا لأفاخر بك وأركن إليك.

وأتخيل ألف ألف مرة كيف أنت تطرب، وكيف تشتاق، وكيف تحزن، وكيف تتغلب على عادى الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الانفعال النبيل؟ وسأتخيل ألف ألف مرة إلى أى درجة تستطيع أنت أن تقسو، وإلى أى درجة تستطيع أنت ترفق، لأعرف إلى أى درجة تستطيع أنت أن تحب!

وفى أعماق نفسى يتصاعد الشكر لك بخورا، لأنك أوحيت إلى ما عجز دونه الآخرون.

أتعلم ذلك، أنت الذى لا تعلم؟ أتعلم ذلك، أنت الذى لا أريد أن تعلم...؟

هناك فى تلك الزاوية الضائقة، حيث أقام القدر من دواهيه على صدرى جدران الحديد ومعاقل الرصاص، وهنالك قرب حلول الشفق، برزت فجأة أمامى، وأخذت تتكلم عن معان اختفت طى المعانى؛ وأشياء توارت فى الأشياء، وممكنات حجبت فى المستحيلات.. وكانت يدك تتحرك متريثة متأنية فبدت الإشارات سحرية ساهية، كأنما هى انعكاس إشارات خفية على المرايا المتبحرة فى مهجور القصور، وضاء الجو

حولى بلألاء الشرف والأبهة والسؤدد، ومشى نظرك توا إلى يكتشف فى جديد العوالم!

نظرت فعلمتنى إعزاز الوجود، وأدركت أنى ما تخليت أجلى عند حينه إلا لأ تشدد وأتحفز لوثبة كبيرة، كما يتنفس المتسابقون منتعشين متجددين قبيل خطير الأشواط.

فارتدت الحوائط قليلا قليلا، وتنحت الحصون مسفرة عن المروج والرياض، واتشحت الكائنات بنقاب وسيم لا تنسجه سوى يد الوجد على زعم المتيمين! ولكن، أنى جاء الوجد؟

أنت لم تكن تهتم بى وأنا لم أكن أهتم بك، ولكن علام تشل أوصال روحى للدنو من مكان حللته؟

وعلام اضطرابك وارتعاش يديك إذ تلمح خيالى عن بعد؟

أنت لم تكن تنظر إلى، وأنا لم أكن أنظر إليك، ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطرى وأهرب عند قدومك؟

وأنت إن لم تستطع السكوت فلماذا يخرج صوتك متقطعًا متهوجًا كأنك تجاهد لتقهر تأثرًا ما؟

أنت لم تكن تعبأ بوجودى. وأنا لم أكن أعبأ بوجودك ولكن لماذا كنت أخاشنك متعملة الإعراض وعدم الانتباه؟ لماذا وأنت مثال الوداعة والتهذيب، كنت تكفهر لحضورى وتنقبض كمن يود أن ينجنى على أو كمن يخشى أن يرمى بالبشاشة والمجاملة. ثم يعود نظرك فى المرة التالية يستصفحنى عن زلته؟ أنا التى كنت أغتفر لك وأتناسى قبل أن تحدث نفسك بالاستغفار!

أنت لم تكن تفكر فى، وأنا لم أكن أفكر فيك، ولكن لماذا كنت أحيد عن

طريقك لئلا ألتقى بك، وأنا التى أود أن أبحث عنك فى كل مكان؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أنى أراقبها، وتنغم نبرات صوتك وتنوعها إذ تعلم أنها واصلة إلىّ؟

أنت لم تكن لى شيئًا، وأنا لم أكن لك شيئًا ولكن وجوه القائمين حولك كنت أراها متألقة بنورك، وأنت كانت تدهشك كل حركة منى كأنها لم يأتها قبلى إنسان!

أنت لم تكن لى شيئًا، وأنا لم أكن لك شيئًا، ولكن أليس أن إرادتك حلقت فوق خواطرى كيد آمره، فتقت لأجلها إلى الطاعة والخضوع؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائى وإثارة إعجابى حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجليت بهيًا عظيما؟

من أنت؟. وماذا كنت؟ أكنت وحيًا من فيض شاعريتى المكتظة، وطيفًا من أطياف شوقى وعذابى؟. أم أنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر إلى الشواطىء النائية؟.

لقد كنت وحيًا من فيض شاعريتى المكتظة، وكنت طيفًا من أطياف شوقى وعذابى، أنت حقيقة محسوسة مرت فى أفق حياتى مرور السفن فى البحر إلى الشواطىء النائية.

يا مهذبى..!

elkanal.com

كذب مصور

يا حبيبا إذا حننت إليه ... حن فى رقتى عليه حنينى[1]

أنت شخصان فى الفؤاد فشخص ... عند ظنى، وآخر فى يقينى

واحد كيف شئت أنت، وثان ... كيفما شئته أنا وظنونى

لا بهذا رحمتنى أو بهذا ... بل بعقلى عذبتنى وجنونى!

أملى فيك كالخيال على المرآة ... كذب مصور للعيون

(1) أى لحنينه فى الرقة والوجد حنين أيضا، كأنه صوت عليه معانى البكاء.

obeikandl.com

لماذا .. لماذا؟

وكتب إليها[1]:

قرأت كتابك وهو أسطر قليلة، ولكنها إما ساحرة أو مسحورة فلقد خيل إلى أنها تنتهى، إذ كنت فيها كأنى أطارد معنى فارًا مذعورًا لا تمسكه الألفاظ فلا يبرح فوق السطور، إذا بلغ آخرها وثب إلى أولها فإذا كان فى أولها عاد إلى آخرها، دواليك بدءًا وعودًا[2] ويتلجلج مثل ذلك فى صدرى فلا ينتهى حتى ينتهى عنه.

تقولين يا حبيبتى: "أى شىء عندك هو جديد فى؟ ولماذا لا ترانى رؤيتك غيرى؟ وكيف بعدت فى نظرات المسافة بين وجه امرآة ووجه امرأة أخرى؟ وهل فى وجوه النساء طريق متشعبة تذهب برحل يمينًا وتلتوى لغيره شمالاً تتوافى إلى غاية وتتفرق عن غاية؟ ثم ما الذى جعلنى عندك لغزًا لا تفسير له، وجعل النساء من دونى واضحات مفسرات كألفاظ الحياة الجارية فى العادة والواقع، المبذولة بمعانيها لمداولة الأخذ والعطاء، على حين تزعم أنى كالعبارة العقلية التى يضرب فيها الظن على وجوه شتى، وأنى كما تقول: كلمة بسرها؟

"لا أكاد أفهم يا صديقى معنى "كلمة بسرها"! ولا معنى قولك الذى قلته لى: إن الحب فيك أنت كتعتيق الخمر: يضيف إليها الوقت كل يوم أسرارًا

---

(١) من ظرفها أنه لقيها بعد هذه الرسالة، فابتدرته ضاحكة وقالت: هل أحضرت معك لماذا...!

(٢) دواليك: أى مرة بعد مرة.

وقوى وخيالًا وعملًا وسطوة ورقة وأراه فى سواك كتعتيق الماء..[1] لماذا لماذا ليس عندى جواب كلامك وإنما هو عندك، إذ تجاوز قدر معرفتى يا صديقى، فلماذا لماذا؟"

"وأما قبل"... يا صديقتى فلا أزال أقول لك ماقلته: إن من النساء فى مقابلة أشعة النفوس معانى فمعنى كحائط، ومعنى كمرآة: وواحدة نمسخ ظلاً طامسًا أرانى فيها تحت الشعاع كأنى ظل ممدود على التراب، والأخرى تبرق وتلألأ وأرانى فيها سويًا كاملًا كأنما خلقت فى ضوئها.

ومن النساء فى مقابلة أهواء القلوب معان فمعنى كالقفر، ومعنى كالحديقة، وواحدة يكون وجودها حول فراغها..." والأخرى وجودها القلب فهو حولها.

"لماذا لماذا" لأن الإنسان غامض وتفسيره ليس فيه، ولا بد من تفسيره وإلا كان كل شىء عبثًا. إن الوجود كله مفسر للطفل تفسيرًا صغيرًا مثله فى حب أمه وحنانها، وقد يكون ثدى الأم مثالًا مصغرًا من الكون كالمثال المصغر من كرة الأرض فى تعليم الجغرافيا، بل الأم تفسير على قدر العقل لرحمة الألوهية نفسها.

وكذلك تبدأ الحياة من أول أنفاسها بالحب، ولعل أول قبلة على وجه الطفل من أمه ساعة ينفصل منها إنما هى استقبال الحب لهذا الإنسان الجديد ومسه من شفتى أمه بالطابع الذى لو قرىء نقشه لكان هكذا: أنت وحدك

فإذا كبر الوليد فلا بد من تغيير فى أسلوب التفسير حالًا بعد حال،

---

(١) تعتيق الخمر هو إحياؤها وإصلاحها وقوتها، وتعتيق الماء: إماتته وإفساده وضعفه.

ولا يزال كذلك تغيره الأشياء والحوادث حتى يبلغ أسلوب الفلسفة العليا إذا انتهى إلى العشق، وحينئذ تكون قبلة الحبيبة إنما هى استقبال الحب لهذا الإنسان المتجدد ومسه من شفتى حبيبته بالطابع الذى لو قرىء نقشه لكان هكذا "أنا وحدى..."

لذلك أنت يا حبيبتى الفلسفة العليا، وأنت "كلمة بسرها"، أما غيرك من النساء فجمالها عندى: جمال الشكل لا جمالُ السر.

ومن ثم فهى مفسرة واضحة، إذ يرى قلبى فيها ما يعسر فهمه ولا ما يبحث عن تفسيره ولا ما يفسر لى شيئًا من المعانى.

ومن ذلك فليس الجمال المعشوق إلا انطواء الجميل على أسرار مبهمة، وبذلك فكل نظر فى المرأة لا يرجع إلا بزيادة الوضوح فيما يعلو منها وما ينزل[1]، على حين كل ما فى الحبيبه يزيد على تكرار النظر غموضًا كأنه شىء جديد، ودائمًا شىء جديد، ويأبى جمالها أن يفسر، إذا كان تفسير الشىء إنما هو إضافته إلى ما فزعت النفس منه، وبهذا وذاك فما دام الحب قائمًا فكل ما فى الحبيبة من تكوينها وأوضاع جسمها وشمائلها ومعانيها إنما هو (مضاعفات) للمرض بها.

"لماذا لماذا؟" لأن الحب يريد أن يثبت أنه الحب، وأنه تحقيق كل إنسان روحانيته فى غيره، ليشعر بما هو أسمى من شعوره الإنسانى، وأنه امتلاء حياة بحياة لندرك معنى الكمال. فلا يكون الحب إلا كمال الوجود الإنسانى لشخص ما فى وقت ما بمعنى ما.

---

(١) أى فى محاسنها ومقابحها، فترداد النظر يزيد ذلك وضوحا فى النساء إلا الحب، فهو لا يزيده إلا تأويلا، كأن هناك معنى لا يستقر.

ومتى حققت الروح وجودها فى روح محبوبة وامتلأت حياة بحياة صار لها عالمها الخاص بها، وعادت قوانين عالمنا هذا لغوًا هناك، وارتفع الحب على أن يكون صلة أو اعتبارًا- كما يقع بين الناس فى الوجود الإنسانى الذى يسع الخلق جميعًا- إلى أن يصير حقيقة وحياة يعملان بقوانينهما فى الوجود القلبى الذى لا يسع إلا اثنين من الخلق.

إن جمالك أيتها الحبيبة ليس جمالك كما تظنين، وإلا شركتك الحسان فيه: لكنه بكلمة واحدة فن قلبى أنا!

والحياة التى تفيض عليك تملؤك وتملؤنى معًا، ولذلك فكل معنى منك له معنى آخر فىّ.

وأنا لا أعرف الحب إلا أن أفيض من وراء حدودى فأنفذ بروحى إلى جمالك ومعانيك، وأنفذ من معانيك وجمالك إلى كل ما يتلقانى فى هذا العالم بجمال أو معنى، فكأنك أنت السر، وكأن جمال الوجود ليس شيئًا من ناحيته إلا معرفة أن لكل صورة معناها، فإذا هو جاء من ناحيتك فلكل صورة معناها ومعنى زائد فيها كما أراها بنظر الحب، وبهذا يرجع العالم وإنه فى نفسى عالم تعبير فتتسع به ذاتى وتتطور الإنسانية فيها وتدنو من أصلها الإلهى، وأكون قد أحببت والمعنى أنى استضأت بالقبس الأزلى الذى أضرم الشمس والكواكب، وأصبح دمى لا يجرى بل يشتعل ويتوهج، وعاد قلبى لا ينبض بل يرتج ارتجاج الأفلاك فى مداراتها.

وأكون بالحب قد وجدتك، والمعنى أنى وجدتنى، إذ كانت نفسى تنقصها المرآة التى أراها بها رؤية قلب وأكون قد عشقت والمعنى أنك أدخلت على قلبى حاسة تشبع السكون كله فىّ أو تشيعنى أنا فيه،

حتى لا أفرح ولا أحزن إلا بمقدار يملأ الوجود، حين بك وحدك أفرح وأحزن!

"لماذا لماذا؟" لأن الحياة فى هذه الأرض الثقيلة المستوخمة هى مثلها مادة، مهما تتنوع بقى لها أصلها الجاف الثقيل، كالشجر: مهما يكن عمله من تحويل التراب فيلبس من الأخضر والأبيض والأحمر وغيرها من الألوان، ويثمر بالحلو والمر، فإن جذوره على ذلك لا تعرف الأخضر ولا الأحمر وليس لها إلا شيئان، ترابها وعفن الأرض... فلا بد لهذا المنجم الترابى الإنسانى مما يغلى قيمته ويشعره أن فيه ألماسًا أو ذهبًا أو فلذة من أفلاذ الجمال كائنة ما كانت، وهنا عمل الحب موضعه سحره فهو يأتى بالمعشوق ويمكن لمعانيه فى القلب وببضع ابتسامات ولحظات وكلمات وحركات يكشف من قلب العاشق عن كنز عظيم من الأحلام الجميلة التى تخفق خوافق السماوات والأرض[1] فإذا القطعة البشرية العادية من النساء والرجال قد تحولت بالحب إلى قطعة فنية نادرة لا نظير لها فى جمال الكون وعلى ما يصف الواصف لا يبلغ ما هى أهله فى رأى محبها، إذ هى تخلق فى نظره ضوءًا لها خاصة يرفعها فوق المادة وفوق الحقيقة، فكل ما تبصره العين الإنسانية فإنما تراه للفكر أو للعاطفة وحسب، أما هذه فتراها عين محبها للفكر والعاطفة، ثم للجمال والفن، ثم للشهوات والآمال، فلو أن جنة الله تحيا على الأرض فى امرأة ما عدتها.

بل يرى المحب كأن سر الحياة أخذ يتجلى له ويعمل أعماله على عينيه: فكل شىء من الحبيب جديد مع أنه هو هو من قبل، وكل ما يصدر

---

(١) أى تملأ ما بين السموات والأرض.

منه ففيه روح وخلق ينبثق لساعته، إذ كأن سر الحياة هو الذى يتحرك فى كل هذا ويستعلن به للنظر للعاشق.

ومن هذا تتغير الطبيعة نفسها فى أعين المحبين، إذ لا يكونون منها فى الحقيقة- بعمل ذلك السر- إلا بإزاء قصة عشق ممثلة فى الطبيعة ولها ممثلون وممثلات من الأنهار والأطيار والأشجار والأزهار والألوان والأصوات والنجوم والشمس والقمر وما فى السماء وما فى الأرض، على حين ليس فى الطبيعة لغير المحبين إلا مناظرها!

ألا إنه بالحب وحده يحيا الإنسان أكثر من حياة إنسان، وتكون الطبيعة أكثر مما هى ويزيد كل شىء فى حس العاشق لأنه هو زاد بحبيبه.

تسألينني "لماذا لماذا" لأنك لأنك... يا حبيبتى!؟

obeikandl.com

كتاب لم تكتبه...

"وانقطعت كتبها عنه مدة، فرأى أن يجرى فى طريقة بعض الأساليب السياسية التى تخلق الواقع متى شاءت كما تشاء، فتوهم أنها كتبت إليه كما يحب... ثم رد على رسالتها".

وصل كتابك أسرع... مما قدرت، فعلمت أن قلبك أشفق على وخشى أن أتألم إذا انتظرت، وتناولته فأحسسته فياضًا بمعانيه إذ كان فى يدى كأنه لهفة قلب مجسمة، حتى ما شككت أن كل كلماته كانت خفقات.

وفضضته فطالعتنى منه صحيفة تضطرب بأشواقها كأنها رجة صدر عاشق أمسكت فى زفراتها وطويت وختم عليها وجعلت رسالة، ونظرته فإذا هو ترجمة شخصك فى حسنه وجماله وظرفه، وابتدرتنى منه جملة باسمة أمطرتها لثمًا، إذ خيل إلى إنها ترجمة عن شفتيك.

وقرأته بفكرى كما أقرأ نظراتك وابتساماتك ورجفات الدلال على جسمك حين تتناثر أفكاري عليه فإذا فى موقع كل فكر على هذا الجسم الفاتن خطرة دلال أو اختلاجة صبابة أو انثناءة تيه أو هزة نشوة، وإذا معانى الجسم تجوب معانى الفكر، وإذا روح الجمال ترتعش بك من لمسات الحب.

وفهمته كما أفهم حسنك الذى جعله الحب من أسرار قلبى، فجعله القلب من أسرار روحى، فجعلته روحى من أسرار الكون، فأظهره الكون كأنه ومضة من النور القدسى أحبت أن ترى رؤية وله وعبادة فكان

سطوعها فيك أنت، وكان الخشوع لها فى قلبى أنا، وذهبت بى كل مذهب تقديسًا وخضوعًا ومحبة ووقف الهوى بى عند قولك... وهو كلام كما أرهفته لحاظك تفتحت له جراح قلبى وانصب يكلمها فتجاوبه ألمًا ودمًا.

وعند قولك... وهو كلام كما عرفت عليه أنفاسك احتر إليه صدرى الهائم فاقبل يتخطفه يتنفسه يقطف منه الحياة. وعند قولك.. وهو كلام كما رنت فيه ضحكاتك طربت له روحى فاهتزت له هزة حسبتها تناولت الكون أو تناولها.

وعند قولك وهو كلام كما غرت فيه نغماتك انسرقت[1] له حواسى فكدت أظن أن فرحة من الخلد لم تجد على الأرض إلا هذه النغمة من صوتك تحملها دون أن يتغير مدار تأثيرها السماوى.

ثم انتهيت يا حبيبتى إلى قولك... وهو كلام لم أجدك فيه[2] كأنه كان بدء اليقظة من حلم الكتابة إلى محبك، وأول تباشير البياض الذى ينتهى عنده سواد الأسطر.

وعجبت يا حبيبتى من قولك... وهو كلام إن كانت ألفاظه وجدت فمعانيه غير موجودة، وإن كانت فى هذه الأرض من له روح تفتح وتغلق[3] فهو أنت، ولقد جعلت كلمتك الأخيرة كأنها باب أقفل فى وجهى...

ولكنك لما بلغت اسمك يا حبيبتى ارتدت عنه ألحاظى مكرهة من قوة فى نفسى، وبهذه القوة التى أغمضت عينى قرأت اسمك بشفتى.

---

(١) أى استرخت ذهولا، ويقال: انسرقت مفاصله، إذا ضعفت فاستعملناها كما ترى.

(٢) يريد أنه كلام كالكلام المألوف ليس عليه أثرها حبيبة ولا محبة، كأن تذكر حادثة أو تسأل عن أمر.

(٣) الظاهر... أنها اتهمته فى آخر كتابها... بالسلو بعد الحب ثم أظهرت غضبها من ذلك فى كلمة هجر.

ثم لم أملك نفسى أن قبلت الكتاب ألفًا وألفًا، حتى خيل إلى أنى أكلتة وشربته، لما نظرت فلم أر فى يدى شيئًا تيقنت أنى أكلته وشربته... وأطيب ما كان فنى[1].

يحاول لى ولخيالك! إنما أنا معه كالسياسى إذ يقبل سياسيًا بعد معاهدة بينهما، فيمسه بشفته مسة ليس لها إلا طعم ورقة مكتوبة...

وآه كم تتمثلين لى وكأنك لا تزالين فى ذلك الموقف... تحاولين بدلالك وألفاظك أن تدخلى إلى نفسى من غير أن تدخلى وأراك وما أراك إلا روحى الخارجة عنى، فأحاول بأساليب الحب الكثيرة أن أردها إلىّ وهى لابد لها أن تبقى خارجًا لأنها جسم آخر، وأنا لابد لى أن تكون فىّ لأنها روحى الأخرى.

خلد على قلبى ذلك الموقف منك، فلا بد لك ولا بد لى، وبينهما لابد ثالثة، لابد من تألمى وعذابى!

(١) أى انتهى عند ألذ مافيه.

orekanal.com

قالت وقلت

هذه رسالة تجمع من كلامها وكلامه مما كان يتساقط به الحديث بينهما، وقد دونها هو فى مجالس شتى، وكل فصل من هذه الفصول كان يصلح أن تبنى عليه رسالة طالت أو قصرت".

فى بعض القصص أن لإحدى الغابات ملكًا يحكمها، وكان من شريعتها أن لا يتبوأ عرشها إلا من يذبح الجالس عليه... فالملك فيها أبدًا يقظان منتبه عيناه من سلاحه، ولا يزال السيف فى يده مصليًا ولو أن فى كل إصبع من أصابعه سيفًا قاطعًا ثم غفلت عيناه غفلة لما نفعته عشرة أسياف، ولكانت إغماضته الموت لا محالة، ومع هذا الشقاء الحى فإنه يأتى إليه من يذبحه ليجلس فى موضعه، أى ليتهيأ للذبح!

أما والله إن عاشق بعض النساء... لكالجالس على هذا العرش كل لذته من بلائه أنه لم يذبح بعد...!

الموت ينتزع الروح، والهجر يترك الروح كأنها منتزعة، فهو موت لا ينتهى!

أيكون الحب فى الحقيقة هو قدرة شخص جميل على تزوير نفسه وتزوير الكون فى نظر شخص آخر؟

قالت له: لم أعدك شيئًا!

قال: نعم لم تعدينى بلسانك، ولكن وعدت بما فيك من الشفقة ما ترين فىّ من الاضطرار!

لو أنى سميت النهار ليلًا والليل نهارًا لا نتقل السواد والبياض إلى اللفظ بسهولة، ثم لا يكون ليل الله ولا نهار الله، فاجعلى لى منك دقيقة واحدة واقعة على زمنها وخذى الثلاثمائة والستين يوما كلاميًا، دقيقة إنجاز ولا ولا سنة مواعيد!

أأنت تخطئين؟ أما إنك لو تكلمت خطأ صرفًا لكان وجهك وحده برهانًا وحجة!

ألم أر مثل هذا الفم الجميل: إذا أفتر أفتر عن ابتسامة، وإذا انطبق انطبق على هيئة ابتسامة، هو دائمًا إشارة أو تعبير، هو دائمًا تعبير أو إشارة.

عند ما أراك لا أتمالك أن أطرب وأهتز، أفهناك ألحان من جمالك تنطلق فىّ؟

قالت له: كلماتى لا تتم بمعانيها ولكن بفهمك أنت لمعانيها!

وقالت: إن ساعة كتابتى إليك هى ساعة من الحياة معك وإن كنا على بعد!

ليست المسكرات ولا المخدرات هى ما يعدونه من كذا وكذا، بل ومنها النظر إلى بعض الوجوه، والفكر فى بعض الناس...!

إنك تتكلمين ولا تعرفين أن وجهك ينقح فىّ معانى كلامك.

فى الحب درجة من درجات الملائكة يرتفع إليها من قدر أن ينسى من حبيبه المادة الإنسانية وهى مالئة عينيه وحواسه، آه أشق أن يتحول العاشق فى حبه إلى شريعة، ولكن ما ألذ أن يتحول!

من العجيب ألا يكون المحزن فى الحب إلا وسيلة لزيادة جمال الحبيب باهتياج محبه والتياعه، فهموم الغرام أشبه «بعلميات» جراحية فى العواطف لترقيقها وإرهافها، كيما ترى أحسن مما كانت ترى، وتحس أكثر مما كانت تحس!

هل الطبيعة الإنسانية بتأليفها بين حبيبين تضرب المثل على إمكان هذا الائتلاف بين الجميع؟ أم على استحالة إمكان التآلف الصحيح إلا بين اثنين فقط من الجميع...؟

العقل يدل على نفسه بالنظر فى الكون ويعبر عن ذلك بأفكاره. والقلب يدل على نفسه بالنظر فى الحبيب ويعبر عن ذلك بأشواقه.

كل كلمة فيها معناها، وحين تكون الكلمة منك يكون فيها من معناها ومنك...!

قالت: أنا فى نفسى كما أنا، ولكنى فى حبك كما أرى، فأنا أكتشف نفسى الجميلة فيك، وبهذا أجد حبك من عظمتى وسرورى!

إن مواعيدك من الكلام الذى يموت دائمًا بمرض النسيان!

قالت: ينصح علماء القوة والرياضة للرجل القوى ألا يغضب فيذهب على الأقل نصف قوته، وأنا أنصح لك أن تغضب فتزيد قوتك على الأقل بقدر نصفها...!

أساس الحب شىء خاص لا يعرف إلا بالشخص الذى هو فيه، وحينئذ فليس فى الوجود كله مثل الشخص الذى هو فيه.

كمال لذة الحب حين تتآخى الإرادة مع الإرادة، لا حين تتنافر أو تتعادى.

ليس فى الحب مسافات، فالمتحابان مجتمعان دائما فى فكرة وإن كان أحدهما فى المشرق والآخر فى المغرب.

قالت له: إذا كنت تريدنى سماء تستوحيها وتستنزل منها ملائكة معانيك فلماذا تنكر علىّ أن يكون لى مع أنوارى سحاب وظلمة ورعد وبرق؟

من تأله الجمال أن الحبيبة لا تريد الحقائق من الطبيعة إليها بل من الطبيعة إلى محبها أول، ثم من المحب إليها بعد...، تريد فى حقائق الكون شعور تقديس الله وشعورًا آخر بتقديسها هى أيضًا...؛ دولة ضعيفة: ولهذا لا يكون معه أبدًا إلا كالمستعمرة...

obeikandl.com

الغضبى[1]

تحير قلبى وهو ممتلىء بها كما يملأ المرآة ناظرها ظلا

بأى مكان فيه قد حل شخصها وأى مكان شخصها فيه ما حلا؟

لقد غضبت وكر هجرها على وصلها، وانشق لزمن زمنين، أحدهما مثلها غضبان مبتعد وكأنما كان لها خاصة، فلما ذهبت لحق بها.

إنه الحب يخلق بها خلقًا فىّ وبزمنها خلقًا فى زمنى، ليشعرنا بهذا التغيير الخالق المتصرف أننا لا نتحاب فى ذات نفسينا، بل فى الجلال الأعظم الذى منه نفسها ونفسى، فإذا تغاضبنا وقسمتنا أهواءنا رجعنا قطعتين من المادة ليس فى كلتيهما إلا قانون الثقل... وزادت عواطفنا وزنًا جديدًا من الغيظ!

أين زمنها؟ لقد فرغ وقتى منه حتى يخيل إلى أن اليوم الذى هو أربع وعشرين ساعة لا يكمل لى بعدها عشرين وأربعًا. وأنظر فى ساعتى فإذا كانت السابعة مساءًا والتى إليها والتاسعة التى معها[2] شبه لى وغم على وحسبت أن فى هذه الساعة منطقة خارجة عن الزمن تخطاها العقرب ولا يشير إليها.

---

(١) لما تغاضبا كتب هذه الرسالة فيما كتب لنفسه، لا ندرى ماذا كتبت هى.

(٢) كانت ساعات اللقاء بينهما على ما يظهر.

وإنى لأحمل فى غضبها من الهم ما لا أرهق بأوجع منه لو عادانى كل من معى وجفانى كل ما حولى، ولكانت والله قد هانت لو أنها غضبة عدو، ولكنها غضبة حبيب هو بحبه فيها.

يا ظلام القمر كيف تكون ظلامًا وقد تعلقت بمخلوق النور؟[1]

كلا كلا! لقد غضبت لتزيد فى أسرار حبها سر الماضى، ولتمر على أيامها اللينة بمسحة من القسوة تخلق فيها إلى جمال الحقيقة جمال الذكرى.

وكانت... وتريد أن تأتى فى الحب من وراء ما كانت فذهبت وهذا فى فلسفتها هو المجىء من وراء ما كان. فما غضبت إلا لتعطينى الرضا من بعد.

الفرح بالجمال لذة تقتل نفسها، ولا يمسك على الجمال روح النعمة خالدة فى القلب إلا الحزن به أحيانًا: كيوم الغيم، ترى فى سمائه قطعًا كأنها الهاربة من الليل، تختبىء الشمس فيها ثم تسطع من بعد سطوعًا يخيل إليك أنها ما توارت فى خيمة الغمام إلا لتنضو غلائلها الشفافة وتتعرى.

يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا فيغيب عنا، إذ كان بذله يفنى منه على قدر ما يعطى فإذا هو امتنع وعز مناله كان جمالًا فى نفسه بمعانيه وجمالًا فينا، بالمعانى التى هى فينا، وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث هى فى ألم الرغبة المستمرة أو ألم الغيظ المجنون،

---

(١) أى تعلقت بالقمر.

obeikandi.com

ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه، ومن الحبيبة الراضية حبيبة هاجرة، ومن الحاضرة غائبة، فقد ارتفع عن إنسانيتنا وجاءنا من ناحية سره الإلهى.

كلا كلا! لقد غضبت لأحبها صورة مبهمة ليس فيها إنسانة بل حب إنسانة وانتزعت نفسها منى بعد أن انتزعت لنفسى كل معانيها التى جعلتها ما هى[1].

ألا يا ثمرة أفرغت فى قلبى عصيرها الحلو! لئن بقيت ثمرة فى لغة نفسك فإنك القشرة فى لغتى أنا...

إنه ليس معى إلا ظلالها، ولكنها ظلال حية تروح وتجئ فى ذاكرتى، وكل ما كان ومضى هو فى هذه الظلال الحية كائن لا يفنى وكما يرى الشاعر الملهم كلام الطبيعة بأسره مترجمًا إلى لغة عينيه أصبحت أراها فى هجرها طبيعة حسن فاتن مترجمة بجملتها إلى لغة فكرى.

كان لها فى نفسى الجمال ومعه حماقة الرجاء وجنونه، ثم خضوعى لها خضوعًا لا ينفعنى... فبدلنى الهجر منها مظهر الجلال ومعه وقار اليأس وعقله، ثم خضوعها لخيالى خضوعًا لا يضرها.

وما أريد من الحب إلا الفن فإن جاء من الهجر فن فهو الحب...

كلما ابتعدت فى صدها خطوتين رجع إلىّ صوابى خطوة...!

---

(١) أنه لا يحبها إلا إذا انطبعت معانيها فيه وأصبحت كالأجزاء من حياته وفكره فإذا هى تركته بعد ذلك فلن تنزع منه شيئا مما جعلها عنده هى هى

كلا كلا! فلا صواب مع مادة الفتنة، وهل يفتتن الإنسان إلا حين يظهر مجنونًا بأسمى ما فيه من العقل؟

أنا عاشق أضم الطبيعة فى مهجتى مصغرة فأنا الأكبر... إن هذا لجنون ولكنه عقل... وأنا عاشق أفسر الطبيعة فى هذه الحبيبة فهى الأجمل... إن هذه لعقل ولكنه جنون!

وقد كانت لهذه الحبيبة نظرة معنوية هى مفتاحها فى قلبى وهاهى ذى غضبى نافرة لا أراها ولا ترانى، ولكن المفتاح لا يزال يدور فى قفله... أجنون هذا أم عقل...

وهى الحبيبة ولكنها كالعدو: صورة من أقسى ما فى الطبيعة جاءت تمضى فى قانونًا من عقوباتها؛ أعقل هذا أم جنون؟

لن يقال فى الذى تحمله عاصفة وتطير به: إنه مسافر فى طيارة... ولا فى الذى رأى صورة دينار فى مرآة فحطم المرآة ليأخذ الدينار: إنه وجد شيئًا...

ولكن يقال فى الذى دلهه الجمال وشفه الحب[1]: إنه فى نعيم الهوى. وفى المحب الذى يحطم الذى يحطم قلبه على امرأة إنه وجد الحب...!

كلا كلا يا قلبى! إن الغضب يجمع جنون الحب من شخصين فى شخص واحد: هأنذا يحوطنى الآن هدوء الأشياء، وابتسام الجمال الأزلى المفتر عن نور الدنيا: أنا فى كل ذلك ولست فى هدأة ولا ابتسامة غريق فى البحر ولا يبتل...!

---

(١) التدليه، ذهاب العقل من الهوى، وشفه الحب: إذا لذع قلبه.

لعمرى لو غضب قاع الأقيانوس غضبة حب لا نتفخ به الغيظ حتى يعلو فوق الماء جزيرة جافة فلا يتندى ولا يرق ولا يعود إلا خلقة غيظ![1].

فليكن ما طاوع منى هو الذى يأبى، وما أحب هو الذى يبغض ولنأت على الحب غابرة الدهر وآخرة الليالى[2] ولو ترامى بها غضبها إلى قتلى لوعة وكمدًا!

لقد أصبحت أرى ألين العطف فى أقسى الهجر، ولن أرضى بالأمر الذى ليس بالرضى، ولن يحسن عندى مالا يحسن، ولن أطلب إلا فى عصيان الحب؟ أريدها غضبى، فهذا جمال يلائم طبيعتى الشديدة، وحب يناسب كبريائى، ودع جرحى يترشش دما، فهذه لعمرى قوة الجسم الذى ينبت ثمر العضل وشوك المخلب، وما هى بقوة فيك إن لم تقو أول شىء على الألم...

أريدها لا تعرفنى ولا أعرفها، لا من شىء إلا لأنها تعرفنى وأعرفها.. تتكلم ساكنة وأرد عليها بسكوتى. صمت ضائع كالعبث ولكن له فى القلبين عمل كلام طويل...

أما والله ما أدرى أحاجتى فى حبها كانت إلى عزيمة أم إلى الصبر أم نسيان أم خضوع؟

يا رواجف صدرى! كل ذلك ليست منه فائدة ترجى، فإن حاجتى ألا أكون عرفتها من قبل!

---

(١) أى ينقلب قفزًا متحجرًا كأنه خلقة غيظ وهيئة عناد.

(٢) كناية عن انتهائه وذهابه فى الزمن.

ويا قلبى، ما هى المعجزة التى يمكن أن تمنع الأمر الذى وقع بعد ما وقع...

كلا كلا! ما ذهب الحب، وإن الذى يكذب حبه بإظهار غيظه من الحبيب ليكذبه الغيظ، وإذا انتهى أمر من الأمر وبقى فى نفسك حيًا فما انتهى.

كلا كلا! ما استوفيتك يا رسالة الغضب فما أكثرك عندى فنونًا وما أوسعك معانى فى نفسى.

كلا كلا! فلو أنى كتبتك ملء ليل مظلم طال على محموم. ثم اطلعت هى عليك فاغضبتها ثم جاءت... جاءت تسألنى... تسألنى. أأنت كتبت هذه؟

آه، تالله إن أجببتها إلا؛ كلا كلا"...

ولست أطيل فى زينتك يارسالة الغضب، فإنك كالنعش: لا يزينه قوم إلا ولهم ميت!... كلا كلا!

obeikandl.com

هدية شتم...

نشرت مرة فى بعض المجلات الفرنسية مقالا فهم منه القراء كلمات نبيلة، وفهم هو منه كلمات شتم فكتب هذه الرسالة[1]:

فى الحب يتكلم قلب المرأة العاشقة بمنطق فصيح من أعمالها، فأعمالها عندها على طريق اللغة والتعبير قبل أن تكون لعلة أخرى من العلل، فإذا أنت حملتها على ظاهرها وكنت المقصود بها فقد جزت بها عن طريقها وأخطأت سحرها وجمالها، بل تكون قد أهنتها وابتذلت المعنى السامى المخبوء لك فيها ليكون لك وحدك.

قد تشتمك من تحبها لأنها تحبك وتعزك، ويأبى لها شعورها بكبرياء الحب إلا أن تنبذ لك بلفظة متكبرة وهى قد وثقت أنها تخصك منها بمعنى ما... وقد تعرض عنك من دون الباقين لأنك وحدك الآمر الناهى المتسلط عليها، فهى تخصك من إعراضها بهدية... وقد تعالنك بأشد البغض وتدع قلبك يشبهها لك مراغمة جافية متعسرة غليظة الكبد، لا من بعضة ولا جفاء ولا معاسرة ولا غِلظة، بل من أنك أذللتها بهواك، فكل ما تشتمك به إنما تتأوه فيه... والكلمة التى تفصل عن المرأة فى مثل هذه الحالة من سرها المجروح: لا تراد لتكشف عن معنى يكون فيها، بل لتغطي على معنى يكون فى غيرها...

---

(١) قلت:: انظر ما أومأنا إليه من قبل عن وسائلهما فى المراسلة.

وهى كلمة وتاريخ وشعور فى وقت معًا، وهى كالموجة: تحتها التيار وفوقها الريح، وشرحها وأسبابها فى هذين لا فيها، تشتمك لتقول لك إنى أعلم أنى أحبك أحبك، فإياك أن تظن أنى أحبك...

وما أشبهها بالشمس وهذه المسبة منها كالغيم أثقله الماء فإذا الشعاع على قطراته رأيت فن الشمس لا فن الغيم، وإذا قوس قزح فى سبعة ألوان جميلة زاهية يذوب بعضها فى بعض تبرًا ولجينًا وجواهر شتى.

وكلمة الشتم من العدو تنزل من القلب منزلة الدمل يأكل موضعه ويتسع ليأكل مواضع أخرى، ولكنها من الحبيبة تضاف إلى دواعيها فى القلب، فإذا هى كالورقة الجافة فى شجرة خضراء ذوت هى ومنبتها حى، فما أسرع ما ترف فى مكانها ورقة أخرى أزهى وأنضر.

الآن أذكر قولها إذ سألتنى مرة: هل ترى قيمة الدينار فى يد ملك أو أمير أكثر منها فى يد مفلوك[1] أو صعلوك؟ وأذكر جوابى إذ أجبتها: إن الدينار فى نفسه ملك يحكم الملوك والفقراء، فهذا من رعيته، وهذا من رعيته، وهو فوقهما فلا يعلو به من يعلو ولا ينزل به من ينزل وكذلك دينار شتمها: هو على كل حال فى يدى كما هو فى يدها ولو أنها جعلت قيمته فى يوم غضبها مئة لعنة لما منعنى ذلك أن أصرفه منها هى فى يوم رضاها مئة قبلة!

أصحيح أن شتمها كلمة حب محرقة، وأنها عبارة ذات تأويل قبل أن تكون عملا ذا صراحة، وأنها من باب قول المرأة لمن تحبه: أبعد عنى!

إياك أن تصدقنى وتبتعد...!؟

---

(١) المفلوك: الفقير المدقع، والفلاكة: الفقر، ومن الكتب كتاب «الفلاكة والمفلوكون» وقد طبع فى مصر: وللكلمة أصل في الاستعمال لا محل لذكره هنا

وذلك صحيح لا ريب فيه، ولقد قالت مرة فى أمر سبق إلى قلبى منه شىء فعاتبتها: إنها مسألة لا تهم.

فقلت لها: نعم لا تهم، ولكنها تدل...!

فقالت: نعم تدل، ولكن معها الحب فلا تهم ولا تدل...!

عندها أن الحب يغير كل شىء، وقد فهمنا من قبل أنه يغير المرأة المحبوبة فى نظر محبها لأنها زائدة على النساء رغباته وأوهامه ويغير الرجل العاشق فى نظر حبيبته إذ هو زائد على الناس إما برغباتها وإما بحمقه وجنونه وغفلته ويغير الطبيعة فى نظر العاشق لأنها مع الحب لا ترى إلا زائدة لون النفس، ولآن فهمنا أنه يغير الكلام أيضًا إذا صار الكلام زائدًا تفسير الحبيبة المتكلمة وانضاف إلى ظاهره مكتمها.

ذلك صحيح، لأن هذه الشاعرة الفيلسوفة تشعرنى فى كلمتها الجافية بأثر من الرقة والظرف يدل على أن قلبها مر فى بعض مواضع من مقالتها وخفق على موضع وأنّ فى موضع.

ذلك صحيح بلا ريب، والحب كالحرية: هذه تأتى أهلها بالثورة المدمرة وفيها أسباب من الحياة لها ما بعدها، وذاك يهدى الشتم وفيه أسباب من الدلال ولها ما بعدها!

يا صباحا أهدى الضبابة دكناء. فغطى الضياء منك[1] ظلالك أنت أهديتها، وأنت أذبت الظل منها، فتم منها جمالك...!

---

(1) استعمل ضمير الخطاب بعد ضمير الغائب فى (أهدى) لقوة الالتفات وبلاغته فى هذا الموضع، والمعنى أن شتم الحبيبة كضباب الصبح، يسوقه ظلالا سوداء ليقطره بعد قليل ندي يتم به جماله.

متى يا حبيب القلب

ألا يا نسيم الفجر سلم على فجرى ... فقد غاب فى الليل الطويل من الهجر
تضىء الليالى بالنجوم وبدرها ... وليل الجفا من غير نجم ولا بدر
وقفت وماذا أستطيع بوقفتى ... حسيرًا، وأقدار الغرام بنا تجرى؟
أدور بعينى نحو كل شعاعة ... على الأفق فى نجم، أو الأرض فى زهر
فيا ويح قلبى! ماله حن كلما ... تراءى له شبه ابتسام على ثغر؟
متى يا حبيب القلب هجرك ينتهى ... ومن أول الأيام فيه انتهى (صبرى)[1]؟
ألا يا نسيم الفجر إن جزت فى الربى ... خفيا كتسليم الحبيبة فى سر
وقامت عذاراها للقياك ثنثنى ... دلالاً وتيهًا فى غلائلها الخضر
وفتح نوار الغصون جفونه ... وفيها البقايا الناعسات من السحر
وأصبحت كالسلوى ترفرف نازلا ... سلاما على قلب الغدير أو النهر
فجئنى بسر الزهر والماء والندى ... لعلى بها أطفى جوى الحب فى صدرى

(١) قلت وكان من أصدقائها المرحوم إسماعيل صبرى باشا...

صلاة في المحراب الأخضر

شجراتي

" ولما غضبت ويبس ما بينهما، ضاق بهجرها، فانصرف إلى شجرات كان يخلو إلى نفسه فى ظلها ونضرتها ونسيمها وما فيها وما حولها وظن أنها تنبت شيئًا فى جدب الهوى أو ترمي بظل على رمضاء القلب فكان فى وهمه كالذى يحاول أن يجد نساء من الشجر... وهناك كتب هذه الرسالة فى الربيع، ثم التى بعدها فى الشتاء".

لى صديقات من الشجر أعرفهن ويعرفننى منذ سنوات، وهن ينزلن منى بعض الأحيان منزلة الحب، لأن فيهن شيئًا من دلال النساء الخفرات أجد أثره فى قلبى ولا أجد برهانه فى لساني، فإذا هممت أن أبين عنه وأبتغيه بالعبارة أخفته العبارة حتى لا يزيده البيان إلا غموضًا وسوء معرض، ولكن إذا مضيت أفكر فيه تبينته أشد تبين فأحسست فى ظلهن المستحى ونسيمهن المتنهد وغصونهن المتثنية- شمائل حبيبة إلى نفسى، ورأيت لها معانى لا تقع إلا فى القلب، ثم لا تقع منه إلا فى الموضع الذى مسته يوما نفحة أو قبلة أوتنهد.

وإنما قيمة الأشياء بما فيها من أثر القلب أو بمالها فى القلب من الأثر ولرب شىء تافه لا خطر له ولا غناء فيه، ثم يكون فى يد محب من حبيبه النائى أو الممتنع الهاجر فإذا هو قد تحول بموقعه من القلب إلى غير حقيقته، فأطلعه الهوى من مطلع آخر ليس فى الطبيعة، فيرتفع ثم يرتفع، حتى كأنه عند صاحبه ليس شيئًا فى الدنيا بل الدنيا شىء فيه،

ويكون ما هو كائن ومع ذلك تنبعث منه روح ذات جلال أقل ما فيه أنه فوق الجلال الإنسانى.

هذه صغائر الحياة متى خالطها أثر القلب أصبحت فى الحياة أكبر كبائرها، كأن قلب كل إنسان هو النقطة المحدودة له من الكون، والكون كله مبعثر من حوله. فلا بداية لشىء ولا نهاية لشىء، ولا قرب ولا بعد، ولا صغر ولا كبر، ما يكن له قياس إلى القلب. والحب قدرة إنسان على قلب إنسان فهو من ثم قدرة على الكون المتصل بالعاشق، وهو بهذه القدرة أشبه بألوهية لو ساغ فى الظن أن توجد ألوهية عاجزة عن كل شىء، إلا عن التصرف فى مخلوق واحد، وهو بكل ذلك إما حقيقة كبرى وإما سخرية كبرى.

تقوم شجراتى على مسيل من الماء فى قاصية بعيدة من المدينة، وتراهن فوق الماء صفًا إحداهن إلى إحداهن كأن هناك بقعة من الجنة قامت فيها قصور الزمرد على طريق أرضها من الفضة البيضاء المجلوة.

وأراهن كل سنة يتجردن من الأوراق ليكتسين أوراقا مثلها لا تخلفها فى شىء من الهيئة ولا تباينها فى معنى الطبيعة، ولكن بين ما يخلعن وما يلبسن تزيد فيهن الحياة وتشب الروح وتتجدد القوة فتلقى الشجرة أوراقها وتستقبل الشتاء مقشعرة جرداء، لتظهر فى الربيع كاسية، جميلة جديدة فى حسنها، تتبرج بروحها قبل ثيابها، كالحسناء الفاتنة أو ما يتحرك فى دمها الحب...

كذلك لا تتبرج الروح إلا خارجة من شقاء أو مقبلة على شقاء، وما أشبه الحب فى الناس بهذا الربيع فى الشجر: هو الطريق الأخضر يمتد

إما إلى الجدب واليبس والألم، وإما إلى غاية منسية مهملة فى الجفاء أو السلوة!

وذهبت فى ضحوة النهار إلى صديقاتى أحييهن كعهدى بين حين وحين، وما أكرمه عهدًا لمن لا يختلفن من ملل، ولا يتغيرن من كذب، ولا يتبدلن من خيانة، فلما جئتهن تخفين بى وتناولن قلبى يمسحنه ويتحببن إليه، وأقبلن يغازلنه ويأخذن فيه مأخذ من تحب فيمن يحبها، حتى لم أشعر منه إلا ما أشعر من زهرة فيها أرجها العاطر؛ أو ثمرة فيها ماؤها الحلو، أو نبتة فيها لونها الأخضر...

... ونبهن فيه برفقهن هذه القوة المتواضعة المظلومة التى تتوجه بالإنسان إلى ربه فتكون عبادة، وإلى الناس فتكون رحمة؛ وإلى "بعض الناس" فتكون الحب، فإنى لتحت ظلالهن الوارفة وكأننى من السمو تحت أجنحة الملائكة، وإنى لمع أغصانهن النضرة وكأنى من السرور أداعب أطفالا صغارًا تبسم لى، وإنى لبين أنفاسهن وكأنى من النشوة مع الخيال الذى أتخيل...

تجلت على القوة التى تحول الشعاع إلى ظل؛ والهواء إلى نسيم والزمن إلى ربيع، والنظر إلى حب، فكنت فى الشجر الصامت شجرة متكلمة، وانسللت من طبيعة إلى طبيعة غيرها، ووقفت بين عفو الله وعافيته فى هذا المحراب الأخضر؛ ومن قلبى المتألم أرسلت إلى السماء هذه التسابيح ذاهبة مع تغريد الطير.

يامن غرسنى فى الحياة كهذا الغراس بين الماء والنور، ولكنه جعل جذورى كلها مستقرة مثله فى الطين!

يامن لا يؤتينى معنى شريفًا ساميًا على هذه الأرض إلا إذا عرفت

بإزائه معنى وضيعًا سافلا، ولا ينضج ثمارى ويحليها إلا بعد أن تنبت فجة مرة لا تذاق!

يامن خلقنى إنسانًا ولكنه قضى على أن أقطع الحياة كلها أتعلم كيف أكون إنسانًا، كالبذرة: تقضى عمرها فى إخراج شجرتها ونموها حتى إذا اكتملت الشجرة قطعت لأغراض أخرى غير التى من أجلها نبتت.

يا من وهب عبادة العقل بين هذه النواميس التى لا تعقل، حتى لا يتم أبدًا عقل إنسان، ولا تكمل أبدًا حكمة حكيم، فيظل باب الخطأ مفتوحًا لأكبر العقول وأصغرها، وتكون الحيرة قاعدة من قواعد العقل، ليخرج من ذلك أن يكون التسليم قاعدة من قواعد القلب!

يا من جعل شفائنا بالعلم داء آخر من العلم، حتى لا يرتفع المضر من الأرض ولو صار أهل الأرض كلهم علماء!

يا من جعل الناس فى الحياة كأوراق الشجر، من اليابسة التي تتقصف إلى جانب الخضراء التى ترف، ثم إذا الناس جميعًا كالأوراق جميعًا. يبست فأرفتت[1] فطارت بها الريح تذروها فلا يعلم مستقرها ومستودعها إلا هو!

ويا من خصنى بهذا القلب العاشق الذى يتألم ويضطرب حتى عندما ألمس كتابًا أعرف أن فيه قصة حب، وهو ذلك يتكبر على كل آلامه ولا يخضع أبدًا إلا جوابًا على خضوع آخر، فكأنه لا يدنينى ممن أحبهم إلا لأعرف ما أكرهه فيهم، وكأنه من فرط رقته آلة إحساس جامدة لا قلب حى.

ويا من جعل هذا القلب فىّ كجناح الطائر: لا يطير ولا يرتفع ولا يسمو

(١) أى تفتتت، ومتى يبس النبات وارفت سمى ذراوه (بضم الذال) لأن الريح تذروه.

ولا يتقاذف إلا إذا نشر هو وجناحه الآخر، فلا أبحث عن الحب لأجد الحبيبة وجمالها وحبها، بل قوتى وسموى وكبريائى.

يا إلهى! تقدست وتباركت! إنى لا أنكر حكمة آلامى، فما أنا إلا كالنجم: إن يسخط فليسخط ما شاء إلا ظلمة ليلة التى تشب لونه[1] وتجلوه، ولولاها لما رأت الأعين شعاعة تلمع فيه.

لم تعطنى يارب ما أشتهى كما أشتهيه ولا بمقدار منى، وجعلت حظى من آمالى الواسعة كالمصباح فى مطلعه من النجوم التى لا عدد لها ولكن سبحانك اللهم، لك الحمد بقدر ما لم تعط وما اعطيت، لك الحمد أن هديتنى إلى الحكمة وجعلتنى أرى أن المصباح الضئيل الذى يضىء جوانب بيتى هو أكثر نورًا فى داخل البيت من كل النجوم التى ترى على السطح وإن ملأت الفضاء!

سبحانك اللهم! إن هذا الشجرليتجرد ويذوى ثم لا يمنع ذلك أن يكون حيا يتماسك ويشب، وإنه ليخضر ويورق ثم لا يعصمه ذلك أن يعود إلى تجرده ويبسه. فما السعادة أن تجد الزينة الطارئة، ولا الشقاء أن نفقدها وما الشجرة إلا حكمة منك لعبادك تعلمهم أن الحياة والسعادة والقوة ليست على الأرض إلا فى شىء واحد، هو نضرة القلب!

سبحانك! إن الساخط على الحياة والحياة منك، ليسر إلا كورقة فى شجرة قد بدالها فسخطت شجرتها وعملها ونظامها ولونها فانتزعت نفسها وهوت فى التراب لتخلق أوهامها وتخرج من نفسها على ما تحب شجرة جمال ولون وثمر، فإذا هى أهون على الأرض والسماء من أن تكون إلا ورقة يابسة قد هلكت حمقا وأرفتت رغما وهوانا وضاعت فيما يضيع!

---

(١) يقال فى الحسناء التى تلبس السواد: إنه يشب لونها أى يجعله يتوهج ويتألق.

سبحانك سبحانك!اللهم لا تجعل ما يرفعنى يقذفنى، ولا ما يمسكنى يرمينى ولا ما ينضرنى يجفو بى!

ولما فرغت من ابتهالى، اتكأت إلى حبيبة منهن وجعلت أفكر وأنا أحس كأن كل شجرة تضع قبلة ندية على قلبى، أو كأن غصنًا مطلولًا ينفض طل الصباح قطرات فى دمى.

وسألت نفسى: لم لا يكتسى الشجر كل عام جنسًا من الورق، فإذا اخضر هذا العام احمر من قابل، ثم يصفر فى الذى بعده، ثم يكتسى من الوشى الأزرق فى الذى يتلوه ثم يطلع فى الديباج الأسود، وهلم إلى عدد الألوان خالصة أو متمازجة؟

أذلك لأن الطبيعة عاجزة عن التفنن، أم لأنها شحيحة مقتصدة؟ أم لأن تركيب العالم قائم على أن تبقى الحقيقة كما هى لا تتغير؟ أم لأن كل شىء يستمر على وتيرة واحدة ليظهر جانبًا معينًا من حكمة الله؟ فينشىء جانبًا معينًا من ذوق الإنسان وفكره أم العالم كله كلمات صريحة تقول لهذا الإنسان: إنك أنت وحدك المتقلب المتلون...؟

ثم مددت يدى فهصرت غصنا من تلك الأماليد الناعمة اللينة، فإذا هو ريان تجد مس الماء فى قلبه، ولكنه أقبل فى يدى بعد قليل على الموت وأنشأ يذوى مضمحلًا، فجعلت أتأمله فلم أر جزعًا ولا خورًا ولا إشفاقًا من أمر يأتى ولا حنينًا إلى شىء مضى، فعلمت أن القوة كل القوة ألا يجزع الحى فإذا هو لم يجزع يجبن، وإذا أمن الجبن لم يستذله شىء

ولم يكن الشقاء فى رأيه شقاء بل مصادمة بالحياة لبعض نواميس الحياة، ومضى كما هو جزءًا على وضعه من الكل الذى هو فيه، فتساوق مع الكل وبقوة هذا الكل، فأمن المنافرة واتقى على نفسه آلامها فإن لم ينعم بشىء فقد نعم بأنه راض مطمئن، وما فى المهنا أكثر من الرضا!

قال لى ذلك الغصن الأملد وهو يموت فى يدى ويعالج سكراته: أيها الإنسان الضعيف! هأنت ذا ترانى رؤية عين، وتعرف بى سرعة انقطاع الحياة، وتستيقن منى أن مايجىء بطيئًا يذهب حين يذهب سريعًا، وأن طرفه عين من ساعة الموت تمسح السنين الطويلة والعمر المتقادم وتقفل الباب على هذا العالم كله، فكن غصنًا فى شجرة الحياة، ولكن اعلم مثلى أن الشجرة لا تعرفك مثبتًا فيها بالمسامير ولا مشدودًا إليها بقوة أزلية: فلك منها المنبت على أن تكون قابلًا للكسر، ولك منها الزينة على أن تكون قابلًا للتجرد، وإنما أنت فيها كما أنت لتظهر فيك حقيقتها كما هى، فليس لك أنت حقيقة، أيها الإنسان! أن الشجرة تماثيل يرفعها الله فى كل مكان يوجد الإنسان فيه، لتقول له: كن دائما ذا فروع لتظلل بأبنائك موضعك من التاريخ كريمًا فى حياتك تعطى مما تأخذ، كن طاهرًا تعرف كيف تستمد من كل شىء شيئًا واحدًا يعيش عليك، كن مع جنسك مختلف الظاهر على جرثومتك وموضعك؛ فذو ثمر أو زهر أو شوك- ولكن ابق فى داخلك وعنصرك مع غيرك من الناس على قانون واحد.

يا شجراتى! ما أنتن إلا من بعض صور الحب، ولكن حبكن من النعمة والعافية، إذ لا تنتهى فى النفس معانى شهواتها، بل معانى لذاتها فقط...

أنتن المثل الهنىء الذى لا يؤس فيه ولا حظ، المعبد الذى تحمل إليه الآلام والأوجاع لتنسى فيه هنيهة من الزمن، ولهذا يقبل عليكن الحكماء وأهل النفوس الحاسة والطباع الرقيقة، يأتون بالأنفس الذابلة والقلوب المتوهجة فى ضعفة وسأم، ليرجعوا فى هذه وهذه باللون الأخضر وبروح النسيم فى قوة وعزيمة.

لا بؤس ولا حظ فى القاعدة المطردة التى تجرى على وتيرة واحدة، ولكن حين تختار الحكمة الإلهية شخصًا بعينه لتجرى عليه حكم الشاذ من القاعدة، وتهيىء له الأحوال الشاذة، فهناك إما حقيقة البؤس وإما حقيقة الحظ. وما أصل الهم والشقاءُ فى الناس إلا أن كل إنسان يتمنى لنفسه أن يشذ من قاعدة ما...!

شجرات الشتاء

يممتهن اليوم فإذا هن ذابلات عليهن الضحى عريانًا وكن من ورقهن فى حلل الظل، وفيهن انكسار ذى العارية وكان يتجمل بعاريته ثم ردها فما يتوارى إلا من الأعين التى كان يتعرض لها من قبل... ويحس كأنه أصبح لحنًا من خطأ فاحش فى لغة النعمة واليسار، لا يكاد يظهر نفسه إلا قيل له: يا غلطة تحتاج إلى من يصححها...

ورأيتهن واقفات فى مثل ذلك الحزن النسائى الغرامى الذى يخلط المرارة فى حلاوة المرأة الجميلة فتبدى عن عاطفة مسكينة لا يصورها لك إلا أن ... أن تتخيل جزع لؤلؤة تخشى أن تتحول إلى حصاة.

ذليلات ذليلات كأنهن مطلقات الربيع!

وقالت لى صديقة منهن. لقد كنت فى جانب منا، أفمنحرف أنت إلى الجانب الآخر؟ وكان لك فينا من رأى الحب ما يكسونا مع كسوتنا، أفيكون لك من رأى البغض ما يجردنا مع كسوتنا، أفيكون لك من رأى البغض ما يجردنا مع تجريدنا؟ أم ستقول: طاووس أنسل ريشه الجميل فرده القبح دجاجة، وشجرة سليت زينتها فعادت كأن لم يخلقها الله ولكن أقامها النجار... أم أنت رادنا إلى المسخ فمجر علينا حكم الرجل على المرأة: متى قبحت فى عينه قبحت فى قلبه إذ لا يطلب إلا معنى فيها تحت الرونق

لمعنى فيه هو تحت الدم، فإذا هى لم تعد من إيمانه... كفى ذلك وحده أن يجعلها من كفره...

أظالمنى أنت فتعرف لى ذلا بعد عزة، وتصف لى خضوعًا بعد كبرياء، ولا تضع بإزائى فى ميزان قلبك إلا المعانى الثقيلة التى تلقيها تزن بها ما تكره لكى تملأ نفسك منه بغضًا وكراهة؟

كلا يا صديقتى! إنما تتحولين لأجد منك معنى جديدًا فى نفسى. فكأنك تخرجين منى رجلًا فى الربيع ورجلًا فى الشتاء، وكأنى أعرف بك كيف أتحول فى بعض معانى الحياة من نسيم إلى عاصفة. أنت كالحبيبة المخلصة حين تبالغ فى إصفاء الود، فتمتنع وتهجر لتهب محبها الفكر فى جمالها كما وهبته النعمة بجمالها، فيصيب اللذة ومعناها، ثم يجد الشوق الذى يضاعف معناها. فإنى رأيت الذى لا يفكر فى معانى الجمال حين يمتنع ويبعد، لا يدرك كل معانيه حين يمكن ويدنو.

ومن امتلأ من فقد السرور، كان حقيقًا أن يكون هو الذى يمتلىء من وجوده. فاللذة لذة واحدة بنفسها، ولكنها تتعدد بموقعها وبحالتها وبمقدار فهمها وبقوة الشوق إليها. وما أشبه النفس فى هذا المعنى بقصر العروس. إن لم تتقدم العروس معانيها فتزين القصر وتزخرفه وتكسوه وتجعل فى كل مكان منه جمالا يومىء إليها وزينة تشاكلها وحسنًا يتمها أو يفسر منها- لم تكن العروس على القصر إلا أرملة...

كلا يا شجراتى، فلست ظالمًا فأجرى عليكن حكم المرأة فى شتاء حبها، فإن المرأة متى بردت.. ظهرت كالسحب الثقيلة المطبقة بأرجائها السوداء: لها فى سمائها لون الوحل قبل أن تستوحل بها الأرض...، وبها من الظلمة ملء ليل طويل يموت فيه النهار الطالع وشمسه معًا، ويكلح بها وجه الحب ويبرد ويظلم لتكون فى بلائها مادة إنسانية تقع منها صاعقة...!

آه لو أن شجرة لم تحمل كل أغصانها إلا من قشور الثمر المطروحة فى الطريق، لكانت هذه المرأة أسخف منها، ولو أن شجرة حين أورقت لم تورق من جذعها إلى بواسقها وأعاليها إلا بأجنحة الذباب... ليتقذرها صاحبها، لأشبهتها هذه المرأة!

كلا يا شجراتى، فقد ذهب ربيعى مثلكن، ولم يكن ربيعًا فى قلبى، فسأقضى شتائى وأنتظر أنا وجذورى. إنه عهد ليس أشقى منه لوعة ولا أسعد منه ذكرى إذا جعلنا نحن إلى حياة ليست فى حياتنا، بل ذهبت عنا بحبيب نأى أو حبيب هجر.

عجبا! ماذا يحدث فى الحياة من هنات وهنات؟ تمرض الشجرة فصلًا من سنتها وتشرق على الموت فصلًا آخر[1]، ثم يطير فيها لهب الشمس فإذا هى تغلى بالشعاع وعليها ضبابة خضراء من غليان ألوان الشمس فى جوفها[2]، فليس من جمال إلا وبعض مادته فى أصلها من القبح كما ترى،

---

(١) أى تمرض فى الخريف، وتشرف على الموت فى الشتاء.

(٢) يسمى البخار المجتمع فوق القدر من غليانها: ضبابة القدر وكأنما ورق الشجرة ضبابة خضراء فوقها.

يظهر لك فى الطبيعة الجميلة، لأنها عدوة التصنع، ويخفى فى النساء الجميلات، لأنهن عدوات الطبع، حتى أجمل ما فى المرأة الجميلة، لا تراه بعيدًا من أقبح ما فيها حتى دلال المرأة التى تحبها، فهو بعينه لو حققت، هو معنى ظريف رقيق من.. من.. من وقاحتها...

أين الجزء المسكر فى الكأس إلا مع غير المسكر فيها؟ وأين المرأة الجميلة إلا مع مكروهاتها يغرك منها ما يغر؟

لهفى لأشجار المحبة ... مر فصل ربيعها
جد الهوى فى عرسها ... ليجد فى تقطيعها...!
كل الفتوق لها الرقاع ... ترم من تصديعها
وإذا تمزقت المحبة ... حرت فى ترقيعها...!

obeikandl.com

رسالة الطيف[1]

ألم بى طيفها بالأمس. فاقتحم بناء النسيان الذى رفعته بينى وبينها وألقيت كبريائى فى أساسه حتى لا يرجف ولا يتصدع، وأعليته بهمومى منها، وشددته بعزائمى وثقتى، وجعلته بإزائها كالمعبد من الزندیق: إن يكن لا يسخر من ذلك إلا هذا فما يلعن هذا إلا فى ذاك...!

ولم ينكشف الليل حتى رأيت معبدى أطلالا دارسة قد خلعتها روح السماء فلبستها روح الأرض، فتحول كما يتحول الزاهد فى سمته ووقاره وتعففه إلى الشحاذ فى تبذله وحرصه وإلحافه، وتصدع فنونًا وتبدل أشكالا وسرى طيفها فى نيتى مسرى الزلزلة الراجفة فى بقعتها من أرضها: تشق فى الأرض والصخر والجبل ما يشق المقراض فى سرقة من الحرير[2] بل أسرع وأقطع وأمضى. ولو حدث بعد الذى فعل طيفها أن مدفعًا من المدافع ألقى ظله على الأرض فانفجرت من ظله القنابل تخرب وتدمر وتأتى على ما تناله والمدفع ذاته قار ساكت- لقلت عسى ولعله، وأمر قريب، ولعل المدفع كان امرأة.

---

(١) ألم به طيفها بعد الهجر، فاعتذرت إليه وصالحته وأعطته الرضا، فكتب هذه الرسالة.

(٢) الشقة من الحرير الرقيق، وجمعها سرق (بفتح السن والراء).

ولكن تحت أطلال نسيانى وما تخرب من عزيمتى.. انكشف لى كنز من الخيال دخلته وملكته، ولم أر فيه الدر والجوهر والماس والياقوت فى جسم الأرض، بل رأيت فيه الحبيبة تسطع من جسمها البديع، حقائق كل هذه الجواهر الكريمة، حتى لكأنها والله فى غرابة الحلم حسناء من در وماس وجوهر وأشعة تتلالأ، وما شئت أن أرى صفاءً ولا جمالًا ولا حسنًا ولا فتنة إلا رأيت فيها.

ولكم كنت اتخيل إذ أجلس معها واقلب عينى فى محاسنها ومفاتنها- أن أظافرها المصقولة الملتمعة إن هى إلا لؤلؤ من جوهر جسمها، وأن الحلى على هذا الجسم الجميل إن هو إلا شعل تتوهج من ضوء لحمها، وتورد دمها لا من ذهبها وجوهرها.

غير أنى فى كنز الخيال رأيت ذلك هو الحقيقة بعينها، وعلمت أنه لمعنى جميل تنجذب الحسان إلى الحلى الجوهر، إذ كانت من طبيعة أجسامهن. طيف جاء الروح المهجورة بالحبيبة فاستنشتها كأنما هى نسمة طائفة على روضة من الورود؛ ومر بروحى التى جفتها هى وجرحتها؛ مرورًا أنعم من لمس الشفة للشفة، وغمرها بمحاسن تملؤها ذوقًا وطيبًا، وتحول هو معها روح قبلة مشتهاة على انتظار طويل، ففيه مسها ولذتها وحلاوتها.

وفى الحلم يتجلى الحبيب لمحبه كما هو داخل فى نظام عقله وكما هو مستقر فى أمانيه، فيكون على ذلك كأنه من خلق النفس وتصويرها، فتفتن به أشد الفتنة وكأنها لم تر معانيه فى أحد قط ولا فيه هو نفسه،

ومن هذا قلما ناجى الحبيب حبيبه فى رؤياه أو طارحه الهوى أو الحديث أو نوله مما يشتهى إلا انتبه المحب وكأنه لم يلم به من هذا كله شىء، بل ذاب هذا كله فى دمه حلاوة روح لها طعم ومذاق!

يا للرحمة من طيف يعذب العاشقُ بالرحمة... إذ ينقل الحبيب كله إلا الحبيب نفسه... ويحقق للمحب أمانيه إلا بهذه الأمانى... ويخيم على ظلمة الصد بألوان من نهار يموت قبل النهار... وفى عالم معذب من الهواجس والخيالات العاشقة المستلبة إرادتها، ينصب عالم نعيم من الهواجس والخيالات المعشوقة مستلب الإرادة أيضا، فكأنها سخرية النفس من جنون صاحبها... يا للرحمة...!

وتحت أطلال نسيانى وما تخرب من عزيمتى... ظفرت بمقصورة كأنها من مقاصير الجنة لها جو عبق نافج ملىء من الإحساس الخالد والشعور الطروب، كما ملىء بالأسرار والألغاز، ترف عليه معانى الضحكات والنظرات والابتسامات: تمازجه تعابير الصوت والموسيقى والثياب الحريرية والروائح العطرة، يسبح فى كل ذلك جلال الحب وجمال المحبوب وروحى العاشقة!

وارتفعت حقيقتنا كلينا إلى عالم من الكنايات والمجازات والاستعارات، فكان الحب ثمة يتخذ شكله السماوى فيتسع بالإدراك فى كل شىء، إذ يجعل الحاسية كأنها من حواس الخلود، فلا نهاية لمسرة تتصل بها، ولا نهاية للذة تخالطها، ومن ذلك لا نهاية لأفراح قلبى فى الحلم؟

وكانت هى كل تقاسيمها تعبيرات معنوية، حتى لكأنها صورة متجسمه من أوصاف بارعة فى الحب والجمال خصصت بعلمها أنا وحدى إذ لا يمكن أن يهتدى إليها إلا فيها وحدى، وكنت مع طيفها كأنى ملقى فى حالة من حالات الوحى لا فى ساعة من ساعات الكرى.

ورأيت حبا رائعا معبودًا أشعرنى إذ ملكته فى تلك الخطرات أن الإنسان قد يملك من الجنة نفسها ملكا وهو على الأرض فى دار الشقاء إذا هو احتوى بين ذراعيه من يهواه!

وقالت نفسها لنفسى: هلمى يا حبيبتى فى غفلة هذين المقلين العدوين تهدم عليهما المنطق الذى يعذبنا بأقيسته وقضاياه وإنما نحن روحان فوق الأقيسة والقضايا.

هلمى إلى حكم الحب فى رقدة الفلسفة العنيدة القائمة بصاحبينا قيام محكمة بقاضيين جاهلين معًا مكابرين معًا، فلا يرى كلاهما إلا أن صاحبه هو الجاهل، وبذلك تتضاعف البلية منهما متى حكما!

هلمى، من وراء هذين المتغاضبين إلى شريعة الرضا، فليست إحدانا من الأخرى إلا كالصدى يجيب على الكلمة بالكلمة نفسها، إذ ليست إحدانا إلا الأخرى.

هلمى، فما منا إلا من ضاقت وأعيت بحمق هذين الأحمقين، أحدهما من أحدهما كالصخرة التى تريد أن تبتلع الجبل وهى قطعة منه!

هلمى نتكاشف بالابتسامتين المخبوءتين تحت عبوسهما: الكاذب المنافق، فإن كذب العبوس متى لبس وجه الممثل والممثلة... لم تعد نهاية

فيهما بل فى الرواية، ورواية هذين هى رواية العناد والتعنت التى تمتد من نفسها، لأن كل كلمة فيها إنما هى بين متقاذفين، فلا ترمى إلا ارتدت، ثم لا ترتد إلا لتعود فترمى...

هلمى يا حبيبتى، فإننا تحت هذا الليل نهار مع نهار فى عالم بعيد عن الأشياء وبعيد حتى عنهما...

هلمى، فإننا الآن فى جسدين روحيين لا تحدنا الحدود، وهذان الجسدان النائمان هما هم التراب الذى كلنا فيه، وهما قذى المادة، وهما الخصمان لا نحن، فهلمى يا حبيبتى.

وقالت نفسى لنفسها: هلمى يا حبيبتى فاجعلينى فى روح شبابك الذى ألبسنى الضنى عليّ أنه لو نقل إلى الإجسام لأحيى الموتى.

هلمى فضعينى فى أشعة الخلود من نظرات الرضا التى فى عينيك، لأقوى على هذا الفناء الماحق من هجرك، فإن قربك ليس قربا بل هو إعطاء وبعدك ليس بعدًا بل هو سلب!

هلمى فارفعينى بقوة منك على قوتك الأخرى التى تهلكنى بالخضوع والصبر.

هلمى فلنصالح بين الكلمة ومعناها، فإن هجرك هذا فرق بين ألفاظ الحب وأرواحها، فمسخها كما هى فى كلام، وأنا أريدها كما هى فى الحياة، وهل تحيا كلمة القبلة فى القاموس أم شفتيك؟

هلمى يا حبيبتى نرتفع فوق دنيا الحزن والألم ولو ساعة ليست فى ليل ولا فى نهار بل فىّ وفيك: ساعة ليس فيها ستون دقيقة فى كل

دقيقة ستون ثانية، بل فيها ستون عناقًا فى كل عناق ستون قبلة، فهلمى يا حبيبتى...

عاد الحب أكبر من كلمة، ورجع الرضا أكثر من ابتسام الشفتين، وصار الأذرع حدودًا[1] بعد أن كانت على فضاء وفراغ وحيا طيفها وسلم.

حيا وسلم ثم صافح تاركا يده على الكبد التى أدماها

وأنى ليعتذر الغزال، ولجلجت كلمات فيه[2]، ففى فمى أخفاها

ودنا ليغترف الهوى، فتهالكت أســراره، فرمت به فرماها

قلب الحبيب متى تكلم لم تجد كلمًا، ولكن أذرعًا وشفاها

وانتهى حلم الصلح لتوه لحظة شعرت أنه ابتدأ... فلم يكن هذا الحلم "إلا عملية" حب جراحية مؤلمة فى القلب الذى كاد يبرأ وينسى...

كأنما طفئت من الهجر مكواة كانت محماة على كبدى فجاء طيفها بما معه ليضع مكواة غيرها...!

وأصبحت- والله- أعتقد أن الشيطان لى خلق مضاعفًا لما خلق إلا امرأة معشوقة...!

---

(١) كناية عن العناق، لأن الأذرع تكون حدودًا على الجسمين المعتنقين.

(٢) اللجلجة: التردد فى الكلام وتكرير بعض ألفاظه ومقاطعه قال الطيف: أنا أنا أنا لم لم لم ..... وهذا التلجلج يكون من حدة العاطفة وإذهالها الفكر.

فى العتاب

"وكتب إليها مرة كتاب هوى، فتفترت فى الرد عليه تريد أن يطول به الانتظار فيؤلمه، أو تريد أن تزيد به الشوق فيؤلمه. أو كأنها تطمعه بألا تطمعه ليتألم"!

فلما انتهى فيه دلالها إلى الضجر، كتب إليها هذه الرسالة يؤلمها بها وجعلها على طريقة السجع التى كان يتراسل بها فحول الكتاب فى القرن الرابع للهجرة وما بعده، لأنها هى تكره هذه الطريقة وتجد لها ألمًا فى نفسها، ولذلك مضى بها مسجوعة إلى آخرها، ليبالغ فى إيلامها والتهكم بها وبفلسفتها، وردت فى الرسائل بكل ذلك إرادته على إرادتها، وهذه الرسالة[1]":

كتبت إليك من أيام يشفع لها قربك من نفسى فلا أقول إنها بعيدة وتمر قديمة ولكن ما فى هذه النفس منها ومن آلامها يجعلها دائمًا جديدة وكأنها تجرى بى إلى الفناء فهى تطول إلى غير حد، وتأخذ معنى اليأس الذى يمضى به الأمس فتلقى به فى معنى الأمل الذى يأتى به الغد، والأيام تعد بالأرقام ولكنك أنت جعلت هذه الأيام تعد بأنها لا تعد... وانتظرت رد

---

(1) هذا النوع من العتاب كالذى يقول فيه العباس بن الأحنف:

إن بعض العتاب يدعو العتـ ـب ويؤذى به المحب الحبيبا

فهو عتاب لمحض التهكم وأذى المحب، لا للاستعطاف، ولا الإسترضاء فإن هذا نوع آخر له أسلوب غير هذا، وكبرياء صاحب الرسائل أبت عليه أن يكتب فى هذا النوع الأخير!

كتابى، أو ورقة من شجرة عتابى، فما زالت تتقطع الساعة من الساعة ويلتقى اليوم باليوم، ويذهب اللوم إلى العتاب ويجئ العتاب إلى اللوم، وكتابك على ذلك كأنه مغمى عليه لا هو فى يقظة ولا هو فى نوم..

فسبحان من علم آدم الأسماء كلها لينطق بها وعلمك أنت من دون أبنائه وبناته السكوت... والسلام عليك فى أزلية جفائك التى لا تنتهى. أما أنا فالسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت!

ما هذا يا سيدتى وليس خيط عمرى فى إبرتك، ولا ما يتمزق من أيامى تصلحه "ماكينة الخياطة" بقدرتك، وإن كنت أنا أقل من «أنا» فلست أنت بأكثر من «أنت»، وما علمنا أنك مع القدر تحركت ولا مع القدر سكنت!

أتحسبينك لما خفت« المحاكم» فى قتلى جعلت تقتلين بهجرك أيامى ولما عرفت أنك من أشد سرورى أردت أن أعرف كذلك أنك من أشد آلامى؟ أم أنت فى نورك وظلامك تريدين أن تنقصى من الأعمار، كما ينقص منها الليل والنهار؟ أم تحسبيننا خلقنا بهذه الرقة لنعرف بها كيف يتحجر قلبك ويجمد وأنبتنا الله فى مزرعة العمر ليجيئنا منك صاحب المزرعة فيحصد؟ أم أنت خلقت فى يد الله إرادة ماضية وخلقنا عليك اتكالا، وجئنا على الطاعة شكلًا واحدًا وجئت أنت من يد الله فى الكبرياء أشكالا...؟

فإن كان قلبك يا سيدتى شيئا غير القلوب فما نحن شيئا غير الناس، وإن كنت هندسة وحدها فى بناء الحب فما خلقت أعمارنا فى هندستك للقياس، وهبى قلبك خلق "مربعا" أفلا يسعنا "ضلع" من أضلاعه، أو "مدرًا" أفلا يمسكنا "محيطه" فى "نقطة" من انخفاضه أو ارتفاعه، وهبيه "مثلثًا

" فاجعلينا منه بقية فى "الزاوية" أو "مستطيلًا" فدعينا نمتد معه ولو إلى ناحية...!

ما بال كتابنا يمضى "سؤالا" من القلب فيبقى عندك بلا "جواب" و"نبنيه" نحن على "حركة" قلوبنا فتجعلينه أنت "مبنيا على السكون" ثم "لا محل له من الإعراب"... وما بالنا نقطع فى انتظار الرد مسافة من هجرك لو طار فيها البريد لانتهى بكتب الحسنات والسيئات إلى السماء، ولو طاف الأرض لتقدم حتى لا يبقى فى الأرض أمام وتأخر حتى لا يبقى من الأرض وراء، فإن كنت تضنين أن توجهى إلينا من عرشك خطابًا. أو تنزلى علينا من سمائك كتابًا، فقد أقفل باب النبوة من قبلنا فما هذا الباب، واحتجب الوحى من زمن بعيد فياسيدتى ما هذا الحجاب؟

لعلك تخشين إذا جاءنى كتابك الكريم أن يزعم الناس أن "جبريل أصبح فى الأرض من سعاة البريد، وأن السماء عادت تشرع لأهل الأرض فجاءت فلانًا من فلانة بكتاب جديد، أم لعلك تخافين إن تحرك فى يدك القلم الأعلى أن يتحرك به القدر العاجل فلا يحتمل التأجيل، ثم يجيئنى كتابك فتقوم قيامة العالم المسيحى، لأن هذا الكتاب صفحة ناقصة من الأناجيل..."[1].

لقد هممت أن أعاقب القلم الذى كتبت به إليك فأحطم سنه، وأجعله من ناحيتى فى خبر (كان) حتى لا يبقى من ناحيتك فى خبر (إنه)، وقلت: كيف- ويحك- سودت وجه صحيفتى بما هو فى سواده مداد مع المداد، وفى نفسه سواد أقبح من السواد؟ فقال: وهل أنا فى (نغمات) حبك إلا

---

(1) هى سورية مسيحية كما يعرف الذين قرءوا (رسائل الأحزان) و(السحاب الأحمر)، وهما الكتابان الموضوعان فى فلسفة جمالها وحبها وبغضها.

"عود"، وهل صورت إلا حركات وجدك من قيام وقعود، وسل الدواة من أمدها، والصحيفة من أعدها، وسل أناملك كيف كانت تضغط علىّ كأنها تسلم على الحبيبة سلامًا، ولا تخط إليها كلامًا؛ وسل نفسك كيف كانت فى حركتى تضطرب، وقلبك كان من كلمة يبتعد وفى كلمة يقترب؟

فما ندرى يا سيدى وقد أحببناك أنعدك فى ذنوب الزمان أم فى أعذاره وهل نأخذك فى الحب من وقائعه أم فى الجفاء من أخباره؟ فإن أبيت أن تكونى منا إلا كالسماء من أرضها، وأن نكون منك إلا كالسّنة من فرضها، وأبيت وأنت "مفرد" الحسن إلا أن نعدك أنت وكبرياءك "مثنى" بألف ونون، وإلا أن تكونى على غير ما نريده ثم لا نكون إلا كما أردت أن نكون فإذا خاطبناك قلنا يا فلانتان... ويا أيتها الحبيبتان وياغضباوان وراضيتان وأنشدنا فى هواك: ولو كانت همًا واحدًا... ولكنه هم وثان..."[1] وإن أبيت إلا ما نأبى ولم ترضى مع صدقنا فى حبك إلا كذبا، قلنا لك بلغة اليأس منك: لشد ما أصاب الزمان فينا وأخطأ فليصب بك أو فليخطىء، وكثيرًا ما أعطانا الدهر وأخذ، فلتكونى فيما يأخذ أو يعطى، ونقول: مع الذكر نسيان، وما عسى أن ينقص العالم بإنسانة أو إنسان، ومن ظن "بصرفنا" عن نفسه أنه كبير، جعلناه من "نحونا" فى باب "التصغير"، ومثلنا لا يتكلم إلا بفائدة. ولا يسكت إلا بفائدة. فإن أخطأنا معك فى واحدة اصلحناها واحدة. وما أكثر ما يجد الكاتب إذا عز عليه أن يعاتب، وفى ذكائك لا محالة: بقية الرسالة.

ولعلنا ولعلك... والسلام!

---

(١) جمبة من بيت شعر، وأصله:

ولو كان همًا واحدًا لا حتملته ولكنه هم، وثان، وثالث

فى الأحلام

نصبت لى فى الكرى حباله ... اصطاد صيدًا من الصور
رأيت جسمى انتهى لحاله ... تضىء كالشمس والقمر
فطرت فى النور أجتليه ... محاسنًا تملأ السما
ولا ضوء بلا شبيه ... إلا حبيبى تبسما
فقلت: هل بى يا قلب فيه ... لعلنى أطفىء الظما
ناجيت قلبى بذى المقاله ... فدمدم الأفق بالشرر
صرخت: ما للفضاء ماله ... فقال: فى قلبك الخطر
يا أفق هل خفت من شراره ... تحت الضلوع اسمها الفؤاد
أم سعر الهجر فيك ناره ... توقد من يابس الوداد
أم يوم حب قضى نهاره ... وحل من بعد السواد...؟
فقال: وجه نرى خياله ... فى قلبك الحامل الضرر
ارجع فلو أن ذى "الغزالة" ... تغازل النجم لا نفجر

فى معانى التنهدات[1]

تسكنى قلبى رغبة ما أراها تتحقق له فيتخلى عنها.

ولا هو يتخلى عنها إذ لا تتحقق له.

هى بعض الممكنات الخيالية التى لا تخرج أبدًا من القلب، وكيف تخرج منه ولا مكان لها فى الواقع؟.

القلب وحده مكان المستحيل!

رغبتى كأنها حكم من أحكام الشوق النافذة على قلبى.

حكم عليه بأن يظل أبدًا يريد ويشتهى.

أى حكم عليه بأن يطلب ولا ينال...

يبحث فى الموجود عن غير الموجود.

يراك ولكنه فيك أنت يبحث عنك أنت.

---

(١) لهذه الرسالة خبر يعد من الغايات فى ظرف المداعبة: وذلك أنه قال لها يوما: إنى لأتمنى أن أراك حين تفضين رسالة حبى وتقرئينها فان الحب إن يكذب على إنسان لا يكذب على ورقة... فقالت: بل هذا ما أريد أنا لأرى كيف تكذب حتي على ورقة؟ ثم سألته أن يضع هذه المعانى فى هذا الموضوع الطريف لتنظمها قصيدة باللغة الفرنسية، فأتعب نفسه فيها وكتبها وبعث بها إليها، ولبث أياما ينتظر كتابا منها حتى جاءه، فلما فض غلافه رأى كلامه بحروفه ولكن... ولكن بخطها؛ أتراها تخاطبه بها أم كأنها نسخت له صورة من مقالته التى عندها بخطه فلا رسالة ولا خطاب أم تقول له: أنا كالذاهلة من الهوى.

obeikandl.com

وأنت كسبيكة الذهب: ليس فيها موضع أحسن من موضع ولكن قلبى مع ذلك يظل يبحث عن الأحسن.

قلبى المسكين محكوم عليه، لا بالأشغال الشاقة، ولكن بالأمانى الشاقة...

رغبتى ستبقى دائمًا بين معانى التنهدات

فى مكان من القلب لا تتحرك فيه كلمات إلا تحركت معها كلمة آه...!

أتدرى أيها الحبيب ما هى رغبتى؟

هى أن أراك حين تتلقى رسالتى وتتلوها.

لأرى حقيقتك كيف تكون وليس أمامك إلا حقيقتى، ولأرى بنفسى كيف ترى نفسى مكتوبة.

ولأعرف برأى العين: أنا أرسل كلماتى أم خفقات قلبى.

ولأنظر كيف تخرج لك أسرار الكلمات من الكلمات؟ لأرى، وأعرف، وانظر...

ولكن يا صديقى، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إلى، فلا تكون ورقتى إلا ورقة، ويشغلنى عن رؤيتها أنى أراك، ويصرفنى عنها أنى منصرفة إليك، ويكون عقلك قد استولى على عقلى، وتذهلنى أسرار عن أسرار، فلا أرى، ولا أعرف، ولا أنظر...

ومع ذلك أتمنى أن أراك حين تتلقى رسالتى وتتلوها، لأرى كيف تتلقانى من خيالك حين ليس معك إلا خيالى؟

ولأعرف رأى العين أن هواى جزء منك، وأن كلماتى هى لمسات من قلبى لقلبك، ولأنظر كيف أكون لديك فى صورة رسالة؟ وأضحك من رؤيتك الورقة وجهًا له فم تقبله... لأرى، وأعرف، وأنظر...

ولكن يا صديقى، لو رأيتك حينئذ لكنت أنت رسالة إلى، فلا تكون ورقتى إلا ورقة، وينسينى إياها أنك حاضر معى، وتموت الكلمات المكتوبة كلها فى كلمة واحدة تنطق أنت بها، وتحول معرفة دون معرفة، فلا أرى، ولا أعرف، ولا أنظر

إذن فرغبتى ستبقى دائمًا بين معانى التنهدات، وقد تحركت الآن بكلمات الأمل، ولكنه الأمل الخائب الذى تأتى دائمًا فى آخر كلماته، آه. أه...!

obeikandl.com

أليس كذلك
نظرة حب إلى الكون

إن شيئين هما أروع ما نعرف وما نجهل: أحدهما: ذلك المجهول الأعظم المنبسط وراء العقل يترامى قفزًا فى قفر إلى مالا نعقل من أسرار اللا نهاية، والثانى ذلك المعروف الأعظم المختبىء وراء القلب يتعمد صفة فى صفة إلى مالا ندرك من أسرار النفس.

وفى ذلك التعقيد السماوى تلتمس الروح وضوح الألوهية ونعيم الجنة الخالد، وفى هذا التعقيد النفسى يلتمسون وضوح الحب ونعيم الحبيب المعشوق.

أليس كذلك يا حبيبتى؟!

كل ما فى الكون هو من الضرورات لوجود الكون لأنه ممتلىء لا ينقص، وما كان ضروريًا فهو مذهب واحد ليس فيه ما هو أكبر ضرورة ولا ما هو أصغر، الكبير الكبير: كالصغيرة الصغيرة، ولو أن مكانا ليس فيه نفس واحد من الهواء لقتل الحى كما يقتله انتزاع كرة الجو كلها من مخارق هذا الفضاء[1].

وكل ما فى الحبيب هو من ضرورات عشقه إن صح العشق، فكأنما هو يتجه أيضًا مع الكون إلى اللانهاية، بل كأن كل حبيب فى خيال محبه إنما

---

(١) أى من حيث ينخرق الفضاء، أي منه كله.

هو الوسيلة التى استطاع الكون أن يعبر بها عن جماله لإنسان فى إنسان ببلاغة تختلف مع الأذواق كما تختلف البلاغة الإنسانية، هذه يقولون فى تعريفها إنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتلك يقول الكون نفسه فى تعريفها إنها مطابقة الشكل الجميل لمقتضى الإحساس.

يضيق هذا الكون ثم يضيق حتى كأنما يجتمع عند العاشق فى المعشوق وحده، وبهذا لا تجد حبيبًا إلا بلغ عند محبه ما تناهى إليه الحسن فى أرضه وسمائه، حتى لهو الشمس والقمر وكل ما جرت فيه أشعتهما من ذهب الجمال وفضته، وبذلك جمعت اللغات أحسن ما فى الكون وأجرته فى تشبيهات الحبيب وألفت من ألفاظه لغة الحب.

فهل يكون فى العقل من هذا ومن ذلك إلا أن الكون قد تناول النفس العاشقة حين ضاق ثم ضاق، فوسعها ثم وسعها حتى أفاضها من معانى الحبيب على المعانى الأزلية، وجعل عهدها بالحب أيامًا فى لذتها، أو نكدها كأنها ليست من أيام هذه الدنيا؟ لعمرى لو أمكن أن تأتى إلى الأرض رسالة من إحدى الحور العين فى السماء لما أمكن أن يتلقاها إلا عاشق على شفتى حبيبته أو خدها، ولو بعثت الجحيم برسالة من زفيرها وشهيقها؛ لما وقعت إلا فى صدر عاشق يتلهف من هجران حبيبته أو صدها!

أليس كذلك يا حبيبتى؟

فى الكون حياة أبدية فياضة لا تفتأ تعمل بالسلب والإيجاب، كأن

هذا الكون العظيم يتحول فى كل لحظة ليخلق، فهو فى كل لحظة صورة جديدة، وما كان فيه سلبًا فهو الذى يجذب فى مذاهبه وتصاريفه، وهو مبعث القوة المبدعة، وهو الذى يحقق أشكال الحكمة فى جلالها.

وفى المعشوق حياة فياضة تخيل لمحبة أبدية وهى إلى وقت، ولا تزال كذلك تعمل فى خيال محبه، بالسلب والإيجاب، وهى السر فى بقاء الحبيب طريفًا جديدًا ما بقى حبه، كأنما يتحول فى كل يوم ليخلق، فهو فى كل يوم صورة غير صورة أمس، وهو دائمًا معشوق الساعة وقد خلدت عليه النظرة الأولى، وكل ما تكرر منه من ضحكة أو كلمة أو نظرة أو ما إليها جاء لوقته كأن فيه حياة.

وكأنه مولود لا مصنوع، ولدته رغبتك ولم يصنعه هو، فأنت تتلقاه كما يتلقى الأب أو الأم أولاده وقطع كبده؛ لا يزال عليهم كل يوم طابع قلبه.

وما كان فى الحبيب سلبًا فهو الذى يفتن فى دلاله وامتناعه وهو مبعث سحر الجاذبية، وهو الذى يحقق من جماله الخيالى أشكالًا تتلهف عليها الروح لهفة الظمآن الضائع فى القفر على تموج السراب وصبغة الرمل الجاف الملتهب بلون الماء البارد الصافى.

يمنعك الحبيب ما تشتهى منه، فإذا هو قد منحك الخيال ولذته وسحره، وإذا هو قد جعلك بالسلب كالمرآة لا تتلقى إلا لتعكس- فأنت للحب والشوق، ولكنك أيضًا للتفسير والتعبير، وتجد فى قلبك من أثر ذلك النقص تكامل الحياة، ويصبح عندك فهم الجمال جزءًا من الخلق والفكر، كما هو فيك جزء من الحاسة والعاطفة، فإذا نار قلبك تحرق

المعانى، وإذا كل شىء يتفجر لك عن ضوء أو شعلة: ويحقق لك الحب: أن الله نور السموات والأرض:

يا حبيبتى أليس كذلك؟

إذا لم يكن ما نعده بغيضًا شيئًا مفصولا عن الكون فهو- لا ريب- من ضروراته، وهو بهذا من أجمل جماله فى معنى التكوين والإبداع، غير أننا لا ننظر منه إلى هذا المعنى، ولا نعتبر صلته بالوجود، بل ننظر إليه بمعنى التكوين الذى فينا ونعتبر صلته بنا، فلا يكون من هذا إلا أنه قبح وسمج من قبحنا لا من قبحه.

فالكون بما فيه من أثر الخالق هو اتساق واحد منسجم لا شذوذ فيه ولا تنافر ولا قبح ولا بغض، ولكننا نحن بما فينا من قوة الخلق[1]، نتمرد على الانسجام والاتساق، إذ لا نملك من ضعفنا إلا خلق هذا التمرد، وتتطلع شهواتنا ورغباتنا إلى شىء ما فيكون جميلًا وحبيبًا، وتنصرف عن شىء ما فيكون قبيحًا وبغيضًا.

ومن هذا فليس فى الكون إلا الحب والجمال والخير إذ سقطت الشهوات، إذ كل شىء حينئذ يكون مقصورًا على حقيقته التى لم نفسدها بتغييرها، لأن قبح شىء من الأشياء إنما هو صورة انحرافنا عن إدراك لا حقيقة وجهلنا بناحية اندماجه فى قانون الاتساق الإلهى.

---

(١) لا تستعمل كلمة الخلق للانسان إلا فى إيجاد الأوهام والخيالات والصور الكاذبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾، أو فى التحويل ومنه قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾، ولا تجوز غير ذلك مما يستعمله ضعفاء الكتاب فى هذا العصر.

أفليس بذلك يكون المعشوق الجميل كأنه تهذيب علمى لروح من يهواه، وتدريب له على الاندماج بفكره وعاطفته فى جمال الخليقة؟

أليس بذلك يكون المعشوق الجميل هو الوسيلة التى يتعلم بها العاشق علم قلبه أى فن الارتفاع بالأشياء الجميلة عن سذاجتها الفطرية وإكسابها فى روحه الإشراق الإلهى؟

أليس بذلك يعمل العاشق فى جمال العالم، ويكون الجزء الإلهى فيه هو الذى تحرك للحب لينكشف حبيبه بمعانيه السامية، ويشهد جمال ذاته فى الصورة الجميلة التى يهواها، حتى ليستطيع أن يقول لحبيبه: يا نفسى ويا روحى! وهو يحس أنه على الحقيقة نفسه وروحه، إذ يرى أنه متعلق به تعلق الطفل بروحه الكبيرة فى أمه وأبيه؟

وهل غير الحب علم الإنسان كيف ينادى روحه ونفسه فى غيره؟

أليس كذلك يا نفسى ويا روحى...؟

النجوى

وبى زهرة فى جانب النيل قد نمت ... فرف عليها إذ يروح وإذا يغدو

لطافته فى طبعها الحب والرضا ... وتياره فى طبعها الهجر والصد

ويحكى وفاء النيل فيض وعودها ... وياشدما ينحط من بعدها الوعد

وفى زمن تصفو على كما صفا ... وفى زمن ما من "تكدرها" بد

ووالله ثم الله، إن حلاوة ... من النيل للعينين فى فمها تبدو

وإنى وإياها على ظمإ الهوى ... أنا الفم هذا الهوى وهى الخد

آه! وأنا حين أقول آه، أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة فى قلبى!

آه! وأنا حين أقول: آه، أشعر أن قلبى يمدها طويلًا طويلًا لتصل إلى قلب آخر!

آه! وأنا حين أقول: آه، أرانى كأن روحى طارت إلى آخر مدها ووقعت!

وكنا فى يوم من أيام الربيع وكل شىء حولنا يتكلم بلغة الشمس فى لمعة وضوء وجمال، وفى الأزهار معانيها الغزلية التى بها وحدها تظهر الطبيعة فى رقة امرأة عاشقة.

وفى الهواء نسمات بليلة متعطرة قد خيمت فيها قبلة معترضة[1]

(١) خيمت الرائحة فى الثوب أو المكان: إذا أقامت.

كأن الرياض فى نشرها الزكى[1] مصانع يقلد فيها الربيع صنعة أنفاس الحبيبات.

وفى الزمن ذاتية واضحة اشعرتنى أن كل ما حولى هو تعبير يهم أن يتكلم. وكأنما سقط قوس قزح من السماء وماجت ألوانه بعضها فى بعض فغطى الأرض ألوانًا شتى بأزهارها وأعشابها.

وكأن السماء ما زجت قلبى تلك الساعة فأضاءته بنور الفجر الندى العبق بالنسيم. الملون بالشفق، المتحرك بالسحاب. وكنا فى صباح جميل يشعرنا بكل ما فيه أن شمسه طلعت لنا وحدنا.

وكان كل شىء يرف ويزهر كأنه طبع بقبلة من شفتيها.

وبدا الصباح عليها بمعانى الرياض، وعلى الرياض بمعانيها هى، فاجتمع نشاط الكون ونشاط قلبى، وتقتلت كما تتقتل[2].. وقالت ضاحكة: لاأحبك!

قلت: إن فيها "أحبك" وهذا يكفى!

قالت: وزادت فى ضحكتها: أعنى أبغضك!

قلت، ولكنه بغض من تضحك كما أرى...!

قالت، وزوت من وجهها وتكلفت العبوس قليلا: أعنى...!

فابتدرتها أقول: إن تكلف وجهك ينطق بأنه لا يعنى...!

---

(١) النشر: الفوح الطيب.

(٢) يقال: تقتلت له المرأة، أى تعرضت له، هكذا فسروه، والتعبير من أدق ما في لغات البشر قاطبة، ولا نظن أن فى غير اللغة العربية ما يقاربه ومعناه: أن المرأة الجميلة حين تتعرض لحب الرجل تبرز مقاتل أنوثتها واحدا واحدا، فكأنها تتقتل له.. وهذا تعبير دقيق جدا إلى الغاية.

فذهب بها الضحك مذهبًا ظريفًا وقالت: الآن قطع بك[1]، فلقد كنت أريد أن أقول "أعنى أحبك" فنفيتها أنت فانتفت!

قلت: بل الآن وصل بى... وما دمت قد قلت "أعنى أحبك" وأثبتها أنت فثبتت...

قالت واستطلق وجهها: إنى والله أجد من سرورى أن أعجزك ولكنك داهية لا تعجز، ولا يزال فى لسانك جواب ما أقوله وما لم أقله!

فقلت: وأنا والله أجد من سرورى أن أقدر، ولكن هل أقدر على ما هو مقدر؟ إن بعض كلماتك هى الآن كلمات، ولقد تكون غدًا حوادث!

فاعترضتنى قائلة: أنت تنظر فى نور من خيالك مع نور الطبيعة، فترى أشياء كثيرة غير الأشياء.

قلت: ولكنه هو النور الذى يقيد الطبيعة كلها بمنظر واحد...

قالت: أهو منظر جميل؟

قلت: بل الجمال بعضه.

قالت: وما عسى أن يكون باقيه إذا لم يكن الجمال إلا بعضه؟

قلت: إن فى قلبى كلامًا يسمع من غير أن أتكلم به. وفيه جواب سؤالك!

فاستضحكت وقالت: وعلى هذا فهمت من غير أى أفهم... ألا قل لى، لماذا تكون لغتك هكذا؟

---

(١) انظر الرسالة السابعة من «رسائل الأحزان»، ففيها ما يشبه هذه المحاورة الطريفة على طريقة أخرى، وهناك وصف مجلس كهذا المجلس.

فقلت: لأن الحب يجعل كل سهل واضح فى الأشياء غامضًا معقدًا فى النفس، وهذا هو سره، وبهذا يرتفع عن الإنسانية ويجنح إلى التأله، وبسره وتألهه يخلق كل ما يمسه فى صورة ثانية مع صورته التى تقوم به، فيجعله بصورتيه من الكون، ومن النفس العاشقة أيضًا، وليس من شىء خلق مرتين، ولكن أشياء الحب كلها كذلك خلق ثم خلق.

ليت شعرى، أيعذب العاشق المسكين بهذا التأله الخيالى فيكون عقابًا شديدًا بطريقة غير أرضية؟ أم ينعم به فهو ثواب عظيم بطريقة غير أرضية كذلك؟

إنه لسر عجيب رائع فى قلب من تيمه الحب، يدل عليه انه ما من عاشق إلا وهو يرى أن رضاه عن جمال حبيبته، وتكوين أوضاعها وتناسقها ومشاكلة بعضها بعضا، كرضا الصانع عن صنعته وأفتنانه بما أبدع واخترع وبما أتقن وأحكم، كأنه هو قدر وسوى، وسوى وخلق، ولو جاز أن يهبه الله القوة على أن يذرأ ويبرأ، ثم أمره أن يخلق لنفسه امرأة، لما صنع إلا هذه التى أحبها بكل ما يحبه فيها، وإن لم يستطع الحب أن يخلق إنسانًا فهو يخلق إنسانية.

بذلك لا يفهم هذا الحب إلا فى أسلوب ملتو، لأن طرفا غائبًا وراء النفس، كالعود من الأعواد غمس أسفله فى الماء فلا يتراءى للعين فى صفحة الماء ملتويًا متثنيًا، ولا يعمل من ذات نفسه، بل بموضعه وبتأثير أحكام الضوء فى موضعه.

والحب يشبه ألوهية دون حدها، فهو بهذا مفهوم غير مفهوم، ويشبه إنسانية فوق حدها. وهو بهذا أيضًا مفهوم غير مفهوم، ولا نراه أبدًا إلا

مصرحا غامضًا. إن صرح من جهة الحاسة غمض من ناحية الفكرة وكل دونه هو فى النفس يأتى من بعده فى الموضع والقيمة والاعتبار، لأن فى الحب وحده المعنى الأكبر للحياة فى وهم المحب، على حين كل ما فى الحياة هو فى الواقع أكبر منه، ولن يعيش من لا يأكل ولا يشرب، وعلى أن من لا يحب نراه يعيش[1].

قال وضحكت : بذلك لا يفهم الحب، وبذلك استطعت أن تجعل لغتك هكذا...

قلت: وبذلك أيضًا استطعت أنت أن تجدى مخابىء لغوية كثيرة تخبئين فيها الكلمة التى تريدين النطق بها ولا تنطقينها، فصارت لغتك عندى تفسر من معجمات كثيرة: من نظرة والتفاتة وخطرة وحركة، ومن شىء ومن لا شىء، وتقولين الكلمة بما شاء دلالك من أساليبه الكثيرة، إلا بأسلوب النطق كأنها تراغمك على أن تظهر وتراغمينها على أن تخفى. أتعلمين أنك كالدولة من الدول العظمى، حاشدة كل وسائل الحرب معدة لها فى كل وقت، فهى بذلك ظافرة غالبة من غير حرب، كأن وسائل الحرب تقاتل من غير أن تقاتل؟[2].

قالت: يا ويحك! فإذا قبلت منك أنى دولة عظمى، فكيف أقبل أنى "أكاديمية"، عظمى... حتى تجعل لى معجمات كثيرة؟ وترى ما الذى يمكنك أن تفسره من معجماتى؟

---

(١) قالوا: اجتمعت أديبة بمحبها، وشغلهما الحديث ومر وقت الطعام فقال: مالي لا أرى ذكرًا للطعام؟ فقالت له: أما فى وجهى ما يشغلك عنه! قال: بأبى أنت وأمى لو أن جميلا وبثينة اجتمعا يوما لا يأكلان ولا يشربان لبصق كل منهما فى وجه صاحبه وانصرفا.

(٢) تمنع الاعتداء فكأنها تقاتله وترده الدولة المستعدة، إذ يقيها غيرها.

قلت: يا ويح غيرك![1] أمكننى يا جبارة المستحيلات ما أمكن الغزال من جبار الممكنات...

قالت: أسالك عن مستحيلاتى، ولكنى ما هى ممكنات غزالك؟

قلت: إن غزالى هذا كان فيلسوفًا لا يصدق إلا ما يقره، ولا يقر مالا يمتحنه، على طريقة الفيلسوف (كانت)[2].. ولم يكن رأى سبعًا قط، وهولوا عليه فى أوصافه ورهبته وسطوته، فلم يصدق شيئًا من ذلك إلا أن يراه ويدرسه درسًا تحليليا، كما تسمين أنت كلامك وفلسفتك قالوا فأطال الغزال الفكرة فى ذلك، ودبر أن يلقى الأسد ويدرسه ثم إنه قسم الدرس إلى أعمال خمسة على هذا النسق فالأول أن يتجسس مخالب السبع ثم يعجمها ويدق عليها بحجر ليعرف مبلغ صلابتها ويقف على سر تركيبها.. والثانى ألا يكتفى بمثل هذا الصنيع فى الأنياب، بل قرر أن يحطم واحدًا منها.. ليعلم ما سر قوتها ومضائها، والثالث أن يتناول عضلات الأسد فى زوره ورقبته وأعضاده فيغمزها غمزًا شديدًا لعلها من ورم أو شحم وما يدرى الناس، والرابع أن يجىء بالموسى فيحلق لبدة الأسد فيكشف عما تحتها ويرى منظره وقد عرى منها، فلعلها من شعوذته فى القوة واحتياله على مظهرها ورهبتها، والخامس أنه متى فرغ من كل ذلك حملق فى عينى الأسد ودرس

---

(١) يقول العرب: ويحك! واستعملها عدى بن الرقاع في شعره: ويح غيرك، اضطرارًا لإقامة الوزن، ولكنها بذلك تكون فى غاية الظرف إذا وقعت فى مثل موضعها هنا.

(٢) هو الفيلسوف الألمانى الشهير المتوفى سنة ١٨٠٤، وكتب على قبره (الناموس الأخلاقي فى، وسماء النجوم فوقى) وكان فى دروسه يجعل الأخلاق والدين فوق كل شىء، ومذهبه فى البحث والامتحان أساس التفكير المستقل.

ذلك اللمح المخيف من شعاعهما، فإن لم يبلغ من ذلك ما أراد علمه وفلسفته اقتلع إحداهما وأسالها وبحث فيها ما شاء!

قالوا: ولما جاء العرين وأصبح من الأسد بمرصد وهبت رائحة لحمان أجداده... قال: النجاة النجاة! ما هذا بالذى خلقت له فلسفة رأسى ولكنه الذى خلق له عدو ساقى.. ووثب يشتد مع الريح[1].

ولكن آه من تعقيد الحب، إن الفيلسوف المتهزم الآن هو الأسد بلبدته وأنيابه ومخالبه وبكل ما هو به أسد، والمنتصر هو الغزال بلينه ونعومته وبعينه الكحيلة وبكل ما هو به غزال!

قالت: آه! ولم تزد.

قلت: آه! أنت يا حبيبتى فى، وأشعر بك دائمة الاندفاق والانصباب فى نفسى، كأنك جمال لا ينتهى، كأنى عشق لا يمتلىء وأنت خارجة عنى وبى شوق دائم النزوع إليك، يخيل إلى والله أنه ملء الكون لا ملء صدرى: وأنه لا يزال شاردًا متسحبًا على الوجود كله لا يجد ما يستقر عليه، مع أنه واجدك، ومع أنه حائم عليك، وما ذلك إلا لأنك دائمة الدلال، أى دائمة الانحراف عن لمسات قلبى، أى دائمة الاهتزاز بمعانيك الجميلة، كيلا تثبت صفة منك على صفة منى، كيلا نتعانق حتى ولا فى المعانى.

أنت اثنتان عندى وليس فى يدى من واحدة شىء، وإذا كثرت الآمال

---

(١) ترى أمثالا من هذا النحو فى كتابنا (تحت راية القرآن) وفى النية إن شاء الله وضع كتاب منها فى معارضة كتاب كليلة ودمنة، فإن العربية خالية من كتاب فى ذلك تسميه كتابها وتقابل به ما فى اللغات الأخرى، كما كانت خالية من رسائل الحب.

قلت: وانظر ما كتبنا عن ذلك فى ص ١٦٥ من كتابنا (حياة الرافعى)

لتكثر حسرات الإخفاق عليها، فلماذا لا تقول إن الأمل هو الاسم الصحيح للخيبة؟

إنك لى كالرؤيا من الرؤى السماوية، فالتى هى أنت ليست فى التى هى أنت، وبذلك فالتى أحبها فيك لا يمكن ان أجدها فيك[1]، كأنما نتلاقى فى عالم بعيد من وراء ظواهرنا.

كأنما قامت منا فى الحب حدود دولتين، فلن يتقدم حد منهما إلى حد ويكون بينهما سلم، ولا سلم إلا فى هذه الوقفة الثابتة، ولا إخلاص ولا محبة ولا ثقة إلا أن يدق مسمار الزمن فى كليهما فإذا هو من الآخر بعيد على قرب قريب على بعد![2]

كأننا نعيش فى أمس، يجىء يلبس كل يوم من أيامنا لا قوة تناله فتنزعه، ولا قوة تناله فتبليه، فما تزال تتجدد من تحته أيام الحب فى سر منا، ونعطى كل يوم عالمنا ولا نأخذه ولا نتلقاه!

كأننا فى يوم هجر خالد علينا، فكل ما يأتى بعده من الأيام ميت فيه لا محالة، إذ أيام الحب إنما هى بنسبتها إلى الحبيب لا إلى الزمن.

كأن هذا الحب قد ضرب بيننا وبين الحقائق بسور ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، فكل ما رأيناه رأى العين من فرح الأشياء ولذاتها، علمناه فى علم أنفسنا أوجاع مكابدة وآلام حرمان...!

---

(١) أى هو يهوى التى يهواها ليجد فيها مسرات الحب، وهذه ليس فيها إلا عذاب الفلسفة.. كما يعرف من وصفها فى «رسائل الأحزان».

(٢) إذا كان السلم بين دولتين متجاورتين، فأبعد الأشياء مثالًا عن كل منهما حد جارتها الذى هو أقرب الأشياء إليها.

فأضجرت فلسفتها هذه الفلسفة فقالت وابتسامتها ظاهرة على قولها: وأما قبل؟[1]

قلت: وأما قبل فكأنما أنا المكان الحى الذى تئن فيه الأشياء أنينها الباكى، وتبتغى فيه موسيقى الحب من أوتار متقطعة متبعثرة إن جاءت بشىء فبأنغام موتى أو مرضى، وإنى لأحسب الدنيا كلها تصدح من حولك تلقين فيها النغم ثم لا تحبسين الصمت إلا لى أنا وحدى.

قالت أف للشاعر من الشاعر نفسه! أنت كما تريد من الحياة مسرة لابتسامك تريد منا آلاما لعبوسك الشعرى، وإذا لم تجد الألم أوجدته واخترعته، كأنه لا بد لمن يصنع شعرًا أن يصنع مقادير يفرح بها ويحزن!

ما أرانى أفهم عنك حين تقول: السماء والطبيعة وهى، الشمس والقمر وهى، والخير والشر وهى: فأنت وحدك تفهم هذا، لأن للشعراء شياطينهم، فلك مثلهم شيطان يحدثك وتحدثه، وترى ما اسمه.

قلت: اسمه "هى"...

وكأنما كان الشيطان غائبًا فى سفر طويل ورجع عند ذكر اسمه، فلما رآها هى اسمه ألقى فيها سحرًا من سحره فإذا على ثغرها برهان ثغرها... وقالت: اسكت!

قلت: لقد عرفنا الشيطان باسمه...

قالت: اسكت!

---

(1) مرت رسالة (أما قبل) فانظر فيها وفى سبب هذه الكلمة ومعناها.

قلت: ما يسكتنى ولا الشيطان نفسه.

فمدت إلى نظرة طويلة كلها براهين على قوة هذا الشيطان الفاتن، وقالت اسكت اسكت!

ثم لا أدرى ما الذى أسكتنى حينئذ؟ أحسب أن الشيطان سد فمى بفمه.؟

آه! وأنا حين أقول آه! أحسبها شعلة تتلوى ذاهبة ممتدة فى قلبى!

آه! وأنا حين أقول آه! أشعر أن قلبى يمدها طويلًا طويلًا لتصل إلى قلب آخر!

آه! وأنا حين أقول آه! أرانى بعدها كأن روحى طارت إلى آخر مدها ووقعت، آه!

obeikandl.com

هل أخطأت..؟

قالت له يومًا فى أمر من الأمور:" قد أخطأت!" وغضبت أو تغضبت فكتب إليها هذه الرسالة:"

لقد قلت يا حبيبتى إنى أخطأت، ورميتنى بها كلمة مقفلة لا منفذ منها ولا مخرج، ولا أدرى والله كيف أخطأت، ولكنك لما قلتها وتغضبت فيها وتعتبت لها أثبت فى الكلمة معناها...

ولو أنى راجعتك فى ذلك مئة مرة، ولكل مرة برهان ومع كل برهان اقتناع، لما استطعت أن انتزع دلالك أو نعتك من هذه الكلمة. فأنا بدلالك أخطأت لا بعملى، وبرغبتك فى الإساءة إلىّ قد صرت مخطئًا لا بإساءتى، والتهمة ثابتة عندك لا بواقعة ولا دليل ولكن بثبوت حبى لك...! ولقد نظرت إليك حين قلتها ونظرت إلى، فكانت شفتاك تتهمان وعيناك تعتذران، وكان لسانى يعتذر وعينى تتهم، وكانت الكلمة نفسها تكاد تقول: ما جئتك لأدل على معنى وقع منك أنت؛ بل على معنى وقع فيها هى.. وقد اعتدت منك فى بعض حالات قلبك أن لا تضعى المعنى فى اللفظ الذى هو تعبيره؛ بل فى الذى هو تعبير ما بينى وبينك، فمعنى قولك إنى أخطأت، يجىء فى تعبير آخر كأنك تقولين: تذلل لى.

لا تزال الكلمة كلمة من اللغة حتى تقوليها أنت، فإذا هى كلمة من الفن؛ وإذا فيها ذاتية وحياة ولها تاريخ؛ ولو بمرورها من شفتيك!

أنا أخطأت لأنى لم أخطئ... فهى كلمة حب من معناك أنت لا من

معنى الخطأ اللغوى، ولذلك أقرها، فإذا قلت لك: نعم تجىء هكذا: هل ترضينى؟ نعم أرضيك؛ ألست تطيعنى؟ بلى أطيع؛ هل تتذلل؟ نعم أتذلل؛ هل أخطأت.. نعم أخطأت؛

وأرضيك، وأطيع، وأتذلل: كلها بمعنى أحبك أحبك أحبك؛

فمارميتنى بخطأ ولا أجبت بإقرار ولا بقيت للكلمة عقدة تمسكها فى معناها، ولو رأينا لرأينا الحب يضحك فى هذه اللفظة بمقدار ما تعبس فيها اللغة؛

وكلمات الحب كلمات يتغير عليها الحس فتفهم على أوجه مختلفة وتشاكلها معان كثيرة: وكأن طريقة قولها تخلق فهمها، فما هى من عام اللغة بل هى من خاصها، إذ اللغة بين أهلها جميعًا وهذه بين اثنين خاصة، واللغة ألفاظ مفسرة بما تلبسه، وهذه تفسر بما يلبسها، واللغة تشير إلى الموجود إذ لا يراد بها إلا التعبير للفهم، وهذه تشير إلى غير الموجود أيضًا إذ تريد مع الفهم العاطفة ولا بد أن يعطى فيها القلب إرادة.

ورب كلمة ينبذها إنسان لإنسان فإذا هى على قلبه كالريح السافية تعقد فى الظهيرة ضبابًا خانقا من تراب الأرض.. فإذا ما لفظها حبيب لحبيبه نسمت على قلبه كرويحة الفجر فى ضباب من الطل والندى، على حديقة ملتفة، إذ كانت هناك فى منطقة اللسان وكانت هنا فى منطقة القلب، وكانت ثمة فى جو من عداوة قائلها وكانت هنا فى جو من حب قائلها؛

أنت علمتنى بحبك أن هذا الكون على اتساعه موضعا خاصا بقلبى وحده، فمهما اتسعت اللغة فى مذهب تعبيرها ففى قولك إنى أخطأت معنى خاص بى وحدى يا حبيبتى.

وأنت أريتنى أن الجمال هو تصوير الحياة بك، فكلامك لى هو تصوير اللغة بك وحدك أيضًا يا حبيبتى...

وإذ ابتسمت وقلت إنى أخطأت، فتلك ألفاظ متبسمة من دلالها، وإذا عبست وقلت إنى أخطأت فتلك ألفاظ متعنتة من دلالها، إذن فاعملى أن فى كلمات غضبك معنى كذلك أراه لى وحدى يا حبيبتى...

وكلام الكبير مع الطفل يكون بلغة واحدة وهو فى الحقيقة بلغتين لمعنى عاجز فى الطفل[1]، وكلام الحبيب مع الحب بلغة واحدة هو كذلك بلغتين لمعنى قادر فى المحب: فالمعنى المفهوم من إحدى اللغتين فى قولك إنى أخطأت، هو يا حبيبتى لى وحدى وكما أفهمه أنا وحدى..

وإدلالك على برهان خاصيتك منى، فلم لا يكون اتهامك إياى برهان خاصيتى منك؟

سأتذلل لك يا حبيبتى وسأرضيك وسأطيعك و. وسأخطىء...!

(١) الكبير قوى فى الإدراك محيط بصور كثيرة من المعانى، والطفل قليل الصور الذهنية فى إدراكه فيفهم من كلام الأول إذا فات قدرته عجائب وغرائب فى لغة ليس فيها عجيب ولا غريب، وكذلك المحب يتأول الكلمة من حبيبه منها فيخرج منها تهاويل وتهاويل، وربما قضى ليلة إلى صباحها فى تفسير لفظة واحدة صحبتها إشارة أو لابستها قرينة، وقد لا يكون فيها غير معناها ولكن العاشق يريد فيها رغبة لا معنى، فكأنه من همه بها مكلف أن يخلق منها خلقًا. وهكذا.

obeikandl.com

قلت وقالت[1]

قطرات الماء القليلة جدًا إذا أصابها الظمآن الذى بلغ به الظمأ جفاف الروح، تحولت فى تسعير خياله والتضرم على كبده قطرات من اللهب الأبيض.. وكذلك فى ظمأ الحب، فإن القليل جدًا مما يداوى به الحبيب، هو الكثير جدا مما يمرض به المحب..!

قالت له: اغضب ما وسعك من الغضب وما وسعت منه، فإن غضبك هو نفسه من مقاييس الرضا! الم تر إلى الحريق فى البرق وإلى الصواعق فى الرعد، أذاك من امتلاء السحاب بالنار أم امتلائه بالماء؟

الحب أن يخيم جو موسيقى على بعض أيام العمر ليتم فيه الانسجام بين نفس عاشقة وصورة جميلة، إذ لابد لانسجام الجمال فى الحب من أن يكون المعشوق عند محبه فى مثل تناسق اللحن الفنى لا يخرج منه شىء عن الوزن والطرب، فإذا كان العمر صفحات مكتوبة فأيام الحب الصفحة المكتوبة بعلامات النغم، لا يقرأ شىء فيها إلا لحن ورن ورجع وصلصل[2].

وتعاتبا مرة فغضبت، فقال لها؛ فلنفترق، فما فى الغضب من شىء إلا أنه عناد الموقف، إن الموقف بين متكلمين أو متساجلين هو موقف حى، فما أسرع ما يثب القلب إلى القلب فى لفظة غاضبة، فإذا اللفظة من ذلك

---

(١) انظر فصل (قالت وقلت) صفحة ..١٣٩. فهذا تكملة لما هناك.

(٢) الصلصة: الصوت الرنان، والترجيع: أن يرجع بعض النغم على بعضه للتطريب.

كأنما ملأها الدم ومثلتها الحياة فأصبحت شخصًا غير الاثنين لا يبالى بهما نفعًا ولا ضرًا!

فاستضحكت لهذه الفلسفة وفكهت لكلامه- وما يعجبها شىء ما تعجبها المعانى- ثم قالت: إذن يمكن الاتفاق وتقرير الأمر مع الكلمة. أى مع الشخص اللفظى الغضبان لامعك أنت...!

وقالت له فى أمر: أنا راضية بحكمك فاحكم.

قال: قد عرفت الحكم ولم أنطق به...

قالت: فهل الحكم عطر فى منديلك أعرفه من الهواء؟

قال: بل عرفته بنفسك الرقيقة الملهمة: وأما والله يا حبيبتى لو كنت محامية لسرقت من أدمغة القضاة أحكامهم...

قالت: منزلة رفيعة ولكنها على سرقة وتلصص.

قال: يا عزيزتى يلذ لى أنها سرقة، لأتخيل لها قانونًا ومحكمة وقضاة.

قالت: ثم ماذا بعد قانونها ومحكمتها وقضاتهم؟

قال: أرافعك إلى تلك المحكمة وأتهمك بتهمة سرقة قلب...!

الحب طفولتنا الكبيرة كل ما تملكه أن تبكى وتضحك وتمكر وتنافق، ومعنى ذلك كله أريد أريد! ولو أمكن أن يكبر الطفل ويبقى طفلا لكان هو العاشق بذاته، ولكان حبه لأمه وأبيه مضاعفًا عند السنين التى كبر فيها- هو العشق بعينه!

الدموع أوهى أن تهدى شيئًا، ولكنها تهدم صاحبها!

الدموع هى روح المحيط السماوى، ألا ترى أنها لا تسيل إلا مع الأقدار؟ متى نزل القدر نزل الدمع.

obeikandi.com

المعنى الذى يكون فى النفس أكبر من الكلام فى الحزن والفرح هو وحده تعبر عنه النفس بدموعها.

سألها مرة: ماذا يقول البحر لو سقطت فيه دمعة من مهجور؟

فقالت إنه يقول: إنسان أحمق أو مجنون يحاول أن يجعل له بحرًا من قطرتين...

قال: أراك يا فيلسوفتى لا تفهمين لغة الوجود!

قالت: فما ترى أنت؟

قال: إنه يقول عندئذ: تباركت يارب! أنا الجبار المالىء ثلاثة أرباع الأرض، قد آلمتنى دمعة محب متألم؛ فهل هو يحمل ثلاثة أرباع الهم فى الأرض!

فى نوح اللحن الشجى صورة الدموع التى فى أعيننا، وإذا حن كانت فيه شهوة نفس، وإذا جنح إلى الطرب كانت فيه رغبة واقعة. وليس فى الكون ما يجمع هذه الألحان الثلاثة المتباينة فى صوت واحد إلا زفرة الحب يأسى العاشق ويحن ويطرب فيقول: آه...

لو سألتنى: من أعظم أهل الفنون على وجه الأرض؟ لقلت لك: كل حبيب جميل هو فى عين محبه أعظم أهل الفنون؛ لأنه فى نظر هذه العين هو وحده الذى يخلق الجمال الحى الرائع ويضع معناه فى كل ما يتصل به، حتى لكأن جمال تفرق على أجزاء العالم، أو كأن أجزاء العالم التفت على جماله.

وقالت له: أنا لا أشفق على آلامك! وهل تراني أكره لك النبوغ والعبقرية؟ إن الألم فى رجل الفن العبقرى إنما هو (عملية) التصوير والطبع فى مخيلته؛ فمواهبه الحساسة تخزن الوجود فى، وكلما رأى جمالا أو

قبحًا أو سرورًا أو حزنًا غمرته ليتألم بمعنى ما رأى وحكمه ما أبصر، لأن جهة الفن فى كل شىء هى معناه وحكمته، فيتألم، فينطبع المعنى.

فيكون فى المخيلة مادة من مواد العمل الفنى حين يعمل، فذلك ليس ألمًا فى إنسان كما ترى، بل هو أداء طبيعى فى أداة حية متخذة لهذا العمل خاصة، ميسرة له بكل حوادثها؛ ومن هنا فلا رحمة ولا مهاونة فيما يؤلم رجال الفن، إذ تعرف منهم الحكمة التى خلقتهم إلا آلات، آلات يجب أن تعمل حتى تتلف أو تتحطم...

تزداد الجميلة إشراقًا وجمالا بالحب، لأن أثر نظرات محبها يلازمها، حتى إنها لتحس فى غيبته كأن نظره واقع عليها من عينه لا من فكرها، وبذلك تتجرد معانيها النسائية لعلمها الفنى وتدأب عليه، فلا تزال تجعل وتحسن ما دامت محبوبة معشوقة.

الحب إيمان النفس بكائن طاهر، والدين إيمانها بكائن خفى ألا يكون ذلك أسلوبًا فى الطبيعة لحفظ الإيمان فى الإنسانية؟[1]

أشعر أحيانًا كأنه مامن رجل فى العالم يحب امرأة إلا ألم بحسى شىء من لذة هواه، فإن لم أكن أنا العالم كله فلقد جعلت حبى هو الحب كله!

أنت فى، وأنا أنظر بك إليك، وهذه هى المشكلة التى جعلتك لغزًا لاحل له، فما أقرب الحب من العبادة، مادام هذا الحب هو تجلى نفس فى نفس، وما أشبهه بدين يعبد فيه الجسم الجسم، فالمعشوق حالة نفسية متألهة معبودة، والعاشق حالة أخرى متولهة عابدة!

لو عشق أعظم علماء الدنيا لأيقن أن حيرة عقله فى أسرار الكون

---

(1) تقدم وجه آخر من هذا المعنى فيما نقلناه من كتابنا «المساكين».

لها شكل أدق وأغمض مع أسرار الحب، ولعرف أن فى أعماق النفس الإنسانية مثل ما فى أعماق الوجود: مسائل لا حل لها، ألا يخرج من ذلك أن كل محب يقابل الطبيعة بقلبه أو إحساسه أعظم العلماء بعقله وآلاته؟

قد عرفنا أن لنا أعمارًا محدودة، يجوز أن ساعات الهناءة والسعادة إنما كانت محدودة لأنها أعمار لأعمارنا؟ فبضعة أشهر من الجفاء أو البعد يكون عمرها هو ساعة اللقاء التى تتفق بعدها، وسنة كاملة من عمل يكون عمرها يوم سرور؟

إن كان هذا صحيحا فما أقصر عمرك يا عمرى...؟

كل الأمانى التى لا تتحقق، هى وجود مخنوق فى القلب!

من تأله الحب أن أوقاته هى الأوقات التى تتغير فيها الأشياء فتلبس فى أفكارنا غير حقائقها، وبذلك يثبت الحب أنه أقوى من الحقيقة، إذ كان يخلق فيها خلقة ويغيرها فى الفكر، وأنه أقوى من الزمن: إذ كان يطول به على العاشقين ويقصر مع أن الزمن لم يقصر ولم يطل، وأنه أقوى من الوجود، لأنه دائما إما ينقص منه فى نظر العاشق وإما يزيد عليه.

إن المحب ليشعر أحيانًا من شدة القلق والاضطراب أن فكره يعدو بين الأشياء والحوادث وراء الاطمئنان الذى فر من قلبه!

حين يجد العشق بصاحبه يحبس عليه الزمن كله فى نقطة هم ثابتة لا تتحرك، فتشتبه عليه الأيام حتى لا يشعر أنه يقضى يومين أحدهما يختلف عن الآخر.

للعيون التى وراءها ضروب الأفكار المختلفة، هى وحدها التى فيها ضروب التعبير المختلفة.

فى المحب لا فصل بين الصغائر والكبائر؛ إذ كانت قيمة الصغيرة

والكبيرة فى اعتبارها لا فى ذاتها، والحادثة فى الحب تكون بالحالة التى تقع فيها أكثر مما تكون بنفسها فالهجر وهو أشق وأعنت ما فى الحب، قد يكون لوعة مطمئنة إذا كان عن دلال أو سلوان من الحبيب ولكنه أشد الفظائع كلها وأكبر من القتل إذا كان سببه الميل إلى محب آخر، فهو فى سببه أكثر مما هو فى نفسه، لأنه خرج من المكان إلى الشعور.

الليل والفجر والشفق والأصيل، هى أوقات الجمال فى النفس؛ ولن يجعل لها سحرها الساحر إلا أن يكون ذات مرة قد وقعت دقائق ملونة... فى ساعة حب!

ما وقفت أمامك مرة يا حبيبتى أنظر إليك إلا قلت فى نفسى: من هنا يبدأ مالا يدرك...!

أصل الحب العاشق اتساع الرغبات المنجذبة وخروجها عن حدها، وأصل الجمال المعشوق اتساع الأسباب الجاذبة وخروجها عن حدها كذلك، فمن ثمة لا أناة فى الحب ولا عقل ولا استقرار، إذ هو اجتماع فوضيين بائرتين على نفس ضعيفة!

هل تأملت مرة فى اسم حبيبك؟ وهل تعرف فى الأسماء الكثيرة التى تماثله ما يماثله؟

إن كل الأسماء من اللغة وهو وحده من النفس. والأسماء كالأرقام الحسابية وهو وحده كالواقع المدلول عليه، تقول: مئة ألف، فتذهب كلمة فى الهواء ليس لها ولا حقيقة واحدة. ثم تعد الذهب وتقول: مئة ألف دينار، ففى هذه وحدها مئة ألف حقيقة...؟

أنا يا حبيبتى قد تجاوزت المنطقة الإنسانية، التى يقع في حدودها المدح والذم، فلا تأبهى لمن يذمنى عندك أو يمدحنى.

إنا فوق هذه الطبقة التى يتنفسون منها كلامهم، فإن ارتفع يريدنى أحد منهم فوصل إلى خنقه وصوله إلى...!

فلان وفلانة، هو بدونها ناقص لأنه وحده، وبها ناقص أيضًا لأنه معها.. هى كالفصل له عن الكمال، وهذا أكثر عمل المرأة وعمل أكثر من النساء...!

أنت لا تحفلين أحببتك أم أبغضتك؟ ولا تدافعين عن شىء منك فى نفسى ولكن كل شىء منك يدافع فى نفسى عن نفسه وينتصر ويتغلب...

هل تلبس الزهرة أوراقها ولونها إلا لتظهر عارية الجمال؟

هل تلبس الحبيبة كبرياءها ودلالها ولا لتظهر عارية الحب؟... ومع ذلك فروح الشجر المر هو الماء العذب!

obeikandl.com

يا قلبى

كان لى قلب، فياعجبى ... ليس فى جنبى سوى أثره
ضاع من فابحثوا تجدوا ... فى ابتسام الحسن أو نظره
ويحه قلبًا أعيش على ... صفوة عيشى على كدره
يرتقى كالنسر ثم ترى ... مرتقاء عين منحدره
ههنا قلب وحامله ... ميت الأمن على حذره[1]
ذاب ذوب العطر مذ وقدت ... للهوى نار على زهره
ضره ما كان منفعة ... نفعه ما كان من ضرره
عابس كالليل ليس به ... أمل إلا سنا (قمره)
وهنأ قلبه وصاحبه ... قد بنى الدنيا على حجره
تقرص الآلام مهجته ... مثل قرض الوحش من ظفره[2]
والحديد الصلب تحسبه ... صورة عمياء من صوره...
... لم يلن لا بمطرقة ... من قضاء الله أو قدره
وسؤال لا جواب له: ... أى ذين الحلو فى ثمره؟
لو يبين الحلو خالقه ... كيف يسقى المر من مطره؟

---

(١) من كان حذرًا مستمرًا فى حذره كان ميت الأمن، إذ لو أمن لما حذر.
(٢) الإنسان لا يشعر إذا هو قرص فى ظفره الرقيق، فكيف بالوحش وظفره كمخرز الإسكاف.؟

البحر

"وكتب إليها من شاطىء البحر وكان قد ذهب إلى هناك مستشفيًا من علة أصابته"[1].

لقد كنت والله من وثاق المرض كالسجين المغلغل: يحمل على أعضائه أعضاء من قيود وسلاسل، فلا يجد كل الأمكنة أوسعها و أضيقها إلا جسمه والجسد الحديدى الذى فيه جسمه، وكأنه من الكرب لم يقيد وإنما أقفل على روحه من ذلك الحديد بقفل يكف هذه النفس ويحول بينها وبين الدنيا.

فلما احتوانى البحر جعلت سلاسلى تذوب فيه شيئًا من شىء فى يوم من يوم، ثم كأنها لم تكن إلا آثار لون أسود فغسلها البحر ومحاها، أو كانت جمرات ألم أحمر فأطفأها وسال عليها.

ألا ما أعجب رحمة الله! فبينا هموم الإنسان فى موضع هى أشد اندماجًا من الحديد، إذا هى فى موضع غيره متخلخلة أسرع ذوبانًا من الملح المبتل: كأن مكانًا يلبس أنفسنا ومكانًا يخلع عنها، أو كأن الأرض بتباين أمكنتها وبقاعها تقابل الأقدار فى اختلاف عللها وتصاريفها، حتى يكون السفر من بلد إلى بلد أحيانًا كأنه من قدر إلى قدر.

---

(1) كان صاحب الرسائل قد مرض مرضة طويلة بالنزلة الشعبية. فجزعت لمرضه، وكانت تعالجه بأسطر من بلاغتها كالدواء، وذهب إلى البحر متثقلا فلما وجد خفا من نسيمه وروحه كتب إليها هذه الرسالة، ولم ننشر رسائلها إليه فى مرضه لأنها خاصة.

كان المرض يخيل لى أن هواء ناحيتى مستنفع معلق... فجئت إلى هواء البحر فإذا هو بحر ذائب[1] يحس التنفس منه أن فى صدره مثل الموج على ما ركد فيه مما تركته الأيام والليالى من أحداثها وهمومها، فإذا صدره جياش مصطخب بالحياة يفور بها ويضطرب، وإذا موجة من العافية قد اندفقت فى هذا الصدر فثلج وابترد وتنقى كأنما غسل ثم غسل إلى ملء بحر.

وأرى السماء هنا والبحر متدل منها، فكأنها مخيط أزلى وهذا البحر كله موجة واحدة وثبت من هناك عن ثبجها الأزرق[2] ووقعت إلى الأرض، أو هذا بحر سائل موار إذ هو يدفع أنفاس الحياة الأرضية الفانية فلابد أن يجرى ويتحرك، وذاك بحر مستقر لثباته على الأزلية الخالدة، ويقع من أحد البحرين ثياب اليقين فى روحى ومن الآخر حركة الأمل فى قلبى، وتندمج بهما فى حياتى روح أيام زاهية مضيئة كأنوار السماء، وروح آمال بلية منعشة كأنفاس البحر.

وأرى البحر مائجًا يترشش ويتناثر وهو بارد، ولكنه يبدو كما يغلى الماء فى وعاء على النار يتقاذف من شدة ما يغلى، ويضطرب ويدوى كما يرجف الرعد ترددت هدهدته[3] يجاوب بعضها بعضًا، فكأنما البحر سحاب عظيم قد حبسه الله فى الأرض فهو أبدًا ثائر يضج ويرعد ولا يبرح ينازع الأرض أن يفر منها!

وأعرف للبحر فى نفسى كلامًا؛ فهو يوحى إلى أن تجدد تجد فى آمال قلبك كأمواجى لكيلا تمل فتيأس: وتحرك تحرك فى نزعات نفسك

---

(١) جو البحر: ظهره يكون مشبعًا من بخار مائه، فكأن تلك البلة بحر ذائب فى الهواء.

(٢) ثبج البحر: ظهره؛ ومن ينظر إلى البحر فى آخر الأفق يتخيله كذلك.

(٣) الهدهدة: رجفان الرعد على السحاب.

كتيارى لئلا تركد فتفسد، وتوسع توسع فى معانى حياتك كأعماقى لئلا تمتلىء فتتعكر، وتبحر فى جوك الحر كرياحى[1] لئلا تسكن فتهمد.

كن مثلى جبار الحياة مجتمعًا من ألين اللين وأعنف القوة، كن مثلى قديس الحياة واسع الروح نظيف المادة مستعينًا لواحدة بواحدة[2] كن مثلى جميل الحياة ثابتًا على الرقة والصفاء وإن من وراء شاطئيك الرمال والحجارة وطين الأرض وناس الأرض.. كن مثلى حر الحياة محتفظًا بالسعة والحركة والعمق، كن مثلى إلهى الحياة ليس بينك وبين السماء شىء يحجبك أو يحجبها وعلى وجهك دائمًا أنوار الشمس والقمر والكواكب، كن مثلى شاب الحياة فلن تهزم أبدًا إذا ثلجت روحك بالرضا فتبلل شبابك بأندائها، فعمرك كله عمر الفجر!

ولكن أيها البحر! ما هذا البريق الذى تسطع به حتى لكأنك تحت الشمس أرض من الزمرد والفيروز والماس؟

وما هذه الرقة فى هذا الأديم الذى تتعرى به حتى لكأن كل موضع فيك عليه بضاضة وإشراق من جسم فاتنة عارية؟

بل ما هذا التوحش فى هذا الموج الذى تزأر به زئيرًا يتردد فى كل نواحيك حتى لتلوح كل موجة من كل موجة كأنما هى لبد أسود بيض غاطسة فى الماء يحمل بعضها على بعض للقتال؟

وما هذا الهدوء ساعة تستقر فى جو خافت كهمس التسبيح فتبدو كقلب المؤمن رسب فى أعماقه اضطراب الظن بالحياة وطفا على اطمئنان التوكل على الله؟

---

(١) التبحر: التشقق والتوسع.

(٢) كل واحدة من هذه المعدودات تعين على اكتساب الأخرى.

وما هذه الثورة ساعة تستقر فى جو كمعمعة المعركة، فتظهر كالمخبول ثارت خواطره فهن كأمواجك مبعثرة طائرة وكأن زوبعة سكنت فيها؟

وكن أيها البحر! هل يقال لك : ما هذا؟ وما هذه؟

كلا، فما أنت إلا كذلك الجمال المعشوق: يسطع ويرق ويتوحش ويهدأ ويثور، وله الأشعة الزاهية البراقة، والعرى الحريرى المخمل، والزئير والهمس، والأعاصير والزوابع، ثم لا يسأل فى كل هذا ولا مرة واحدة: ما هذا؟ وفى كل هذه ولا مرة واحدة: ما هذه؟

ورأيت يا حبيبتى هذا البحر مضيئًا ممتدًا كأنه نهار أبدى أمسكته الدنيا لينير النور فى قلوب أهلها فإن النور يظلم فيها.

ورأيته كالمعانى الندية بثها الله من رحمته فى جفاف الحياة ومعانيها.

ورأيته استواء واحدًا فى وضع الجمال، ليس فيه موضع أعلى من موضع.

ورأيته دائم الترجرج كأنه متهيئ أبدًا ليسكب معانيه فى فكر الناظر إليه.

ورأيته لا يحمل أن يوضع لإرادته حد فهو دائمًا يصدم الشاطىء كأنه يقول له: اذهب من هنا...!

رأيت فيه كل هذا، لأن مثل هذا كله فى جمالك أنت وفى معانيك.

فأنت بجمالك المشرق لمعة من نهارى.

وأنت بعواطفك رحمة من الله لقلب لولاك لجف.

وأنت بحسنك لؤلؤة كلها وضع واحد فى الحسن.

وأنت دائمة الترجرج فى خواطرى دائمة الانسكاب فى قلبى.

وأنت لا تحتملين أن أضع شاطئًا لإرادتك.

وأنت، أنت، أنت..

فلسفة المرض

" لما برىء من مرضه كتبت إليه تسأله فلسفته فى المعانى التى ينشأ المرض لإيجادها فى النفس، فكتب هذه الرسالة وتجافى عن ذكر الحب فيها، إذ كان الشأن حينئذ شأن الحياة، وقد كتبها وهو فى أعقاب العلة، ولولا أنها هى طلبت منه هذه الرسالة وأنها أعجبت بها وعدتها من آثارها فيه لما نشرناها هنا".

خلقت نفس هذا الإنسان وكأنها ثلاثة أنفس، إذا كان دأبًا لها أن تكون طامعة متلفته وثابة، فهى لا تسكن على رزق ترزقه، ولا تثبت على حال تحول إليها، ولا تقر فى منزلة تسفل بها أو تعلو.

وهى كذلك لا تبرح تنزع مما وجدته إلى مالم تجده، لأن الشوق أحد عناصرها: ولا تنفك متقلبة تجعل ما ترضاه يومًا هو ما تسأمه يومًا، لأن الرغبة إحدى طبائعها: ولا تزال تتخطى حدود الأشياء، لأنها من الأزل بنيت على الخلود الذى لا يقف على حد، فالشوق الثائر فى حاجة إلى فترة تكسر من حدته والرغبة المجنونة فى حاجة إلى ضعفة تهدىء من ثورتها، وخطوة الخلد التى لا تزال دائبة تتقدم، فى حاجة إلى عثرة بمعنى من معانى الفناء المعترضة فى طريق الحياة.

وبذلك يكون الإنسان دائمًا فى حاجة إلى بعض الأمراض، لا ليمرض ولكن ليصح، إلا أنواعاً من أساليب الموت تسمى أمراضاً لا حيلة فيها

ولا يكن المريض معها إلا كالوعاء يشق ليحطم وينتهى، لا كالوعاء الذى يصب ما فيه لينظف ويملأ ويبتدىء.

فالمرض الرحيم وضع النفس فى وثاق يمسكها حينًا ليحبسها على تأمل حقائق الحياة المغطاة، ويكرهها على أن ترى الدنيا أهون من أن تصغر لها نفس، وأحسن من أن يسقط بها قلب واحقر من أن تتهالك عليها الأحياء، ثم ليريها رأى العين أن العالم مصبوغ بأخيلتها الوهمية التى نفضت عليه ألوان الجنة فأفسدته بهذا التمويه وتركت أهله يتكذبون فى أوصافه فيخطون فى حقائقه وجعلته كالقمر: هو فى ذاته حجر مظلم ولكن ذهب الشمس يجعله كله فضة بيضاء.

إنه لا يفسد الإنسان إلا الغرور، ولا يكون الغرور إلا من الطيش ولا يطيش بالرأى إلا سوء التقدير، ولا يكون هذا السوء أكثر ما يكون إلا بلاء العافية على الإنسان.. وإن من بلاء العافية ثلاثًا. عافية الجسم وعافية الهوى، وعافية المال، فأما الجسم فأقرب ما وجدته إلى الحيوان الضارى الخبيث أشد ما وجدته قوة وعافية وأما الهوى فلم يخلق الله شيئا كل هلاكه فى قوته غيره، وأما المال فعافيته فى رجل واحد مرض فى ألف رجل إلى ألوف كثيرة، فهو حصر الدنيا كلها فى بعض أجزائها.

فكأنما تطوف الأمراض فى هذا العالم لتصلح نواحى الإنسانية فيه، فتضعف الحيوانية، وتكسر شرة الهوى، وتكف طغيان المال عن النفس حتى لا شهوة فيه ولا قوة له ولو جمعوا ما أصلحته الأديان والقوانين من أحوال النفس وطباعها: ثم ما أصلحته الأمراض منها، لرأيت أن لله أنبياء من هذه الأمراض يرسلها إلى الدم الإنسانى، وأن "الميكروبات" السابحة

فى الهواء كالأملاح الذائبة فى البحار: لولا هذه لتعفنت الأرض، ولولا تلك لتعفنت الإنسانية.

تأمل هذا المريض وهو حائر النفس، متخاذل الأعضاء، كاسف الوجه ميت الهوى، لا يتماسك مما به من الضعف، ولا ينبعث لما به من المخود؛ ولا يشتهى لما به من الفتور، ولا يتذوق بما فى روحه من المرارة، ولا يجرؤ لما فى حسه من الإشفاق، ولا ينظر إلى الدنيا إلا بملء عينيه زهدًا فيها كأنما بث المرض فى عينيه شعاعا ينفذ الأمور إلى حقائقها ثم يخترق الحقائق إلى صميمها... أفلا ترى هذا الإنسان قد عمل فيه مرض أيام قليلة مالا تعمل العبادة مثله فى أزهد الناس إلا فى السنين المتطاولة؟

إنما هى ثلاث وسائل للجميع بين الإنسان وحقيقته العليا: العبادة القوية، وقد عجزت إلا أفراد قلائل، والحكمة الصحيحة العالية وهى أشد عجزًا إلا فى الأقل. ثم لم تكن الوسيلة العامة التى تتناول الناس جميعا ولا يستعصى عليها أحد ممن أطاع أو عصى، إلا المرض...!

يوجد الإنسان ليمحى ويزول، ولم تتمكن الفضيلة الإنسانية من نفس إلا إذا تمكنت هذه الفكرة منها فإن الزائل يرى ليومه ما بعد يومه، ويعلم أن حقه على الناس ليس شيئًا أكثر من حقوق الناس عليه، ويحتاج إلى العمل لروحه كما يعمل لجسمه، وما يكون زاد الروح إلا من آثارها فى الأرواح الأخرى ومن آثار هذه الأرواح فيها، فإذا كانت حقوق الأجسام تدفع الناس إلى التنازع على البقاء فإن حقوق الأرواح تقابل هذا الناموس بما يصلحه، فتزيد فى الناس إلى القوة الرحمة، وإلى الغنى الإحسان، وإلى العزة المروءة وإلى كل طغيان ما يمازجه فيكف من جماحه ويجعله إلى الخير أو من الخير.

وإن أعجب ما فى الإنسان أنه يرى الموت والموتى بين الساعة والساعة، ثم لا يستشعر من كل ذلك معنى زواله. كأن عادة الحياة أخمدت هذا الحس فيه أو خملت منه، وما هو إلا أساس التعاطف الإنسانى؟ ثم لا يكون إلا أن يمرض هذا الإنسانى يوم، فإذا هو قد تلقى الدرس على أحكم أساتذته، ورأى نفسه كان يمشى فقعد، ويستطيل فتقاصر، ويشمخ فانهد، ويسر فحزن، وإذا هو قد بدل من الصوت خفض الصوت، ومن الإعجاب مقت الإعجاب، ومن الخلاف ترك الخلاف، ومن جفوة الناس حاجته إلى رحمة الناس: ثم إذا هو قد أمسك عن كل ما كان فيه من العمل، وأقبل على الصحراء المخيفة التى بين الدنيا والآخرة، وأحسن من غمزة يد الله فى مواضع آلامه أن الإنسان مهما يكن من قوة الأسر وشدة البأس فما هو بعد إلا حبة صغيرة واهنة بين شقى هذه الرحى العظمى الدوارة التى حجرها الشمس والقمر!

سبحانك اللهم! إنما هذه الأمراض أخلاق أنت تنشىء بها الرحمة فى قلوبنا المتحجرة، وتصرفنا فيها إلى نفوسنا بعد أن نكون قد جهلنا هذه النفوس فى أعمال الحياة أو جهلتنا، وتعلمنا جميل صنعك فى تواتر حلمك علينا مع قبيح صنعنا فى ترادف عصياننا لك، وتنقلنا بها فى خطوة سريعة من خطى الأزلية لنرى الدنيا من آخرها فلا نجد نعيمها إلا معانى الهلاك، ولا ملذاتها إلا أصبابًا من الندم ولا غناها إلا فنونًا من الحسرة. ثم لا ننظر فى أجسامنا إلا أشكالا قائمة من التراب ولا نعرف من أعمارنا إلا أنفاسا كانت تصعد من فم القبر، وإذا أذنت بعد فى شفائنا ومسحت بيد العافية علينا، كانت الأمراض وسيلة من وسائل تجديد العمر، وخرج المريض وكأنه مقبل على الدنيا من ناحية لم تكن فيها؛ فينسم من كل شىء رائحة الحياة، ويرى على كل جمال أثرًا كأثر الحب ولذته وحنينه،

ويستقبل نفسه الراجعة إليه فى موكب الحواس القوية فلا يكون له إلا ما قد يكون مثله فى الملك المخلوع أعادوه إلى العرش فجاءوا بالتاج وأقاموا له الزينة وحشدوا له الحفل وقالوا: سمعنا وأطعنا!

سبحانك! إنما هذه الأمراض مواعظ منك تعلمنا كيف نضع شهواتنا فى موضعها من الضرورة، ونحصرها فى حدودها من الأزدراء والمقت، فلا تعدو بطبائعنا علينا ولا تعدو بنا على سوانا، وإنه ما يخطىء امرؤ فى الحياة إلا من إقرار شهواته فى غير أمكنتها حتى تأخذ من عقله وتنال من رأيه وتجور على حواسه، فيقلبها ذلك من أن تكون حركة فى الحياة إلى أن تصير الحياة كلها حركة من حركاتها: وحينئذ لا تكون الشهوات إلا أكثر مما هى، فتقتضى أكثر مما تستحق من الجهد والعمل الإنسانى؛ ولا تكون الحياة إلا أحقر مما هى، فلا تخرج إلا أقل ما يمكن أن تخرجه من القيمة الإنسانية.

سبحانك اللهم! إنما هذه الأمراض فى الدنيا: بعض مواد البحث الفلسفى العميق لدرس أساليب الطبيعة البشرية، فكم من "عملية جراحية" فى طب الناس هى الحقيقة "عملية حسابية" فى وزن هذه الطبيعة وتقديرها، وكم من أنة وجع فى المرض وهى نفسها كلمة عتاب بين الطبيعة والنفس: وكم من ضجعة للداء هى فى الواقع نهضة للأخلاق من ضجعتها.

سبحانك ولك الحمد إن ساعة النجاح وتحقيق الآمال وانتعاش الحظ وتبديل صورة من الحياة بحياة غيرها تكون أسمى وأكمل وساعة الغنى وإقبال الدنيا ومسالمة الأيام، وتزيين الحياة بحياة أجمل منها وأبدع، وساعة الحب وفيضان الجمال على النفس، ونسيان الحياة بالحياة التى هى أمتع منها وألذ- كل هذه الساعات لا تعد إلا دقائق وثوانى من السعادة إذا اتفقت بعد المرض ساعة الحياة ساعة رجوع الصحة!

يوم النوى

يا ظلة الموج يطغى البحر منتفضًا ... بها، كأن جبل فى البحر يقتلع

تظن زلزلة فى الماء قد جلست ... أو لا، فزوبعة فى الماء تضطجع

تقلقلت، فاستطارت فانثنت، فهوت، ... فأطبقت، فارتمت كالرعب تندفع

على غريق بحبل الماء معتصم ... والحبل فى لمسات الكف ينقطع

لـه بقية روح فى أصابعه ... ينازع الموت فيها وهى تنتزع

بين الحياة وبين الموت مرتكس[1] ... يقيئه البحر أطوارًا ويبتلع

أذاك أعظم هؤلاء فى فجيعته ... أم المحبون فى أحبابهم فجعوا؟

يالطف نفسى للعشاق! تحسبهم ... يوم النوى نزعت من قلبهم قطع

الحب قاتلهم بالصبر إن صبروا ... والحب قاتلهم بالهم إن جزعوا

إن ودعوا ذاهبًا لم تلق حزنهمو ... من أنه سار، بل من أنهم رجعوا

ربى، متى تهب الأحزان مخترعًا ... فى هذه الأرض للنسيان يخترع؟

(١) الارتكاس: أن يرجع آخر الأمر على أوله.

obeikandl.com

الهجر

"ولما تهاجرا كتب هذه الرسالة[1] فيما كتب لنفسه":

رسم الماضى من الحب صورته فى نفسى وأتى الهجر يمحوها ويرسم غيرها، ففيما يثبته، ألم الأيام المكروهة تأتى؛ وفيما يمحوه، ألم الأيام المحبوبة تذهب. ومضى الزمن الذى يومه ساعة، وجاء العهد الذى ساعته يوم وأيام. وانقضى عمر الحقيقة وبقيت من الحادثات كأنها قبر من اللغة قد أنزل فيه تاريخ حب مات!

وكما ينزع المرض عافية لبسها الدم، نزع الهجر أيام قلبى، وتركنى فى أيام كأنها من غير زمنى، ووضعنى منها فى حياة كأننى لا أحياها، وانتهى بى إلى حالة كأنما وقفت الحياة عندها وقالت لى: سر وحدك وعش فى آلامك لا فىّ!

هى حالة النار التى كانت مشبوبة، وتهم أن تخمد فتقول للأثر الذى تخلفه: عيش وحدك يا رمادى...؟

أما إنى مثلك يا رماد الجمر: قطعت حياة اللهب والشعاع إلى آخرها المنطفىء...

أية عاصفة احتملتنى من أيام الشمس وليالى القمر، وألقت بى فى هجر منقطع كليالى القطب المضيئة بجبال قائمة من الثلج كأنها شموع

---

(١) انظر "رسائل الأحزان" لتستنتم معانى رسالة الهجر هذه.

تنير فى ذلك الهول المحيط بها إذ لا تظهر فيه النجوم على سمائها إلا كحصى من الجليد ولا تمر الشمس هناك فى أفقها إلا وهى ترتعد من البرد؟

كان الجو العاصف كلمة غضب صغيرة، ولكن أرادها قلبى بمعنى وأرادها قلبها بمعنى غيره، فلم يبق للكلمة على ما أردت وأرادت لا معنى فى نفسها ولا معنى فى نفسينا، وبطل منها عمل اللغة فإذا هى رعات لازمام لنا من الفهم على جمحاته.

كلمة كانت من المادة النفسية المشتعلة بالعناد المنفجرة بالغضب، المصوبة بعد ذلك كالرصاصة المنطلقة؛ لا تراها بدأت إلا قلت انتهت، وربما قالوا رميت والمعنى قتلت، وإذا قيل فى الرصاصة المنطلقة قد ذهبت، فاعلم أنه قد مات من اللغة إلى الأبد لفظ رجعت أو ترجع..!

وعلى ظهر كلمة الغضب وضع الماضى رحاله المملؤة جمالا وفكرًا وعاطفة ولذات، وانحدر على طريق النسيان فذهب حيث لا يلحق، ورمى إلى حيث لا يعود!

ألا ما أشأم الساعة التى تعارض فيها كلمة قلب كلمة قلب آخر يحبه، وتقف لها كبرياء معشوقة بإزراء كبرياء تعشقها، وتضيف نفس على نفس تحاول كلتاهما أن تحبس الأخرى فى سجن كلمتها!

تلك ساعة تكون والله بين العدوين أخف وأرحم مما هى بين الحبيبين. ولعمرى وعمرك ما التقاء العدو بعدوه فى مناجزة إلا صورة هم وروع مصغرة من صورة ابتعاد حبيب عن حبيبه فى هجر إن معركة الدم لأصغر من معركة الدمع!

كبرياؤها الآتية من أنها هى المعشوقة، وكبرياتى التى أستشعرها

من أنى أنا محبها "كلتاهما كانت العزيمة الهائجة المحتدمة التى أدت شدة المبالاة" فيها إلى عدم المبالاة، وجمعت منا جهلتين غير مبصرتين، واستكبر لها الواقع المحدود، فانتهى من غضبة إلى سورة معركة، واندفع بها التيار الذى جعل يزحزحنا واحدًا عن واحد حتى فصلنا انفصال شاطئين، وفقدنا ما يسمى فى اللغة السياسة "إدراك حقيقة الحالة" فانتثرت بيننا ما تسميه تلك اللغة "بالمسائل الشائكة" وأصبحنا من حيرة وعجز وسوء بصيرة فى مثل الحالة التى يطرح فيها اللغز لحله فإذا منه لغز آخر، وكان عقدة ناعمة كملمس الحية فانتهى إلى مس السم الناقع، ثم ضلت فى ضلالنا الكلمة التى كانت تصلح للصلح، وضاق عنا الحب بأخلاقه فلم يبق منى ومنها غير"لا" قائمة فى وجه "لا".

إنه الموقف العقلى المصبوب على قالب فلسفتها حين تقول إنك لن تحكمنى ولو أنك فى الواقع تحكمنى... وعلى قالب فلسفتى حين أقول إننى لن أغلب فى شىء ولو أننى فى كل شىء مغلوب!...

كلمة بيننا ليس لها ناهية ولا آمرة من العقل، فلا تنزل فى خاص معناها ولا تقر فى معنى يمسكها على وجه مفهوم، وكأنها فى موضع مسحور لا يستقيم فيه برهان ولا يحق حق ولا يبطل باطل، وفيها ملء القفر من الإصرار الجافى الموحش، فإذا تقدمت لها شفاعة الحب لم تقع من كلينا إلا بأبعد البعد: كالذى يضل فى صحراء فيظمأ ويلتاح ثم يذهب يحتفر عن بلة أو جرعة، حتى إذا أوشك أن يذبحه الظمأ بنصل من خيال الماء عثر على إناء مختوم فيفضه فإذا فيه جرعة تاريخ قديم... تبنئ عن مدن وأطلال ودولة وشعب كانت هنا... هنا فى موضع قبره هو...!

وليس التعب أشد شدة ولا أثقل ثقلا من موقف عقلى تقفه مغالب نفسك على حقيقتها، فتبغض أنت وهى عاشقة، أو تمارى وهى مقتنعة،

أو تجحد وهى تقر، أو تعزم العزمة وهى تنقض عليك، فأنت فى تزوير فكرك على نفسك، فى رد نفسك على الفكر، ثم فى التواء حقيقتك التى جعلتها محركا واحدًا يعمل فى حركتين متناقضتين، ثم تهلك بعناد باطل تزعمه ضروريًا لنفسك على يكون كفكرة فقط وأما كعمل فلا، على حين هو واقع عملا فقط وأما كفكرة فلا...

ويحك يا من يزعم لأحد الشاطئين رجلا يمشى عليها ليتخلص من مقابلته الشاطىء الآخر ومن تقييده بمضادته وممادته على مداه! أرأيت ذلك يكون قبل أن يكون للبحر الذى بينهما جناحان فيطير من بين شاطئيه...؟

ويحك! فما معنى الهجر والمراغمة عليه ولم يطر من بينكما الحب؟

أتجنيها وهى في وجودى، فأحطم بعقلى هذا الفؤاد الشعرى الرقيق الذى بين جنبى واتخذ لها فى نفسى من الهجر اسمًا جافًا يابسًا كاسم الحطب وهى باقية زهرة هذه النفس!

إن هنا وهناك وهنالك ثلاث مواضع للغيط والكمد، ولكنها أيضًا ثلاث مواضع لعظمتى وسموى. إنه لا صلح لقلبين لم يصطلح فكراهما...!

فآه من ألم السمو الذى يجعلنى فرق حياتى على الأشياء والمعانى لتتغير فى نفسى، وأعيش أنا فى مثل هذا الهجر على المعنى الذى لا يتغير كمعنى البلى، ولا يتسامح كمعنى الضغينة ولا يترخص كمعنى العقيدة!

وآه من كبر النفس على صغائر الحياة، ومن صغائر الحياة على كبر النفس! ولقد يكون الملك العظيم فى حشده وجنده وحوله وطوله ثم لا

تعبأ ذبابة من الذباب أن تقع على وجهه، ولو نطقت لقالت صادقة: وإن كان ملكا فإنى ذبابة...

وآه من عين الحكمة التى تبصر كرة الأرض هباءة طائرة فى اللانهاية، وترى الكون العظيم ذرة مكبرة، وتضاعف الأشياء على النفس مرة والنفس على الأشياء مرة أخرى، ولا تبرح تخلق خلقها على ما تحب وتكره لأن فيها ألوهية الفكر!

آه من هجر هو سمو ولكنه من الصغائر، هو حكمة ولكنه من الألم هو هجرها لكنه هو حبها!

obeikandl.com

من قلمها

"وهذه فصول منتزعة من بعض رسائلها نشرناها مقتضبة تلمح بمعانيها لمحًا، ليكون فى هذا الاقتضاب شىء من الإبهام، فتكون مع الإبهام كأنها لم تنشر... ما دامت هى لم تكتبها لتنشر كما تزعم[1]".

فلسفة تأخير الرد:

أخرت جواب رسالتك لتجيب عنى بظنك، وستجيب بأنواع متناقضة مما يسوءك ويسرك. وتضع فى أجوبتك مائة "نعم" ومائة "لا"... ثم يأتيك بعد كلامى فينزل من نفسك منازل لا منزلة واحدة، إذ تقابله بكل ما قدرت فى نفسك من قبل، فيسرك على قدر ما أحزنت هذه النفس، ثم يعطيك من اليقين ما يسرك من ناحية بإثبات الحقيقة ومن ناحية أخرى بمحو الظن!

هذه سياسة بعض ما يحتاج إلى الشرح فى بعض علاقات النفوس يكون السكوت الطويل فيها هو أطول شرح للكلام الذى يأتى بعده... يفسره تفسيرًا غير مكتوب...!

طفولة فلسفية:

أظن هذه الفترة التى انقضت فى سكوت ظاهر كانت كلها أحاديث، أحاديث طويلة لو تعلم.

---

(١) قلت: أكثر هذه الفصول هو من رسائل صاحبه (حديث القمر) وقد أشرت فى بعض ما كتبت من الفصول عن حب الرافعى- إلى ما كان من أمره وأمرها.

إذا أنا سألتك مرة: أين البرهان؟ لم يعجزك أن تأتى به من بلاغتك، وقد لا تكون ثمة قضية يقوم برهانها، ولكنك تجعل البلاغة الساحرة نفسها قضية على ما ترسم، كأنك مهندس منطق... وبذلك تطمئن دائمًا لتأثيرك قوة براهينك، أى لإقناعى أنا راضية أو غير راضية...

أما أنا فأقدم برهانى بسذاجة الأطفال الذين لا يعرفون ولا يستطيعون إلا أن يكونوا أطفالا... وأقوى برهان الطفل أن يكون الطفل نفسه برهانًا عليه، فما عساك تقول؟ أترى الطفل هو عندك أيضًا قضية بلاغة؟

لله من الكتابة إليك! ما أشدها طربًا وأشدها صعوبة فى وقت معا! فأنا أخافك لأنك يستشف من الأحرف مالا يتبينه سواك من الصفحات، وغريب أننى- مع شدة هذا الخوف- لا أكاد أمسك القلم حتى أسير به أو يسير بى أو نسير معاً: ليس فى أحدنا تروية ولا حذر، وكأننى أخاطب نفسى، أو هو يكتب مذكراتى، أى من قلبى لقلبى. أتعجبك هذه الطفولة فى الحديث؟

نعم هى ألفاظ كالتى فى ألسنة الأطفال، لا كتلك التى فى الكتب أو فى صناعة البيان، ولكن إذا لم تغض عن ظاهرها فأين إذا الحفاوة بالمكنونات التى لا يراها إلا من خبئت له؟

قياس الأشياء فى الحب:

كم أراك تحتاط بطريقة ناعمة لا تصدم كبرياء النفس إلا قليلا! ولكن أيذهب عنك أنها حين تصدمها قليلا صدمتها وكفى...؟

ليس كل قليل هو قليلا[1] ولا كل كثيرهو الكثير، فقياس الأشياء بين الأصدقاء لا يكون فى الأشياء ذاتها، بل فى صلة الإحساس التى تكون فى أنفسهم: لأنها إنما تقدر بمقادير الشعور لا بمقادير المادة أما رأيت هذه الصلة الوثيقة أيام كنت مريضًا قد جعلتك مريضتين...

إذا كنت على ثقة من هذه القضية، فأنا الآن راضية عن هذه الابتسامة الطويلة التى أثق أنك تبتسم بها، وإن كنت لا أراها!

البربرية:

باركت الوخزة التى فجرت منك هذه الآيات الساحرة، وكدت أدعو لك بالآلام والأوجاع مادمت لا تكتب إلا من جرح... أتعجبك تمنيات هذه الصديقة البربرية؟

ألا فليهنأ بك هذا القلم الذى أوتيته، فإن ما كتبت به سيبقى دائمًا على آفاق هذه اللغة سحابة وحى تحمل تنزيلها.

وتالله من يتذوق طعم هذه الحلاوة التى تقطر بها براعتك، ليظل من بعدها فى جوع دائم إليها كجوع الأغنياء للذهب.

أراك تبتسم الآن بسمة الرضا: أفيعجبك ثناء هذه الصديقة البربرية؟.

السيد:

تقول إن حبك مسرف وعداوتك مقتصدة، وإن هذا الحب كخضوع المستبدّ فى نفسه والاستبداد فى نفسه قوة، فهو إذا خضع كان واثقًا أن خضوعه قوة أيضا وإن هان وإن ذل.

---

(١) هذا الضمير فى مثل الموضع يسمى... ضمير فصل، وهو حرف لا اسم فلا يعمل فى الأفصح. ومع أن الصديقة لا تعرف من النحو إلا قليلاً، فهى لا تكاد تلحن فى كتابتها ولم تمس إلا قليلا من ألفاظها بتحوير أو تقبيح

يا صديقى السيد... نعم ثم نعم، ولكن كلمتك تجعلنى أرى فى صلتنا هذه نوعًا من تطفل الفتاة على سيادة الرجل، إذ تقتحم بها الفتاة وإذ تجرؤ على ألا تضع هذه الصلة فوق موضعها الطبيعى؟ إن هى إلا خضوع وطاعة وعبودية للسيد...

أليس كذلك أيها السيد؟!

أما والله إن الرجل مهما يغلب نفسه ويحملها على الرقة ليصلها بنعومة الأنوثة من جانبها المصقول الناعم، فلا بد أن تغلبه نفسه مرارًا حتى تظهر حقيقته الحافية الخشنة التى خلق منها ولها:

ولو أن حجرًا أحد جوانبه ماس ثمين وسائر جوانبه الأخرى حجر، ثم مسته الحياة فتمثل بشرًا سويًا، لكان رجلا متحبباً متظرفًا مثلك يا سيدى، وهو من جانب واحد يعتبر المحب، أى الماس ومن ثلاثة جوانب يعتبر السيد أى... أى الحجر...!

السيد أيضًا:

لا يسؤك أيها الصديق؟ فو الله ما أنا بالتى ترغب الإساءة إلى عدو، فكيف بها إلى صديق وإلى صديق عزيز؟ أيغضب السيد من وصفه بالسيد؟

ولكن ما كانت الصداقة لتحمل فى يدها ميزان العدل لكل كلمة وكل معنى وكل إشارة، بل إنها لتصفح كثيرًا عن كثير لتجعل الحق الذى لها أن تستوفيه كاملًا كأنه حق عليها تؤديه كاملًا فتكبر بتسامحها وتنمو.

كن أنت الحاكم على نفسك انتصافًا لما ظلمت به نفسًا أخرى...وإنى أهز يدك بقوة تؤكد لك أن حرارة الإخلاص هى أبدًا قوية من أنها إخلاص،

متجددة من أنها قوية، باقية، مامن أنها متجددة، وبكل هذا هى الحب وهى الصداقة!.

هو المرض ولكن:

نعم هو المرض الذى استحق منى كل هذه العناية، ولكنه المرض على أنه فى جسمك...

أنا إنسانية أعطف على كل أحزان العالم، ولكنى لو تألمت لكل المتألمين لما أثاروا فى نفسى إلا الجزء الأصغر مما تثيره فىّ آلام صديق.

لو تألمت بنفسى أو لنفسى لا حتملت، ولكن ألمى بك، وشفاءه فيك، فهو ألم وجزع واضطراب، أتألم بثلاثة من حيث لا تتألم أنت إلا بأحدها.

نعم هو المرض الذى أثار فى كل هذا، ولكنه المرض على أنه فى جسمك!

جو طليق وحرية:

أنا كما تقول: فى الجو الطليق وفى حريتى المعبودة؛ يحوينى الفضاء وأحويه ولا قيد ولا حد، ولكن مع كل هذا فهناك هناك فى الجو جاذبية، وهناك للحرية أشواق، وما يعين لنا حدود مسراتنا إلا آلامنا.

أضيفت كلمتك... إلى سجل هفواتك فى حق هذه المخلوقة التى لا ذنب لها سوى طيبة نفسها، ومن استحق أن تكون طيبة نفسه من ذنبه فقد استحق أن تكون من عقابه عند نفسه أتريد منى التوبة عن أن أكون لك طيبة النفس؟

افتح للشمس :

أعجب لقلبك، يأبى إلا أن يحتبس فى هذه الفكرة المظلمة التى

توهمك أنى أسأت إليك وقصدتك بالمهانة... هل القلب يعادى صاحبه أحيانًا فيعاديك قلبك ويأبى عليك إلا أن تصر وتكابر وتغلق النافذات كلها ثم تذهب تتهم الشمس؟

ما حيلة الشمس فى الحيطان والأبواب التى أنت تقيمها؟ افتح لها تدخل اليك!

طفل الحب:

كيف قلت عن الطفل الذى أشرت إليه؟ أما تعلم أنه طفل خبيث لا يستحق الرحمة الواجبة للأطفال من كل طبيعة، وأنه ذو مكر، وأنه ذو دعابة وأنه يريد كل شىء قبل أن يفكر فى إعطاء شىء؟

إنه يظن أن كل ما يعطاه فإنما يعطاه ليجعله ألعوبة ومعرض عبثه، يلهو به ويسخر منه إذا كده اللعب أغمض عينه ونام ليجد من الأحلام لذة لعب آخر... ثم لا يلبث أن يهب من نومه فزعًا خيفة أن تكون ألعوبته قد أخذت منه، ولكنه يجدها فينقلب إلى زهوه، ويكون فزعه كذلك فنًا من اللعب ألمثل هذا الطفل تفتح ذراعيك؟

ولكن، ما أكرم عاطفة الرجل الذى يكون فى ساعة من الساعات ألعوبة طفله العزيز! إنه فى الحقيقة عالم جميل من الرجولة القوية يكتشفه الطفل ساعة يلعب به... وفى هذا اللعب يكتشف الرجل كذلك فى طفله عالمًا آخر وأجمل عالمًا من عواطف قلبه.

الطفل وذئبه:

تريد أن أوافقك على ضرورة إيجاد الذئاب لبعض الأطفال...؟ هذا ما لا أسلم به إلا إذا أصبح الذئب حملًا وتغير فهم اسمه ومعناه.

لست أرى من الواجب أن توجد الطبيعة إلى جانب الطفل شيئًا مما

يخيفه ومع هذا فالطفل جبان يخاف حتى من تغريد البلبل إذا سمى له البلبل بغير اسمه، وصلصلة السلاح تخيف الطفل كالسلاح، وذلك بأنه لا يقوى لا سلبا ولا إيجابًا، لا على أن يثبت لما أمامه ولا على أن يفر مما أمامه...

أيعجبك هذا أم أنت تريد أن تنكر على هذا الحق الذى أسلبه منك لتعرف قيمته حين أرده إليك...؟

من بعيد:

أكاد والله أنسى أننى بعيد عنك هذا البعد كله، بعدًا يتقاذف بكلماتى مسافات ومسافات إلى أن تؤدى إليك شعورى ولا أعلم هل يسلبها البعد هذه الصيغة الحقيقة التى أراها لها وأنا أكتبها، وأراها لها حين تتركنى ذاهبة إلى البريد؟

وأنا- على هذا البعد يوم- أقرؤك أراك وإنك لأقرب إلىّ ممن هو أقرب إلى، وأشعر بالكلمات حارة متنفسة بين يدي كساعة كتابتها، كأن قلبى كان عندك وأنت تكتبها فلما جاءته جاءته على عهده بها!

هناك- مهما ابتعدت- دائر أنس لنفسى تسكن إليها وتتعلق بها، ولا تجعل محيط أفكارها إلا منها، فأنا بنفسى فى هذه الجهة البعيدة التى تفصلك عنى، ولكنى بها أيضًا فى المكان الذى أنت فيه.

وهم الجمال

"وبعد أن تكافأت مقادير نفسه واعتدلت من اضطرابها وأشرق على السلوان، كتب هذه الرسالة"[1]:

هذه رسالة أحسبها قد برئت فى معناها من السلوة والحب جميعا وخرجت بموضعها عن الرضا والغيظ معا، ولم تجىء من برد على الكبد ولا من حرة فى الصدر، فلا يخيل إلىّ فيها أنى أنسكب فى تعبيرى كما كان يعتصرنى هذا القلم فى غيرها حنينًا وغرامًا أو سخطًا وموجدة.

أكتبها وقد تكافأ جانبا الحب فى نفسى هونًا هونًا، واعتدلت مقاديرها شيئًا شيئًا، فلا أعتد بسبب تصغر به الحقيقة الكبيرة، أو تكبر الصغيرة، أو يجاوز بمعنى حده أو يقصر بمعنى آخر عن حقه، ولا أحجر فيها على كلام صحيح أن يتصرف بقدر أدلته وبراهينه لما أخشى من سوء موقعة فى الحب، ولا أطلق فيها لكلام مزور أن يتزايد فى مغالطته وكذبه لما أرجو من حسن أثره عند الحبيب.

وأكتبها وقد أصبحت أرى وجهها الذى تحمله كالصورة، يحملها الحائط[2]... وعدت أراها هى وأمثالها من الحبيبات كفقاقيع الرغوة فى ألوانها وجمالها وانتفاخها... وفراغها وصرت أعتقد أن الهول الهائل من

---

(١) انظر كتاب "السحاب الأحمر" لتستجمع تتمة هذه الآراء.

(٢) أى وجه حبيبته؛ وكأن لما أمسك عما كان يمدها به من خياله وأوهام حياته انقلبت عنده كالجماد، وهذا هو الشأن فى كل من عشق وسلا.

النساء الجميلات إن هو إلا كذلك الرعب المخيف من جبال الثلج فى القطب: لا يمسك الجبل الشامخ بما حوله إلا خيوط واهنة من غزل الماء لو قطعتها نسمة لا نهار وانكفأ[1].

وأكتبها وقد خرجت إلى دنيا الناس وكنت فى الحب وإياها كالمنقطع في صحراء ضل فيها ضلال الفقر، واختبل من خبال الوحشية، فهو يرى اجتماع اثنين فى ذلك التيه وقيامها معًا كأنه تكوين دولة من الدول العظمى...

إن البلاغة التى كتبت بها رسائلى من قبل وما احتلت لها به وما صورت من فنونها، هى بعينها التى تنتهى فى هذه الرسالة إلى أن جمال المرأة الجميلة، ليس فى ذات نفسه إلا أسلوبًا من الخداع، كالذى يكون فى تزويق الكلام وتمويه الحقيقة ببلاغة التركيب، غير أنه أسلوب حى فى لحم ودم، ثم تزيده المرأة بفنونها تزويرًا وتعمية لأن جمالها فى صورة أخرى من صوره الكثيرة هو نفسه الرق والاستعباد محببًا فى خلقة جميلة ليطلب ويعشق.

استعباد حى متى بدأ استمر يقوى ولا يضعف، وينمو ولا ينقص، ومن هذا كان قيد الجمال لا يفك أبدًا إذا غل به أسيره من العشاق، بل يكسر كسرًا، ويصبح فيه أمر العاشق من حبيبه كالاستقلال فى الأمم المستعبدة: لا يعطى بل يؤخذ، ولابد فيه من الجرأة والمصابرة والاقتحام وسلاح من الأسلحة أيها كان، إما حاطمًا أو مفزعًا أو متهددًا أو محتالاً أو سلاح الرضا أو سلاح الثمن... وما إليها لابد من سطوة ينقلب بها الأسير

---

(١) تتصل جبال الثلج بعضها ببعض اتصالا ثلجيا، فكثيرًا ما تهورها النسمات الخفيفة حين تفصل بينها.

المستعبد إلا أن يكون مالكا بوجه من وجوه التملك فى تلك المنطقة الإنسانية السحرية المسماة فى لغات الناس بالحبيب...

فكأن الجمال فى حقيقته وسيلة طبيعية لخداع صورة بشرية بصورة بشرية مثلها؛ ومتى كان كذلك فلا حقيقة له فى الوجود ولم يعد صورة فى الطبيعة، بل عملا أداته الصورة، ومن ثم فلن يكون الحب إلا إسرافًا لا قصد فيه، وخيالا لا عقل له، ولن يكون فى حقيقة بل فى وهم، ومن ذلك ظل فلن يكون أبدًا إلا تغييرا فى معانى الصورة الجميلة فإن الإسراف لا يثبت على حد محدود، والخيال لا يقف عند شىء حقيقى، والوهم لا ينحصر فى معنى صحيح.

وفكر المحب كالسائل الذى يغلى. فما دامت ناره من تحته فهو كله لا مقر له بين أعلاه وأسفله، ومادام يهدم على فورته[1] فكله فى الأعلى، وكله فى الأسفل وكله بين ذلك، ولا قرار له على وضع إلا أن ينكسر وينفى[2]

وكل شىء جميل فى الطبيعة تراه يتخذ من هذا الأصل شبها عند متأمله والناظر فيه، حتى لكأن الجمال يقول للإنسان: إذا أردت أن تسر أيها الإنسان وتبتهج بى: فلا تفهمنى فى نفسى أنا بل فى نفسك أنت، ولا تأخذنى على ما أنا للوجود والطبيعة بل على ما أكون لك ولأغراضك ولا تدعنى لذاتى بل غيرنى فى وهمك وخواطرك، فإنك إن غيرتنى فقد خلقتنى، وإن خلقتنى فقد جعلتنى لك.

وعلى ذلك الأصل فجمال المرأة المشوقة إن هو إلا خرافة رجل

---

(١) الهدير: صوت القدر وهى تغلى على النار وتقود.

(٢) أى تنكسر حرارته وتخف وتبرد.

من الناس، وبكونها خرافة عادات لا حقيقة لجمالها، وكأن الحب إن هو إلا زيادة شعاع فى العين تنظر النفس به نظرًا نافذًا إلى موضع لذتها أو فكرها أو هواها، فإذا خطف هذا الشعاع على من يضىء فى وجهه بالحب، نقل إليه النفس ببقيتها ووهمها جميعا فاختلطا على تلك الصورة فهما هناك شىء واحد: الوهم هو اليقين واليقين هو الوهم: فكل شىء من ذلك الجمال هو عقيدة ثابتة لا موضع فيها لجدل ولا مساغ لنقض ولا محل لرد، وحينئذ لا يكون أكبر عمل المحبوب فى سياسته وتدبيره إلا أن يلق أو يوفق بين عقله هو وبين جنون عاشقه، وأن يحاول الملاءمة بين حياة الخيال الشارد فى إرادة هذا المجنون وبين حياة الواقع الراهن فيه هو، وبذلك فلن ترى حبيبًا إلا هو من محبه بمنزلة الطبيب من مريضه، يطلب له أو يزيد فى علته، أو يهلكه... هذا حين ينبعث ذلك الشعاع، فأما حين يخمد فمن ذا الذى تراه مطيقًا أن يصعد السماء إلى النجم الذى انطفأ ليضيئه كما كان يضىء...؟

أقول إن الحب زيادة شعاع فى العين، كأنه كهربائية تتفاعل فى مركز البصر من الدماغ فينقدح منها ضوء على النفس متلون نافذ لا يثبت فيه حقيقى من المرأة على حقيقته، ولا يظهر فيه شىء إلا مصبوغا مغيرًا.

ولا يرده راد عن أن ينفذ إلى منتهاه، حتى لينكشف له المستور وهو فى أستاره قد توارى، وما من حبيبة تجلس إلى محبها المفتون بها الا هى تحت بصره كالعارية وأن لبست ما لبست، لأنها بالحب جسم حى من أفكاره وهواجسه ونزعاته[1].

---

(١) ما أحكم الآية الكريمة ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾ والآية الأخرى ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ فكأن المرئى لا يمكنه أن يستتر عن شهوات ناظره بشىء ما ، فمن هنا وجب أن تستتر عن الرائى، وهذه هى حكمة التعبير بـ "يغض ويغضضن" وتكرار اللفظة فى =

ولو بقيت عين المحب على عنصرها لكان الجمال فى روح الجميل وشمائله وطباعه لا فى وجهه وجسمه وزينته، ولعل أجمل نساء الأرض حينئذ لا تكون إلا عجوزًا من العجائز.. ثم عسى أن تكون أشد النساء فتنة أشدهن قبحًا ودمامة وأبعثهن فى معاني الشهوات على النفرة والجفوة والاشئمزاز، وهذا إن لم يكن هو الواقع فى اعتبار العين والخيال والحب، فهو الواقع فى اعتبار الفضيلة والحقيقة والكمال.

إنما التركيب الجميل فى الشكل الفاتن إتقان للكذب بهذا الشخص على حواس عاشقه، وهو لن يحب ويعشق حتى تكون معانى هذا الإتقان موزعة على تكوينه وقسماته وتقاطيعه ومعارفه ومجاهله.. كأن جسمه بكل ما فيه عبارة مركبة يؤخذ المعنى من جملتها كلها، ولكن كل جزء فيها يسوق إلى هذا المعنى، ولذا تظهر الصورة الجميلة الفاتنة كأنها انتباه نفسى محتفل مستوفز يشد ويتوثب ليزيد، ويتكسر ويتقتل ليزيد أيضًا، ويخلق حوله من الثياب والزينة والفتنة جو الأشعة والألوان والنفحات ليزيد كذلك.

وهل رأيت قط كذبًا يصلح كذبًا أو خداعًا يكون خداعًا إلا وهو قائم على مثل هذه الحال من التنبه فى النفس ليتغطى ولا ينكشف ويبقى ولا يضمحل؟ ثم هل رأيت قط شبيها لمن أضل رأيه وصوابه فى وجه فاتن يعشقه إلا ذلك الذى أضل حذره وفطنته حين أحكمت له الخديعة فى حلاوة الظاهر وطلاقة الكذب وتبرج الحيلة وزينتها حتى غفل ووقع؟ فهذا كما ترى.

وإذا لم تجد الجمال فى فتنته ونضجه وقوته كأنه انتباه نفسى

= الآيتين، كأن العين تختبىء وتستتر، فهل رأيت إعجازًا أبدع أو أدق من هذا؟

محتفل مستوفز على ما وصفنا لك، فلن تجد معه العشق الذى يسمى عشقا، ومنذا ويحك يستهام بامرأة مدبرة قد خلا من سنها واقتحمت العقبة الأخيرة[1]، أو امرأة مريضة نهكتها العلة، أو التى نقيت روحها فى جسمها ولكن مات وجهها[2]...؟

وعندى أنه لو شبه العاشق وجه حبيبه بالصحراء المجدبة المقفرة قد ضل فيها رشده وضربته بكل جهاتها وضاع فى معناها الأبدى معنى عمره الوقتى، لما رضيت له الحقيقة غير هذا التشبيه المنطبق المحكم ولا رأت أقرب ولا أدق ولا أبدع منه، ولكن الوجه الجميل كذب ظاهر ولا يلائمه إلا كذب مثله، ومن هنا فاض الشعر وأصبحت أوصاف الجمال كلها تمويها على الغرير وتزويرًا للبشرية فى غير حقيقتها وتلبيسا على روحانية الإنسان، وعاد الوجه الجميل كالصالح المنافق: صالح ومنافق معا: أى منافقان فى شخص واحد...!

والطفل يرى فى أمه البداية والنهاية جميعًا، لأن طفولته ستار بينه وبين ما وراءها، وكذلك العاشق، يرى فى حبيبته بداية ونهاية معًا، لأن حبه ستار بينه وبين ما عداه، يحصره بين أول وآخر فى امرأة واحدة، أفلا يكفى هذا دليلًا على بلاهة العاشق وغرارته، وأن الحب كالانتكاس إلى الطفولة فى جهة واحدة من جهات النفس؟

وترى الصغير إذا فارقته أمه نظر فيما حوله ليستشف ما انفصل من آثارها المحبوبة على كل الأشياء التى فيها حنين نفسه، وكذلك يفعل المحب فى كل ما مسته حبيبته، حتى كل شىء عليه لمحة منها، حتى

---

(١) خلا من سنها: أى كبرت وذهب أكثر عمرها، واقتحمت العقبة الأخيرة: كناية عن دخولها فى الشيخوخة.

(٢) كناية عن دمامة الوجه وذهاب جماله مع بقاء الجسم فتيا شابا.

ليرى بعض الأشياء يكاد يبتسم له وبعضها يرنو إليه، وبعضها يكاد يتيه ويتدلل ويصد..

وحول الحبيبة، تتفق لعاشقها كل عناصر الحياة المتناقضة إذا شاءت هى، ومنها هى أيضًا تختلف هذه العناصر عليه إذا شاءت، كأنها- أى الحبيبة- حياة لحياته لا مقصر له عنها، وكذلك أمر الطفل من أمه ووهمه فيها.

خلقت المرأة لتلد الإنسان، وهى تلد هذه الحقيقة فى الإنسانية، ولكن وجهها يلد فى الإنسانية الضلالة..

ولا أدل على وهم جمالها وأنه فى نفسه وفى نفسها لا أثر له- لا أدل على ذلك من أن تتراءى الجميلة فى مرآتها؛ ثم تنظر نظرتها الساحرة ترف بالقبلة من شفتيها على شفتيها فى المرآة..

أما إنها وهى القبلة التى تلقيها الشفاه الحمراء شعلة منها فى القلب أو الفكر وهى القبلة التى احتوت روح الخمر فى سيالها المعنوى، وهى القبلة. هى القبلة!

ولكن الجميلة حينئذ ستقول: إنه لابد من رجل مغفل ليخلق هذه المعانى للقبلة ويسمى من جنونه تلك الحركة الطبيعية للشفتيين باسم مجنون.

والمرأة ترى بعينيها فى إناث الطير والبهائم من الجمال ومعانيه ما يروقها ويكثر عندها، غير أنها لا تحس ذلك من امرأة مثلها، إذ من الصدق ألا يصدق، كاذب كاذبًا[1].. فإن لم يقنعك أيها الرجل دليل فهذا فليقنعك...!

---

(١) تشذ فى هذا بعض النساء المذكرات اللواتى خلقن ذكورا وانحرفن فى التركيب إلى الأنوثة، فتراهن يعشقن النساء عشق الرجل ويغرن عليهن أكثر من غيرته، وهن قليلات.

ومن ثم فما يعرفه الرجل جمالا منها إنما هو فن جسمها، أي تعبير تكوينها عن حقائقها النسوية ومجاوبته بمعانيها على ما فى نفس الرجل من معان تقابلها. هذه المعانى الصامتة والصارخة معًا. والتى نسميها تسمية غير مكشوفة وغير مغطأة أيضًا- هى التى تضع لما يشعرنا بها ويستهوينا منها لفظ الجمال؛ فيكون بذلك مفهوما وغير مفهوم...

فليس الحب إلا وقوعك فى التيه الذى يكون بين الفكر وهو رأى ورغبة، وبين الفكر وهو حقيقة وحادثة، ومن هذا تجد لذة الحب الشعرية بطبيعة الحال لا تملأ إلا المسافة الكائنة بين غير الممكن[1]... ومن تهكم السعادة على الناس أنها دائمًا فى غير الموجود إلى أن يوجد.

قال الشيطان: أنا لون هذه المرأة الجميلة حين أكون منافقًا[2]، ولون هذه المرأة القبيحة إذا أكون صريحًا.

قلنا: فلعله لذلك لا تتجمل إلا الجميلة ليتم بها نفاق الشيطان...!

---

(١) الأكثر أن الحب الشعرى هو الحب الخائب، ولكن فى بعض الناس أرواحا قوية لا ترى أهنأ الظفر إلا فى هذه الخيبة إذ هى لا تريد المرأة بل معانيها كما نبهنا إليه فى المقدمة.

(٢) يتفق لنا كثير أن نرى فى النوم كأننا نقرأ شعرًا أو نثرا أو كلمات من اللغة وتفسيرها، ويجىء بعض ذلك على أتمه من الجمال والروعة والغرابة ومنه هذه الجملة بحروفها، أثبتناها كما هى ثم أكملناها بالباقى من لون المرأة القبيحة، لتتم المقابلة وفى الكتاب بعض جمل مما ألقي إلينا مناما ولكنا ننبه عليها، ومنها عبارة «غرس الفجر» فى الكناية عن الحديقة بألوانها ونسيمها وجمالها وهى كما نرى قد لا تجد مثلها فى الأدب العربى من أول عهده إلى اليوم، وما كان لنا فيها من عمل ولا فكر البتة.

وإنما أثبتنا هذا التعليق ليوقن من لم يوقن بأن من الممكن أن يأتى الوحى بأسمى البيان وأعلى الحكمة وأعجب البلاغه، متى كانت النفس مختارة مصطفاه، كالذى أوحى من الكتب المنزلة، فليس يشك فى ذلك إلا غبى بليد الحس لا يدرى ما هو البيان وما الإلهام. ولسنا نزعم أن ما رأيناه هو من هذا القبيل وإنما هو الدليل على إمكانه لاغير.

قلت: فى هذا التعليق شىء يكشف عن نفس الرافعي وإيمانه ويقينه، وفى كتابنا "حياة الرافعي" فصل ضاف يجد القارىء فيه تمام الحديث عن هذا الموضوع بعنوان "من شئونه الاجتماعية؟".

والسلام عليها

"وهذه كانت آخر رسائله فى حب صاحبته تلك [1]"

أحببتها جميلة لأوجد بها الجمال فى معانى وذوقى؛ ورقيقة لأسيل منها بالرقة فى عواطفى ونزعاتى، وظريفة لأزيد بها فى نفسى طبيعة مرح وابتهاج، ومتوازنة لتدخل فى طباعى الانسجام والوزن وصحة التقدير، وناعمة لتخلص بروحى من خشونة الضرورات القاسية فى الحياة، ومتفترة لألقى من تفترها على بعض أيامى فتنقلب حبيبة بما تمنع وتصد ورشيقة لتهب خيالى سر التوثب والحركة، وجذابة لأجد بها المغناطيس الذى يجذبنى فى الإنسانية إلى مصدرى الأعلى.

وأحببتها وهى بجملتها فن وجمال ووحى، لأرجع وأنا بجملتى حسن وانفعال وإدراك.

وكنت كأنما أضرب من الحياة فى قفر من المعانى الجافية لا أتوسم نضرة لا أتهدى إلى حقيقة جميلة، فأرسلتها الحقائق السامية التى تعشقها نفسى تقول فى جمالها: تعالى إلينا من هنا: إن الطريق من هاتين العينين...!

---

(١) قلت إن كانت هذه الرسالة هى آخر ما أنشأ الرافعى من رسائل الحب فقد أنشأ من بعد فصولا من وحى هذا الحب ومن ذكرياته، يطالعها القراء في «وحى القلم»، ورسائل أخرى بعث بها إليها بعد ما كان بينهما من القطيعة بعشر سنين ولم تجد صورة منها فيما خلف من أوراقه أتراها تأذن بنشرها أو هى تدخرها إلى ميعاد؟ اقرأ ص١٤١ من كتابنا «حياة الرافعى».

لا أقول إنه قد وقف نمو الكلمة السحرية التى تزداد وتعظم بتجدد الأيام إذ كل يوم فى الحب هو دائمًا أول حب.

... ولا أقول إن ذلك الاسم الجميل قد أنزل عن عرش الفكرة التى كانت تملكه الوجود لأنها أملكته القلب.

... ولا أقول إن الذكرى قد سلط عليها النسيان فصفاها من حوادثها وأيامها.

... ولا أقول إن ما كان فى النفس جنونًا وعقلا من معانى الحب قد رجع فى النسيان كالكلمة المكتوبة على ورقة حبس فى الورقة معناها إلى أن يوجد من يقرؤه فيخرجه.

... ولا أقول إنها قد بطلت القوة المتضاعفة من الجمال وكانت تجعل كل ما يؤلم من الناس يؤلم منها هى أضعافًا، وكل ما يسر من الناس يسرُّ منها هى أضعافًا، كأن الذى هو إنساني فى الخلق ليس إنسانيًا فيها.

... ولا أقول إنه اختفى من ذلك الوجه برهانه الذى كان يقوم بسحره الساحر دليل مقحمًا فى كل قضايا الحبيبة المتناقضة، فلا تتوافى وهى متناقضة إلا على نتيجة واحدة هى أنها الحبيبة، مهما تأت أو تدع فليس بشىء منها على هوان.

... ولا أقول إنه ليس بين ما تعجب به وما تزدريه إلا رجعة خطوة منقلبة وأنها هى قد خطتها فليست هى بعد.

... ولا أقول إن روضة الحب قد انتهت إلى أيامها المقشعرة التى تظهر فيها كل أشجارها من حاملة اليبس والتجرد اعلان آخر الفصل...

... ولكنى أقول..... والسلام عليها!

تم بحمد الله تعالى

المحتويات

الموضوع	الصفحة
تصدير	٩
صدر من التاريخ	١٥
مقدمة	٢٧
وزدت أنك أنت	٣٥
زُجَاجَةُ العِطْرِ	٣٨
ما نفع رقة روحى؟	٤١
رسم الحبيبة	٤٢
البلاغة تتنهد	٤٦
رسالة للتمزيق...	٥٠
القمر	٥٦
قال القمر...	٦٠
نظراتها	٦١
استمداد فلسفة	٦٥
صرخة ألم	٦٩
... وألم الحب	٧٣
منى السلام	٧٧

obeikandl.com

الموضوع	الصفحة
الحبيبات والمصائب...	٧٨
رسالة الابتسامة	٨٤
جواب الزهرة الذابلة	٩١
ياللجلال..	٩٤
الأشواق	٩٩
كتاب رضا	١٠٣
رواية القلم...	١٠٤
نار الكلمة	١٠٨
المتوحشة...!	١١٢
أما قبل	١١٧.
جواب غريب	١٢٣
كذب مصور	١٢٩
لماذا .. لماذا؟	١٣٠
كتاب لم تكتبه...	١٣٦
قالت وقلت	١٣٩
الغضبى	١٤٣
هدية شتم...	١٤٩
متى يا حبيب القلب	١٥٢

obeikandi.com

الموضوع	الصفحة
صلاة في المحراب الأخضر	١٥٣
شجرات الشتاء	١٦١
رسالة الطيف	١٦٥
في العتاب	١٧١
في الأحلام	١٧٥
في معاني التنهدات	١٧٦
أليس كذلك	١٧٩
النجوى	١٨٤
هل أخطأت..؟	١٩٤
قلت وقالت	١٩٧
يا قلبي	٢٠٤
البحر	٢٠٥
فلسفة المرض	٢٠٩
يوم النوى	٢١٤
الهجر	٢١٥
من قلمها	٢٢٠
وهم الجمال	٢٢٧
والسلام عليها	٢٣٥

obeikandl.com

obeikandl.com